شرح ما نطقتْ به روحانية سيدي علي الكردي

ابن عربي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هــذا شرح للإمام العالم الراسخ الوارث الأكمل أبي عبد الله محمد بن علي بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي t ونفعنا به وبعلومه.

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، أما بعد ...

فهذا شرح ما نطقت به روحانية العبد المُوله، صاحب القلب المُدله، سيدي علي الكردي، على لسان من علم ما لديه، فاستند إليه، يوسف بن إبراهيم الشافعي، [قسيمه](١) في النسب، والجاري معه في السبب، والمادة شامية دمشقية ما تعداها، بل كما أخذها أداها، وهي بين ذوق وإلقاء، ما فيها كناية ولا لقاء، ذكر لي صاحب اللسان، فأولّ ذلك بانتقال فأبان:

(أول ما يجب على المريد: أن يسلب اختياره، ويكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي المُغسل، وأن يتصدق في مشيه إلى الشيخ، وعليه الذلة والسكينة، ويكون مشيه في المنخفض من الطريق المتواطي، وأن يكون في نفسه، أنه دون كل من يلتقيه في طريقه إلى الشيخ، وكذلك في كل أحواله، فإذا قرُب من منزل الشيخ، فإن كان هناك مسجد دخل فيه، وصلى، وسأل الله تعالى أن يُعطف عليه قلب الشيخ، فإذا فرغ من الصلاة يأتي باب الشيخ، ويقف بالبعد من الباب، تأدبًا بين يديه).

قوله: (أول ما يجب على المريد أن يسلب اختياره) يريد مريد التربية، أي: الذي يكون في خدمة شيخ، وأضاف السلب إليه، وجعل

---

(١) في (ب):قسمه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفعل في ذلك له، فإن [البيعة][1] إنما تكون على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، وعلى الحقيقة؛ فهذه صفة المؤمن، فأحرى للمريد.

وما سُمي المريد مريدًا؛ إلا لكونه ذا إرادة، فإنه لابد أن يريد ما يريد شيخه، فلابد له من إرادة تقوم به، كما قال أبو يزيد [2]: أريد ألا

---

(١) في (ب): التبعية.

(٢) سيدنا ومولانا العارف أبو يزيد البسطامي t ، واسمه: طيفور بن عيسى بن شروشان قُدس سره، ونفعنا الله به آمين، له أقوال في الحقائق والحكم جمعها السهلجي في كتابه **"النور من كلمات أبي طيفور"** وهو كتاب حق أن يكتب بماء الذهب، طُبع باسم **"شطحات [السادة] الصوفية"**، وأفرد ابن الأطعاني (المتوفي سنة ٨٠٧ هـ) في مناقبه، ومناقب سيد الطائفة - قُدست أسرارهم- في كتاب **"روضة الحبور ومعدن السرور في مناقب الجنيد وأبي يزيد طيفور"** (ط. دارة الكرز/ القاهرة)، وترجم له غيرهما كثير من أهل الطبقات والتراجم، وكان هِجّيره أنه كان يقول: يستزيد أبو يزيد ولا مزيد على التوحيد.

وقيل له: بم بلغت إلى ما بلغت؟ قال: بأشياء: اتخذت الله سبحانه مُعلمًا، فقلت: إن لم يكفك ربك لم يكفك أحد غيره في السماوات والأراضين، وشغلت لساني بذكره وبدني بخدمته، كلما أعيت جارحة رجعت إلى الأخرى.

وقال قدس الله سره: علامة الانتباه حمسة: إذا ذكر نفسه افتقر، وإذا ذكر حوبته استغفر، وإذا ذكر الدنيا اعتبر، وإذا ذكر الآخرة استبشر، وإذا ذكر المولى افتخر.

وسُئل فقيل له إن الناس يقولون: إن شهادة لا إله إلا الله مفتاح الجنة، فقال: صدقوا، ولكن لا يفتح المفتاح بغير مغلاق، ومغلاق لا إله إلا الله أربعة أشياء: لسان بغير كذب ولا غيبة، وقلب بغير مكر ولا خيانة، وبطن بغير حرام ولا شبهة، وعمل بغير هوى ولابدعة.

وقال t : أحببت الله حتى بغضت نفسي وأبغضت الدنيا حتى أحببت الله، وتركت ما دون الله حتى وصلت إلى الله، واخترت الخالق على المخلوقين حتى آنست به.

وسُئل متى يكون الرجل عاملاً على معنى العبودية؟ فقال: إذا لم يكن له إرادة، فقيل له: وكيف يكون ذلك، قال: تكون إرادته وتمنيه وشهوته داخلة في محبة ربه، ولا تتقدم له إرادة في شيء أبدًا حتى يعلم إرادة الله U ومحبته فيه.

وقال عيسى بن آدم - ابن أخيه -: كنت عند أبي يزيد فذكر عنده الجاه والنفس، فقال: يا أبا موسى، إن المؤمن بلا نفس، ثم تلا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم**﴾ [التوبة:١١]، فمن باع نفسه فكيف يكون له نفس.

وقال: أول مقام التوحيد أن تكون للعلم قائلاً ومستمعًا.

وسمع t رجلاً يقول: الله أكبر، فقال له: ما معنى الله أكبر؟ فقال الرجل: أكبر من كل شيء سواه، فقال له: ويحك حددته أو كان معه شيء فيكون أكبر منه؟ فقال له الرجل: ما معنى الله أكبر، فقال أبو يزيد: أكبر من أن يقاس بالناس، أو يدخل تحت القياس، أو يُدرك بالحواس.

وسُئل عن الصوفي فقال: هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسول الله r بشماله، وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة والأخرى إلى النار يتزر بالدنيا ويرتدي بالآخرة ويلبي من بينهما للمولى: لبيك اللهم لبيك.

وقال t : ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر.

وقال t : عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئًا أشد عليّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد. مات سنة إحدى وستين ومائتين. [انظر ترجمته روضة الحبور(=

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أريد، فأثبت لنفسه إرادة، وطلب نفيها عن نفسه، ولم يرد إرادته من نفسه، وإنما كان مطلبه من الله، أن تكون إرادته، إذ ولابد منها تبعًا لإرادة مولاه، فيريد العلم بما يريده ربه، فيريده وهو أعلى مرتبة في هذا الباب، وأما المرتبة التي هي دون هذا في هذا الباب هي أعلى في المقام في دار التكليف، فهي هينة الخطب عند المُوَفَّقُ ، وهو أن الله قد شرع الأحكام وفرغ منها، فقد سلب الإرادة بهذا الفعل عن كل مؤمن بالله، فلا يريد أمرًا إلا ما أراد الله U في شرعه، فلا إرادة له من نفسه، وإنما إرادته ما أريد به، وقد أبان ذلك الحق للمؤمنين بما شرع لهم، ولهذا المؤمن يصحب ولا يصحب سوى حكم إيمانه، كالنبي لا يصحب أحدًا سوى نبوته؛ لأنه يحكم بما يُوحى به إليه، لا بحكم نفسه، والمؤمن بحكم إيمانه، لا بحكم نفسه، والمَلِك بحكم مُلكه، لا بحكم أحد، فلا يصحب سوى ملكه وبه يحكم.

كذلك المريد الحق الصادق، لا يصحب سوى شيخه، فلا إرادة له من نفسه؛ إلا ما يريد به شيخه، ولذلك قال: (أن يسلب اختياره) فيكون واحد الإرادة، وليست إلا إرادة شيخه به، فما قال: أن يسلب إرادته، فإن ذلك لا يصح، وإنما يسلب اختياره، فلا يختار إلا ما أراد به شيخه، وما لم يكن يريد به مجهول عنده حتى يأمره بما يأمره فيريد، فلابد ما أراد به شيخه، وإن لم يكن كذلك فليس بمريد تربية، ولا يجيء منه شيء أبدًا، ومتى زعم أنه مريد تربية، وهو بحضور شيخ، وتصرف في أمره بنفسه، من غير إذن شيخه في ذلك فهو كذاب.

وإنما ينبغي له، إذا طرأ أمر أن يقتضي التصريف به ولابد، وله وجوه عديدة: منها ما يكرهها، ومنها ما يحبها، فينبغي له أن يعرض على شيخه ما طرأ، حتى يُعين له الشيخ وجهًا من وجوه التعريف في

=

ص (٢٣) / ط. دارة الكرز)، الحلية (٣٣/١٠)، الكواكب الدرية (٢٥٧)، الرسالة القشيرية (١٧) الطبقات للشيخ الشعراني (٧٦/١)، صفة الصفوة (٨٩/٤، ٩٤)، المختار من مناقب الأخيار لابن الأثير (١٨٢/٣)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك، فإن عين ما كان يكرهه، تعود تلك الكراهة حبًا لذلك التصريف، حيث عينه له الشيخ، وإن كان مما يحبه فبخ على بخ، وإن كان من يفعل ما يكره الشيخ على كُره لا على محبة، فهو صاحب مجاهدة ومكابدة، ويعلم أنه دون الذي رجع المكروه له محبوبًا، ولابد، وكِلا [الأمرين] (١) يتصفان بأنهما محبوبان مسلوبان الاختيار.

وبعيد أن يوافق الشيخ غرض المريد أصلاً، بل الشيخ يراقب أحواله، إذا علم صدق المريد في محبته، وأنه يريد المرتبة العالية، فكلما رأى له غرض محبة في أمر، جاءه بخلاف ما يريد، لأن الشيخ كماشطة العروس، إنما يقوم له مقام الحق، فلا يأمره إلا بما يعرف أنه يريد الحق تعالى ذلك منه، فلا يزال المريد جاريًا مع إرادة شيخه به، إلى أن يعتاد ذلك، والخير عادة، ويطيب له، فإن فقد المريد الشيخ بموت، أو بسفر، كان مع الحق بتلك المثابة والصفة، وهذا هو مقام السماع من الحق، ولاسيما إن كان المريد صاحب بيت له زوجة وأولاد، فيحب الأولاد بالمحبة الطبيعية، ويحب الزوجة محبة الكل لجزئه، وهي محبة الشهوة، والشيخ المحقق يحول بينه فيما يصرفه فيه، وبين ما يحبه لأولاده وزوجته، فإن صبر على ذلك فهو صادق، وإن أحب ذلك عندما يريد الشيخ به، فهو صِدِّيقٌ تام، أعظم درجة في المعرفة من الصابر.

ألا ترى كيف قال أبو يزيد لربه:

أُرِيدُكَ لا أُرِيدُكَ لِلثوابِ (٢)

---

(١) في (ب): المريدين.

(٢) من بحر الوافر لشهيد المحبة الإلهية الإمام الحسين بن منصور الحلاج قدس سره [٢٤٤ - ٣٠٩ هـ / ٨٥٨ - ٩٢٢ م]، من أهل بيضاء فارس، صحب الإمامان الجنيد والنوري وغيرهم وهو من تلامذة الإمام سهل بن عبد الله t التستري، قال له رجل أوصني قال: عليك بنفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك عن الحق. وكثرت الوشايات به إلى المقتدر العباسي فأمر بالقبض عليه فسُجن وعُذب وضُرب وقُطعت أطرافه الأربعة، ثم قُتل وحزّ رأسه وأُحرقت جثته =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإنه محبوب للنفوس، أعني: الثواب.

ثم قال:

وَلَكِن أُرِيدُكَ لِلعِقابِ

لأن العقاب غير ملذوذ للنفوس.

ثم قال:

فَكُلُّ مَآربي قد نِلتُ مِنها

يقول: جميع ما أردت بي مما كنت أحبه، قد أمرتني بإتيانه، فكنت ألتذ به، حيث وافق أمرك هواي فيه.

ثم قال:

سِوى مَلذوذِ وَجدي بِالعَذابِ

قال: فأريد منك أن تأمرني، بما أكره فعله بهوى نفسي، وأجد اللذة بفعله بعد الكراهة، ولذلك قال:

مَلذوذِ وَجدي بِالعَذابِ

أي: أجد اللذة فيما أكره، كما أجدها فيما أحب، فطلب المقام العالي، الذي نبهنا عليه.

وكان يقول: كل يوم يا رب بعثت إليّ خبزي، وما بعثت إليَّ بلاءً آكله به.

ولا شك أن الإنسان المتغذي، يحب الإدام ويلتذ به، فكان يطلب اللذة بالبلاء.

=

وأُلقي رمادها في نهر دجلة ونُصب رأسه على جسر بغداد. أورد ابن النديم له أسماء ستة وأربعين كتابًا غريبة الأسماء والأوضاع منها: (الطواسين)، (الكبريت الأحمر)، (قرآن القرآن والفرقان)، (هو هو)، (اليقين). وكل المنسوب إليه من الأقوال المخالفة ليست موجودة في كتبه، ولا يوجد دليل يعتمد عليه في صحة نسبتها له نفعنا الله بإعتقاد الولاية في شخصه رضي الله تعالى عنه [انظر ترجمته طبقات الصوفية ص(٣٠٧)، الكامل في التاريخ (١٢٦/٨)، طبقات الشعراني (١٠٧/١)، المختار (٢١٦/٢)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول أهل الله: ليس العجب من ورد في بستان - يشيرون إلى مَن أمر بأمر، ما له فيه محبة ففعله - وإنما العجب من ورد في قعر النيران.

يقولون بالإشارة إلى مَن أمر بما يكره، فعاد ملذوذًا له للأمر به، فيفعله باللذة التي فعل ما كان يحبه حين أمر به، بل العالي يتساوى عنده اللذتان، أويترجح لذة فعل المكروه على فعل المحبوب، وهو دون ما يساوي عنده ذلك، فإنه لا يقع التساوي في الالتذاذ بالأمرين، إلا من مُحق ثابت القدم مع إرادة مولاه، وأما إن أراد لذة الأمر بالمكروه على لذة الأمر بالمحبوب، فهو عالٍ في الجهاد، وليس بمحق.

وأما العارفون بالحق، الذين هم بمنزلة المريدين مع الشيوخ المُربين لهم، فإنما سلبوا اختيارهم مع الحق، لمشاهدة صحيحة في نفس الأمر، وأعطاهم الذوق سلب الاختيار عن نفوسهم، فهم مع ما يختاره الحق لهم وبهم، وبهم في كل ما يُقامون فيه بربهم، لا بأنفسهم، ومشهدهم في ذلك قول الله تعالى: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ... الحديث»[1]، فأخبر الحق أنه قُوَى هذا العبد كلها، ومن جملة قواه الإرادة، فإنها من صفاته، فهو تعالى إرادته التي يريد بها، وإنما كان هذا الحق، عين إرادة هذا العارف، والحق مريد، فتلك الإرادة الظاهرة التعلق من هذا العبد بأي مراد كان، إنما هي إرادة الحق لا إرادته، إذ لا إرادة له في نفس الأمر.

وإذا كان المريد مع الشيخ بهذه المثابة، حينئذ يتعين على الشيخ، إذا عرف أن المريد قد تلبس به هذا التلبس، أن يزول له، ويُجلي له الحق بالقوة التي عنده في صورة الشيخ، وإذا ألبس به، وجرى على

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة t كتاب: الرقاق، باب: التواضع رقم (٦١٣٧) (٥/٢٣٨٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عادته معه في الحكم كشف الغطاء عن بصيرة المريد، فرأى أن الحق هو الذي كان يربيه في صورة الشيخ ومادته، وبعد هذا الكشف فلا يقع حجاب أبدًا، وهذا أعلى مقام يصل إليه العبد في هذا الباب - يعني في باب سلب الاختيار في جميع الأفعال والتصرفات - وما كان عندي في الطريق بفضل الله أسهل من هذا المقام، ولا أهون علىّ ، فإني ذقته في أول قدم، فتساوى عندي الالتذاذ بما كنت أحبه وأكرهه، وسُلبت محبة الأشياء وكراهتها، وما كنت أشهد منها سوى عين وجودها، من غير محبة ولا كُره، فكنت أتهيأ، وآتي بها لكون الحق أمرني بها في صورة الشيخ ولسانه، ولا يخطر لي فيها خاطر محبة ولا كراهية، لغلبة مشاهدتي إياه في ذلك، وليس وراء هذا الحال حال يكون أتم منه في هذا الباب خاصة.

ومن هنا ينتقل العبد إلى حال الرضا والغضب، اللّذين هما نعت الحق، من كونه يغضب ويرضى، فيرضى لله بالله، ويغضب لله بالله، ولذلك مواطن معلومة، يصرفها فيها، وما كل أحد يقدر على الرضا والغضب بالله، وليس من أحب في الله، وأبغض في الله يدخل في هذا المقام، بل قد يكون الراضي في الله، والغاضب في الله [له] (١) حال الرضا بالله والغضب بالله، وهذا المقام الذي انتقل إليه إنما هو في زمان التكليف وداره، فإذا انتقل إلى الدار الآخرة انتفت عنه هذه الصفة، وانتفى عنه كون الأمر الذي يفعله لعين وجوده، وما يبقى معه في الآخرة إلا الالتذاذ الخاص بكل شيء، فهو عين اللذة، وهو عين المتلذذ فيكون لذة كله، فلا يكون عنه إلا محبوب جملة واحدة، اقتضى له ذلك الموطن [الأخروي] (٢)، كما اقتضى موطن التكليف ما قررناه، فإن المواطن حاكمة قديمًا وحديثًا.

(١) زيادة في (ب).

(٢) في (ب): الآخرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ألا ترى موطن الدعاء من العبد، كيف أعطى الإجابة من الحق ولابد، فما من أحد يقول: يا الله؛ إلا والحق يقول له: لبيك، فيجيب ولابد. فإنه صادق الوعد والقول وقد قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فلا تقع الإجابة إلا بعد الدعاء، هذا من حكم الموطن، ألا ترى أن العبد يُغضب الله ويُرضيه، كما ورد في الشريعة، فهذا من حكم الموطن، أن جعل الحق نفسه على تصريف العبد بالرضا والغضب، ثم نبهه في الجزء الآخر أنه تعالى المصرف فما رضي إلا بنفسه، ولا غضب إلا بنفسه، فالتصريف له لا للعبد، ومن هنا يرتقي إلى ما كان عليه أولاً من تصريف العبد الحق فيما هو عليه، ولكن بذوق آخر عظيم يُسمى سر القدر، وهو كون العلم تابع للمعلوم، والعالم بحكم المعلوم ما هو المعلوم بحكم العالم، وهذا هو العلم الذي يقر به كل عاقل ويجهله، ولا يدري المحجوب ما سبب ذلك، فهو عالم بما هو به جاهل، فإذا انتقل العبد إلى هذا المقام لم يتقيد إلا بما قيده به معلومه، فيكون عند ذلك حقًا كله، فلا يريد من نفسه إلا ما تريده منه نفسه، وغلب الحق عند ذلك الذي كنا نثبت له الأمر والخلق، فشهد الأمر مشاهدة الحق إياه، فما تصرف فينا غيرنا، ولا تصرف الحق فينا إلا بنا، وهذا المشهد أتم من المشهد الذي يُعطي قسمة من الفيض والقبول.

فإن أمر التكوين بيننا وبين الحق في مشهد من المشاهد، فلا يقع التكوين بيننا وبين الحق إلا بأمره تعالى في قوله: ﴿كُن﴾ [آل عمران: ٤٧]، وبقبولنا، فما ظهرت النتيجة إلا عن أمرين وهما المقدمتان، وبعد هذا المقام نرتقي إلى ما ذكرناه، من أن التصريف فينا بالتكوين، إنما كان بنا فينا، قال الحق لنا: ﴿كُن﴾ وبنا كنا، فتبين لك أن سلب الاختيار إنما يقتضيه التكون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما الحقيقة فثابتة للعبد لا لغيره، فما أرادنا الحق إلا بنا، فنحن بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع به، وإرادته التي يريد بها، فانعكس الأمر إن فهمت، وهذا هو سر القدر الذي طُوي عن الخلائق علمه، لا مَن كشف الله عن بصيرته، فأراه الحق حقًا ورزقه إتباعه، وأراه الباطل باطلاً وأعانه على اجتنابه، وهنا تُرفع الحيرة عن العبد، ويستقر الأمر على ما هو عليه في نفسه، وهذا موضع قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ولو لم يكن الأمر هكذا ما ثبت قط قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فأدخل (لو) وهي أداة تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره، فما امتنع الشيء إلا لامتناع غيره، وهذا عين ما قلنا، وهو لا يشاء إلا ما علم، وما علم إلا ما هو المعلوم عليه في نفسه، فالحكم للمعلوم لا للعلم، وإنما أعطي عين الفهم.

وأما قوله t : (ويكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي [المغسل][(١)])، فإنه يريد أن يتصرف فيه بحكم ما أعطاه حال الميت، فالميت على الحقيقة هو الذي أعطى [للمغسل] [(٢)] هذا التصريف فيه بحاله، لأن الحاكم بحكم حال الخصوم، فما حكم عليهم سواهم، والحاكم الظاهر آلة لهم، وهذا عين ما قلناه، وهذه المرتبة مرتبة واحدة من الخمسة، التي يقتضي الطريق أن يكون العبد فيها مع الحق في التصرف، وكذلك المريد مع الشيخ.

المرتبة الأولى: أن يكون العبد مع الله، والمريد مع الشيخ، كالعبد مع سيده، والمنزلة المعروفة، والتصريف في ذلك معروف؛ لأن العبد عين قيمته فما يتصور من ثمنه، في حق المالك، ينبغي أن يكون ذلك حال العبد، فمراقبته أبدًا إلى ثمنه في تصرف السيد فيه.

(١) في (ب): الغاسل.
(٢) في (ب): للغاسل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المرتبة الثانية: أن يكون معه كالطفل مع الوالدين، فإنه يربيه، ولقد سألني بعض العارفين في المريد يأخذه الحال فيُمني؟ فقلنا له: لا ننكر على الرضيع أن يبول في ثيابه، وهذا مريد في حال التربية، فسُر بذلك، فإنه ذكر لي ذلك في حال الانتقاد على ذلك المريد، وينبغي للعالم بالله ألا ينتقد على أحد ما يرى [منه مما تقتضيه حاله ورتبته] (١)، وإنما الانتقاد فيمن يظهر عليه ما لا يقتضيه مقامه، إما بنزول عنه، وإما بصعود لمجرد دعوى، وهذه حالة المُستَدرَج.

والعارف لا يزال ميزان حاله مع وارداته في يده، يزن به ما هو عليه من الحال، وما ورد عليه من الحق، فإن وازنه حاله فليشكر الله U، وليسأله ألا يجعل ذلك حظ حاله هنا، وإن لم يوازنه فليحذر مكر الله في ذلك، ولا يأمن مكر الله، فإنه لا يأمن مكر الله إلا جاهل غبي، وما اتخذ الله وليًا جاهلاً.

المرتبة الثالثة: أن يكون معه كالوكيل مع موكله المستأجر، فينصح في عمله وتصرفه، ويقوم في ذلك مقام موكله، حتى يكون كأنه هو، فيحتاج إلى علم كبير، وعقل سليم.

المرتبة الرابعة: أن يكون معه كالميت بين يدي [المغسل] (٢) يقلبه كيف يشاء، وبعضهم يقول في هذا المقام: أن يكون معه كالظل مع الشخص، وهو مذهب شيخنا أبي العباس العريني(٣) - رحمه الله - سمعت ذلك منه، وبين المثالين فرق كثير، قد ذكرناه في تصانيفنا، وهي فرقان لا يخفى على أحد، وآيته ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، وإلى المرتبة الرابعة انتهى ذوق أهل الله لغفلتهم، وزاد

---

(١) في (أ): من حاله مما يقتضيه ورتبته.

(٢) في (ب): الغاسل.

(٣) أحد أكابر شيوخ الشيخ الأكبر قدس سره، وقد ذكره الشيخ قدس سره في رسالة روح القدس، وذكر جمل كبيره من أحواله وما جرى بينهما أثناء التربية والسلوك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهل الله أصحاب العلم الحضور معه، العلماء به الراسخون في علمهم، ما ذهبنا إليه، وهو أن يكون كالموكل مع وكيله عن أمر الله تعالى، فيوكل ربه في كل ما تحتاج إليه نشأته الطبيعية والروحية، وهو قوله تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩]، فقد أمرنا أن نتخذه وكيلاً، لعلمنا بعلمه بالمصالح، وجهلنا بها، فعين لنا الوكيل ما ينبغي أن نتصرف فيه، وحَدَّهُ لنا حتى عرفناه، وأقامنا فيه مقامه، فنحن وكلاء الوكيل، وهو قوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، بما وكلتموني فيه، فوكلناه نحن من قوله: ﴿لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ [المنافقون: ٩]، و ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فأضاف الأموال إلينا، وجعلها ملكًا لنا، فوكلناه بها عن أمره في التصرف فيها، واتخذناه وكيلاً عن أمره.

وهذا الأصل باق لا يزول، فإنه يقول لموسى u : خلقت الأشياء من أجلك. فثبت أن الأموال لنا ننتفع بها لا هو، والذي يعطيه الكشف الحقيقي، أنه خلق الأشياء لتسبح بحمده، وننتفع نحن بحكم التبعية لا بالقصد الأول، هذا هو الصحيح المرجوع إليه، فلما تقرر أنه خلق الأشياء لنا واتخذناه وكيلاً في التصرف فيها، فكان من علمه بالمصالح أن عين لنا ما نتصرف فيه من ذلك، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد: ٧]، فعلى ما ذهبنا إليه نحن مستخلفون فيما في أيدينا، مما كنا نتخيله بالإضافة إلينا أنه ملك لنا، وأبان أن ذلك له لا لنا، فتحققنا أنه ما خلق الأشياء إلا لتسبح بحمده لا لنا، فأوجدها لأعيانها، ولكن جعل الاستخلاف في التصريف فيما يملكه، جعلنا وكلاء لمن وكلناه لعلمه بالمصالح دوننا، فرأى من المصلحة أن نتصرف فيما عين لنا التصرف فيه، وتصرف هو فيما يرى المصلحة في حقنا أن يكون هو المتصرف فيه، وهذه المرتبة الخامسة في هذا الباب، أعظم المراتب في التفويض والتسليم، والتوكل والانقياد، وهو قوله ﴿أَلاَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٢]، فنهى عن ذلك وقال: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾، فأمر وهذا غاية التأكيد، وليس وراء هذه المرتبة مرتبة تعقل في طريق الله، ولكن فيها تفصيل وغموض وتداخل، فإن أغصان شجرة هذه المرتبة يدخل بعضها على بعض، وهي سريعة التقلب من الخاطر، فتحتاج إلى حضور عظيم ومراقبة دائمة، فإنه تعالى رقيب على كل شيء.

فينبغي للعبد أن يكون رقيبًا على ربه في تصرفه فيه، وليس يطيق ذلك إلا بإذن الله تعالى، لعلمه بميزان ما شُرع له، فإنه وضع الميزان في الأرض وهو ما شرع لا غير، فلا بخس ولا تطفيف، فهذا الرجل ما أعطاه حاله إلا أن يقول: (وليكن بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل) وإليه انتهى أكثر أهل الله، ولا ذوق لهم في هذه المرتبة الخامسة في هذا الباب، إلا القليل من أهل الله.

ومن أعجب الأشياء، أن الخلق كلهم في هذه المرتبة الخامسة، عامهم وخاصهم ولا يشعرون بذلك، فما فاز أهل الله الراسخون في الأهلية الخاصة؛ إلا بالإطلاع على ذلك، فإذا كان المريد كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه في حال غسله كما شرع له غسله، فهذه الوصية جُلها للغاسل لا للميت، فإن الغاسل هو الذي يتصرف، فكأنه يقول: بسكون المريد تحت مجاري تصريف الشيخ فيه، فيتعلم من ذلك السكون تحت مجاري الأقدار الإلهية، غير أن في هذه المسألة أمرًا خطرًا، وهو علم المريد بأن هذا الشيخ في رتبة الشيخوخة، التي عينها الله في خلقه لا يكون متشيخًا، فإن المتشيخ يظهر بصورة من غير علم ولا تحقيق، وهذا في هذا الزمان كثير، فقل أن ترى شيخًا في هذا الزمان عالم بالشريعة وأسرارها.

فهم من الشيخ كالمتبني من النبي، وكالمتطبب من الطبيب، فيكون الهلاك للاتباع أسرع شيء، وما عند المريد علم بذلك، فكيف التخلص

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من ذلك؟ فهذا المريد إذا نظر فيما قلناه، وقع في حيرة عظيمة لجهله بالعلم الموصل إلى الله تعالى، وليس إلا الشرع المنزل، ولكن نرجو إن شاء الله بل أقطع، إذا صدق المريد في طلبه ربه، أن الله U يوقعه على شيخ، هو شيخ حقيقة على بصيرة من الله، وإن لم يكن يوجد في الموضع الذي يكون فيه هذا المريد، ويقع على متشيخ، فإن الله تعالى بصدق المريد؛ يفتح على هذا المتشيخ بالفتح المطلوب، في حق هذا المريد وتخليصه، فيكون الشيخ مجبورًا على الحق، ويستفيد بسبب هذا المريد علومًا لم يكن يعرفها، وربما يكون له فيها المهداه فينتفع الشيخ، وهذا مما أجمع عليه أهل الله سبحانه.

واعلم أن شرحنا لكلام هذا الشخص وغيره من أهل الطريق، ما هو على ما هو الأمر عليه في نفسه، وإنما هو على حسب ما بلغه كشفهم وكشف أمثالهم، فذلك مبلغهم من العلم، ولو تكلمنا على ما هو الأمر عليه في نفسه وعينه، ما بلغ أفهام أهل الطريق إليه، فأحرى مَن دونهم، فلله ألسنة في عباده ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، فلا [يخرج] (١) الرسول في خطابه، عما تواطأ عليه أهل هذا الطريق.

وأما خواصهم فلهم لسان يخصهم لا يفهمه غيرهم، فمن وقف على كلامنا هذا، عَلِم أنه ما شرحنا هذا الكلام وغيره؛ إلا بما تواطأ عليه، فيعذرني ولا يعترض عليّ، وقد تكلمنا بلسان الأمر على ما هو عليه في نفسه، في كتاب "الفتوحات المكية"(٢) في أبواب مختلفة، هذا

---

(١) في (أ): يجري.

(٢) من أكبر مصنفات الشيخ t، طبع أكثر من طبعة، وهو موسوعة وبحر طام في كل المعارف الإسلامية يقول عنه الشيخ الشعراني t في مقدمة كتابه «**الكبريت الأحمر**»: واعلم يا أخي أنني قد طالعت من كتب القوم ما لا أحصيه، وما وجدت كتابًا أجمع لكلام أهل الطريق من الفتوحات المكية، لا سيما مع ما تكلم فيه من أسرار الشريعة، وبيان منازع المجتهدين، الذين استنبطوا منها أقوالهم، فإن نظر فيه مجتهد =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حتى لا يقع التصريح به، فيسرع إليه إنكار المنكرين الجهلاء، الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ومن الناس من ينكشف له الغطاء في الآخرة، فيفهم الأمر على ما هو عليه، ومن الناس من لا ينكشف له [الغطاء] (١) لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإن كانوا من السعداء.

وأما قوله: (وأن يتصدق في مشيه إلى الشيخ) فذلك ليؤدي واجبًا تعين عليه لأن الوارث للرسول عليه الصلاة والسلام يتنزل منزلة الرسول عليه الصلاة والسلام، لأن الوارث في حق هذا الشخص، هو الرسول إليه من [عند] (٢) الحق، فإنهم عن الحق يخبرون، كما قال أبو يزيد: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

وإن كنا نعلم أن رسول الله ﷺ أخذ عن جبريل u ولكن لا نقول فيه: أنه رسول جبريل u ، ولكن نقول فيه كما قال الله تعالى: أنه رسول الله. كذلك أقول في المُبلِغ عن الحق، بأي ضرب كان من ضروب الوحي، أنه رسول الحق إلينا، والله U يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢]، فجاء

=

في الشريعة ازداد علمًا إلى علمه، واطلع على أسرار في وجوه الاستنباط وعلى تعليلات صحيحة لم تكن عنده، وإن نظر فيه مفسر للقرآن فكذلك، أو شارح للأحاديث النبوية فكذلك، أو متكلم فكذلك، أو محدث فكذلك، أو لغوي فكذلك، أو مقريء فكذلك، أو معبر للمنامات فكذلك، أو عالم بالطبيعة وصنعة الطب فكذلك، أو عالم بالهندسة فكذلك، أو نحوي فكذلك، أو منطقي فكذلك، أو صوفي فكذلك، أو عالمٌ بعلم حضرات الأسماء الإلهية فكذلك، أو عالم بعلم الحرف فكذلك.

فهو يفيد أصحاب هذة العلوم وغيرها عومًا لم تخطر لهم قط على بال، وقد أشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها في كتابنا المسى بـــ«تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء»؛ فإن علوم الشيخ كلها مبنية على الكشف والتعريف، ومطهرة من الشك والتحريف. اهـــ [ص٧ ط. العلمية]

(١) في (ب): ذلك.

(٢) زيادة في (ب).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بلفظة الرسول، ولم يقل: رسول الله، فإنه قد يكون في وقت يخبر عن الله، بما أوحى إليه في باطنه من غير واسطة، وقد يخبر في وقت بما ينزل به الروح الأمين على قلبه، فيخبر عن الترجمان، ويأمره بالتبليغ عن الله، ولهذا جاء بلفظة الرسول بالألف واللام من غير إضافة إلى عين، وهو في الحالتين رسول الله إلينا بلا شك.

والشيخ رسول الحق إلينا، فإنه المرشد والمبلغ إلينا، ويحرم الاعتراض عليه، كما لا ينبغي لنا أن نزن على [رسول الله] (١) ما يأتي به إلينا، في حق الله تعالى من الاطلاق عليه ما ترده أدلة العقول، من صفات المحدثات بميزان العقول، كذلك لا ينبغي لنا أن نزن على الشيخ المحقق، المبلغ عن الحق، ما يأتي به إلينا، فإنه من تلك الخزانة ينفق، وبتلك البضاعة وصل، وهي نفحات ربنا أدركها.

ولقد رأيت في الواقعة شخصًا دخل عليّ وأنا في جماعة، فقال لي: أنا رسول الحق إليكم، ثم قص ما جاء به إلينا فقال: اعلموا أن الخير في الوجود، والشر في العدم، أوجد الإنسان بوجوده، وجعل وجدانه في وجوده، تخلق بأسمائه وصفاته، وفني عنها بمشاهدة ذاته، فرأى نفسه بنفسه، وعاد العود إلى الله تعالى، فكان هو ولا أنت.

قال رُويم (٢): من قعد مع هذه الطائفة، وخالفهم في شيء مما يتحققون به، نزع الله نور الإيمان من قلبه.

---

(١) في (ب): الرسول.

(٢) الشيخ العارف أبو محمد رويم بن أحمد بغداديُّ، مات: سنة ثلاثة وثمانمائة.وكان مُقرئًا، وفقيهًا على مذهب داود. قال رويم: من حِكم الحكيم، أن يوسِّع على إخوانه في الأحكام، ويضيِّق على نفسه فيها، فإن للتوسعة عليهم اتباع العلم، والتضييق على نفسه من حكم الورع. وقال رويم: احتزت ببغداد وقت الهاجرة ببعض السكك، وأنا عطشان، فاستقيت من دار، ففتحت صبيَّة بابها، ومعها كوز، فلما رأتني قالت: صوفيٌّ يشرب بالنهار!! فما أفطرتُ بعد ذلك اليوم قط. وقال أيضًا: إن الله تعالى غيب أشياء في أشياء: غيب مكره في حلمه، وغيب خداعه في لطفه، وغيب عقابه في كرامته، وقال: التوكل إسقاط رؤية الوسائط والعلق بأعلى العلائق، وقال: التصوف مبني على ثلاثة خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالذل والإيثار، وترك التعرُّضِ والاختيار.

=

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال أبو يزيد: إذا رأيت من يُؤمن بكلام أهل هذه الطريقة، فقل له: يدعو لك، فإنه مجاب الدعوة.

وبالضرورة يعلم أن التلميذ ما يأتي إلى الشيخ؛ إلا ليناجيه بأي لسان كان، وإنما قلنا بأي لسان كان، فإني ناجيت رسول الله في واقعة بمجرد النظر، وفهمت عنه جميع ما أراد، وفهم عني جميع ما أردت، وما تحرك بيننا عضو لسان، لا منه ولا مني، وقد بينا ما قال لي في مثل هذه النجوى في المبشرات قال الشاعر:

تَكلّمَ منّا في الوُجوهِ عُيونُنا فنَحنُ سُكوتٌ وَالهَوى يَتَكَلَّمُ[١]

وقلت في ذلك:

وَالهَوى بَينَنا يَسوقُ حَديثًا طيِّبًا مُطربًا بغَير لِسان[٢]

وقال عن ربه U: «أنه ضرب بيده بين كتفيه، فوجد من برد أنامله في صدره، فعلم علم الأولين والآخرين»[٣] فهذه مناجاة من غير

=

وقال رويم: إذا رزقك الله المقال، والفعال، فأخذ منك المقال وأبقى عليك الفعال فإنما نعمة، وإذا أخذ منك الفعال، وأبقى عليك المقال، فإنما مصيبة، وإذا أخذ منك كليهما فهي نقمة وعقوبة. وسئل عن وجد الصوفية عند السماع فقال: يشهدون المعاني التي تعزب عند غيرهم، فتشير إليهم فيتمتعون بذلك من الفرح، ثم يقع الحجاب فيعود ذلك بكاء، فمنهم من يخرِّق ثيابه، ومنهم من يصيح، ومنهم من يبكي، كل إنسان على قدره t . انظر ترجمته [الكواكب الدرية رقم (٣٣٧)، الرسالة القشيرية (٨٥/١)، حلية الأولياء (٢٩٦/١٠)، وتاريخ بغداد (٤٣٠/٨)، وصفوة الصفوة (٢٤٩/٢)، والبداية والنهاية (١٢٥/١١)، والطبقات للشعراني (١٠٣/١)].

(١) من بحر الطويل من شعر العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي، أصله من عرب خراسان ومنشأه بغداد.

(٢) من بحر الخفيف.

(٣) رواه الترمذي في سننه رقم (٣٢٣٣) ورقم (٣٢٣٤) ورقم (٣٢٣٥) كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله باب: ومن سورة ص، نحوه بلفظ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: احْتُبِسَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ، حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى عَيْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ سَرِيعًا فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حرف مسموع، لا بأذن ولا صوت، فالمناجاة لها ألسنة كثيرة، فإياك أن تنتظر من الشيخ مناجاة القول بعضو اللسان ولابد، فالنجوى لابد منها بين يدي الشيخ والتلميذ، فلابد من الصدقة أن يقدمها التلميذ بين يديه، ومتى ما قال للشيخ: لِمَ فإنه لا يفلح، ولا يجيء منه شيء أبدًا، هذا أجمع عليه [المشايخ من][1] أهل الله تعالى، فلا تعلل على الشيخ ما يقول، ولا تسأل عن علة ما أمر به، وكذلك الرسول لا يعلل عليه ما أمر به ولا يسأل عن العلة، وكذلك مناجاة الحق لا يعلل عليه أمره ولا يسأل عن العلة، بل يمتثل السامع الأمر من غير تردد، فإن علل الحق أو مَن ذكرنا أمره وكلامه، فذلك الله، وتحصل الفائدة لنا، كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وإنما أمرنا بالصدقة، لأن الأمر يشق على النفس.

وأفضل الصدقات ما تصدق به المتصدق على نفسه، والصدقات متنوعة، منها الصدقة المعلومة في العُرف، ومنها المعلومة بالشرع، فإنه عم الصدقة العرفية وغير العرفية، فقال u : «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ

= عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِه، فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِه فَقَالَ لَنَا: «عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ، ثُمَّ انْفَتَلَ إِلَيْنَا، ثُمَّ قَالَ: أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمْ الْغَدَاةَ، أَنِّي قُمْتُ مِنْ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي، فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي فَاسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ، قَالَهَا ثَلَاثًا قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِله بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ، قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ، قَالَ: ثُمَّ فِيمَ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» وقال: حديث حسن صحيح، والطبراني في معجمه الكبير رقم (٢١٦) (٢٠/١٠٩)، والإمام أحمد في مسنده من طريق سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما برقم (٣٤٨٤) (١/٣٦٨)، ورقم (٢٢١٦٢) (٥/٢٤٣)، والمنذري في الترغيب والترهيب رقم (٦٥٢) (١/١٧٤).

(١) في (ب): مشيخة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ»[١]، فجعل الذكر من صدقات الإنسان على نفسه، فإرشاد الضال صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وجميع أفعال البر كلها صدقة من العبد على نفسه أو غيره، ومن تصدق على غيره، فقد تصدق على نفسه، وما كل صدقة تكون على نفسه يلزم تعديها إلى غيره، فمنها ومنها فوسع الله في الصدقات بما أبان، وقال: ﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢]، ولم يعين صدقة من صدقة، ولما جمع وجب على السامع أن يتصدق بأقل الجمع، وهي ثلاث صدقات فصاعدًا، من أي نوع كان من الصدقات المشروعة، والله يجزي المتصدقين.

ولو كانت الصدقة هذه المعروفة في العُرف، لكان من لا يجدها لا يكون له قدم في هذا الشهود، فلما عم الشرع الصدقات بما بين، لم يبق مفلس ولا غير مفلس؛ إلا وهو قادر على صدقة، فعم الخير والحمد الله.

وهذا كله إذا كانت (الفاء) في مشيه على بابها، وإن كانت عوضًا من (الباء) فتكون صدقته على الشيخ، فعُظم بعظم المتصدق عليه، إما لعظم منزلته، وإما لعظم منزلة الحال، فمنزل الحال كمن يتصدق بشربة ماء على من لو لم يشربها لمات، فيكون في ذلك أحيا نفسًا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا، فهذا ما أعطاه الحال.

ومعلوم أن المريد إذا صدق في التوجه إلى الشيخ، فإن الشيخ يعطيه الله في قلبه ما يكون به ارتقاء ذلك المريد، وقد يكون الشيخ قبل ذلك لا علم له به، وإنما فُتح عليه بصدق هذا المريد القاصد، فيكون المريد قد تصدق في مشيه على الشيخ، من حيث لا يشعر ولا يقصد،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر t رقم (٧٢٠) كتاب: صلاة المسافرين وقصرها باب: استحباب ركعتي سنة الفجر، ورواه الإمام أحمد في مسنده رقم (٢١٥١٣) (١٦٧/٥)، والبيهقي في السنن الكبرى رقم (٤٦٧٧) (٤٧/٣) باب: ذكر من رواها ركعتين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلما أن تحصل للشيخ بقصد هذا المريد إليه، علم ما لم يكن عنده معلومًا قبل ذلك، وأما الحضور مع علم قد كان يعلمه قبل ذلك، ولكن لابد من زيادة، وهو أن الشيخ يعلم في الوقت ما لم يكن عنده به علم، وهو علمه بهذا المريد في هذا الوقت، ومناسبته للعلم الذي يفيده الشيخ هذا لابد منه، فلابد أن يكون مشي المريد للشيخ صدقة من المريد على الشيخ، من حيث لا يشعر المريد، وقد ذقنا هذا من نفوسنا، وسمعنا من مشايخنا ذلك فقالوا: قد يُفتح على الشيخ بعناية قصد المريد، وصدقه في الشيخ في علم يكون فوق مرتبة الشيخ بحال المريد، لا بحال الشيخ، فيستفيد الشيخ من ربه بقصد هذا المريد، ما لا يبلغه همة الشيخ ولا مقامه، ولا أعطاه، فقد رأينا من المريدين، من تكون له همة فوق ما تقتضيه مرتبة شيخ من الشيوخ، وقد جزم المريد على أنه لا يحصل له ذلك؛ إلا من هذا الشيخ، فيعطي الله تعالى هذا الشيخ من الاستعداد في الحال ما يصل به التجلي الإلهي المعطي هذه المسألة، التي تعلقت بها همة ذلك المريد لعلوه.

فإن الشيخوخة في هذا الطريق ما هي أرفع المقامات والأحوال، وإنما هي بمنزلة علم الطبيب من علم الطبيعة، وهي علم خاص يصلح بالتربية، لأنه كالطبيب للعليل، والداية للتربية لا غير ذلك، وقد يكون للشيخ مرتبة ما هي له بما هي شيخ مربٍ، وإنما هي بحسب ما تقتضيه عناية الله به، فمن عَلِم مرتبة الشيوخ أنزلهم منزلتهم، ولا يتعدى بهم ما لا تعطيه مرتبة الشيوخة، والشيخ في عموم أحواله مشغول بربه، ولا يحضر مع ما يصلح بالتلامذة؛ إلا في وقت حضورهم عنده، وتعلق هممهم به، أو في وقت استحضار الشيخ إياهم في باطنه لا غير، والشيخ أيضًا مثل المريد الطالب من الحق ما ليس عنده، كما أمر الله تعالى نبيه ﷺ فقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]، فإن الأمر لا يقف عند غاية، وليس وراء الله مرمى، فالسفر فيه بالهمم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعقول إلى غير نهاية، وهو أعلى السفر، وأما دونه فالسفر إليه، فاعلم ذلك.

وإن كان هذا الوجه يسوغ أعني: التصدق على الشيخ فهو تغطية للحال ينبغي ألا يكون مقصودًا للتلميذ، وإن كان مقصودًا للتلميذ، ويرى أنه يتصدق على الشيخ بمشيه، [فإنه لا يُفلح](١)، فإنه لم يقصد إلا فقيرًا، وينبغي ألا يقصد إلا غنيًا عنده ما يتصدق به عليه، ولا يبالي غلط في ذلك في حق هذا الشيخ أو لم يغلط، بل يوفي المقام حقه، ويعطي المرتبة حقها، فإنه على الحقيقة ما يقصد إلا الله، لكن تجلى له في صورة هذا المقصود، وكذلك قال الله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فهو تجلى في صورة الرسول، ومن يطع أولي الأمر منا، فقد أطاع الله؛ لأن الذي أمر بطاعة الله، هو الذي أمر بطاعة الرسول، وأولي الأمر، فعطف بالواو من غير أمر بالطاعة، لكون أولي الأمر من جنس الرسول، ولم يفعل ذلك في إطاعة الرسول، بل قرن مع الواو لفظة الطاعة، ليفرق بين من يقع معه المناسبة، وبين من لا تقع معه المناسبة، لأنه ليس كمثله شيء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، فاستأنف الطاعة، ثم قال: ﴿وَأُولِي الأَمْرِ﴾ [النساء: ٥٩]، فتعرف [المناسب] (٢) كما [تعرف] (٣) ما أبقى من المتناسب بالتجلي، في قوله ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال:١]، ولم يستأنف ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] بالوجهين من حيث أن الرسول مجلى الأمر، ومن حيث أن الله أمر بطاعة الرسول ، فمن أطاعه فقد أطاع الله، ومن تولى يقول: ومن لم يطع ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿إِنْ

(١) في (ب): فإن ذلك لا يفلح.
(٢) في (ب): ما بقي من المناسب.
(٣) في (ب): تعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، «وقد بلغت فخلي ما بيني وبين عبادي، أمضي فيهم مشيئتي»(١).

ثم قال: (ويمشي وعليه الذلة والمسكنة والانكسار) لأن رسول الله ﷺ أمرنا أن نأتي الجمعة بهذه الصفة، وهذا الإتيان إتيان من يطلب مناجاة ربه في مقام الجمع، أعني جمع الأسماء الإلهية، بإمام واحد في المقر، وهو ألا يشرك بالله بعبادة ربه أحدًا، وقد ورد «أن المصلي يناجي ربه»(٢)، فينبغي ألا يناجي غيره معه في صلاته.

كذلك من أتى إلى شيخه، فإنه نائب الله في حق هذا المريد، فلابد أن يكون على هذه الصفة في الإتيان إليه، ولا يناجي في سره غيره، وأن الله تعالى قسم الصلاة بينه وبين عبده، وما أدخل في هذه الحالة ثالثًا يوتر هذه الشفعية.

---

(١)

(٢) يشير إلى قوله ﷺ المروي عن أنس t أن النبي ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي الْقِبْلَةِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ فَقَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، أَوْ إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَلَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قِبَلَ قِبْلَتِهِ وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فِيهِ، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَقَالَ: أَوْ يَفْعَلُ هَكَذَا**» أخرجه الإمام البخاري في صحيحه رقم (٣٩٧) كتاب: الصلاة باب: حك البزاق باليد من المسجد، ومسلم في صحيحه بنحوه رقم (٥٥١) كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، والحاكم في المستدرك بنحوه عن أبي هريرة t رقم (٨٦١) وقال صحيح على شرط مسلم، والإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما رقم (٥٥١) كتاب: المساجد ومواضع الصلاة باب: النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، والإمام مالك في موطئه عن البياضي t رقم (١٧٧) كتاب: الصلاة، باب: العمل في القراءة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قيل لقضيب البان [١]: بالله صَلّ معنا، فقال: نعم، فمشى مع السائل لصلاة الجمعة، فلما أحرم الإمام، وأراد أن يركع في الركعة الأولى، ترك الصلاة قضيب البان وانصرف، فلما أكمل السائل صلاته مع الإمام، أدرك قضيب البان، فقال له: يا أخي أفرحتني اليوم بصلاتك معنا، ثم أحزنتني بتركك الصلاة وخروجك، قال: لم أر خلف من أصلي، فإن الإمام رأيته قد ترك الصلاة، وراح من محرابه إلى باب كنده يشتري بطيخًا، فلم أره في المحراب، فلم أجد خلف من أصلي فخرجت. فرجع السائل إلى الخطيب، فقال: ما خطر لك في الركعة الأولى من صلاة الجمعة، فقال الإمام: خطر لي أني أخرج إلى باب كنده أشتري بطيخًا، فما أردت بذلك؟ قال: قضيب البان أخبرني بذلك.

فأولياء الله مع ما يكشف لهم لأنهم جواسيس القلوب، فما فعل قضيب البان إلا عين الشرع، فإنه ما أشهده الحق إلا انصراف الإمام، وتركه الصلاة والمحراب، فما رأى في المحراب أحد يصلي خلفه، ومن كان في مناجاة ربه؛ فلا يناجيه إلا بذلة ومسكنة وانكسار، فإنه تعالى العزيز، فلا يدخل عليه ذو [عزة][٢] بعزته، بل بذلة، والشيخ نائب الحق في الحكم في التلميذ، فالتلميذ قاصد الدخول على الشيخ، فلابد أن

(١) هوالإمام حسن قضيب البان الموصلي، قال عنه الشيخ عبد القادر الكيلاني t : هــو ولي مقرب ذو حال مع الله تعالى، وقد صدق عنده، فقيل له: ما نراه يصلي فقال : إنه يصلي من حيث لا ترونه وأني أراه إذا صلى بالموصل أو بغيرها من آفاق الأرض؛ يسجد عند باب الكعبة. توفي في الموصل سنة ٥٧٠ هــ وقبره ظاهرًا يزار. ومن كلامه t : تصحيح البدايات هو اتِّقاء الرخص بمواظبة النفس على العزائم، وتحكم السنة بامتثال الأمر ومشاهدة الحكم. والحزم في السلوك: ترك الراحة، وامتثال أحكام المشايخ بعدم الاعتراض، واستحقاق العمل باستشعار الحال - أو قال: الأجل - والتمسك بعروة الإخلاص. واعلم أن التطلع لعالم النهايات لا يصح إلا بتحقيق البدايات.

وقد أفرد ترجمته في رسالة باسم" جوهرة البيان في مناقب الشيخ قضيب البان"،(مخ، معهد المخطوطات بالقــاهرة)، الكواكب الدرية رقم(٤٣٧).

(٢) في (ب) العزة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يصحب هذه الحالة؛ لأنه سائل فقير محتاج، والسائل ذليل، ولابد من كسر القلب لحاجته، يقول الله U: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»(١).

وما يأتي التلميذ الشيخ إلا من أجل الله، لا لعين الشيخ، فلذلك وصاه بهذه الصفة، فإنه إذا جاء المريد للشيخ محبة لله، خلع عليه بدل الذل خِلعة العزة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، لأنهم ما كُشف لهم عن لباس المؤمن ثوب العزة الإلهية، فيخرج من عند الشيخ بهذه الخلعة، ويخلع عليه عوض الانكسار خلعة الجبر بالإقبال عليه، ويخلع عليه بدل المسكنة خلعة التصرف في العالم، وعلى قدر ما يحضر به في [ملابسه](٢) **مما جاء به؛ يخلع عليه في مقابلة كل ثوب من ذلك ثوبًا ليقابله، فما ذكر الشيخ إلا ثلاثة أثواب، يدخل بها عليه فيخرج بثلاثة خلع: خلعة العزة، والجبر، والتصرف، فعلامة من جاء إلى الشيخ بهذه الأحوال، أن يكشف هذه الخلعة التي خلع الله عليه، على يدي الشيخ.**

ومتى لم يشعر المريد بما زاد في وصوله إلى الشيخ وحضوره عنده، فليس بصادق في الدنيا، ويتهم نفسه، ويتوب ويستغفر، ويعلم أنه ما أتى عليه إلا من نفسه، ولا يظلم ربك أحدًا، فإنه ما حكم عليك الحاكم؛ إلا بما أنت عليه في مسألتك، فإما لك وإما عليك، والحاكم بحكمك في كل حال، وبهذه المثابة هو الحق مع عباده، ولذلك كانت لله الحجة البالغة، والحكام نواب الحق، فلهم الحجة البالغة على المحكوم عليه، إذا حكم بالحق، [ومتى حاد](٣) **وقسط، فليس بنائب عن الله في**

---

(١) هو من الأخبار الإلهية وقد ذكره المناوي في فيض القدير (٥١٩/١)، (٦٩/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٤/٢)، (٣٢/٤)، (١٧٧/٦)، والعجلوني في كشف الخفا رقم (٦١٤) (٢٣٤/١).

(٢) في (ب) ملابسة.

(٣) في (ب) ومن جار.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحكامه، وإنما هو صاحب غرض، فيراقب المريد الصادق أحواله في حركاته مع شيخه، وليكن شاهده على صدق حاله ما تنتج حالته، فإن خرج بما به دخل، فقد خسر وقته، وما دخل ولا جاء فهو عابد هواه، ولذلك [قال][١] المشيخة فيمن يقصدها: إنما يخرج بما به جاء، فإن جاء بربه خرج به، وإن جاء بنفسه خرج بها، يقول: فإن كانت حالته تعطي أن [يقع][٢] عليه، خلع الحق عليه، وإن لم يعط ذلك دخل صاحب نفس، وخرج بمثل ذلك، وكل من دخل على الشيخ أو أتى إليه، ولا يجعل في نفسه أن ذلك الدخول على الله، وذلك الإتيان إلى الله، فما دخل ولا أتى.

كذلك الداخل على الملوك، ينبغي أن يدخل عليهم بحكم المرتبة، التي هم عليها، التي بها سموا ملوكًا، فيوفي حق الأدب في الدخول، فينتفع بالدخول عليهم، ومتى دخل عليهم بأنهم مثله في الإنسانية، ولا يشاهد الرُتبة من لم يحصل له من الرتبة عطاءً البتة، وأساء الأدب، وخرج طريدًا ظاهرًا إن أساء في الظاهر، وباطنًا إن أساء في الباطن، وذلك هو [الخسران][٣]، ولاشك أن هذا الشيخ قد دل في وصيته هذه، على أن يكون مشهود الإنسان عبوديته، لا غير ذلك، فإن فيها جماع الخير، وملاك الأمر، لأن العبد هو الدليل.

ثم قال: (وأن يكون مشيه في المتواطي من الطريق) هذا الشيخ يخاف على المريد من الغفلة فأراد بقصده المتواطي من الطريق ليسهل عليه الأمر لا لمشاهدة الطريق التي يسلك فيها بخلاف الوعر والحزن من الطريق، يشغله عن المقصود بما يحمله من المشقة، فإن الله تعالى ما جعل ذلولاً إلا الأرض، وهذا الاسم من راض يروض، أي: ذلل نفسه، ومعلوم قطعًا أن الشخص لا يذل نفسه؛ إلا في مقابلة عن عزة، وليس

(١) في (ب) قالت.
(٢) في (ب) يخلع.
(٣) في (ب) الخاسر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لهذا الشخص مقصد في الشيخ إلا الله العزيز، فلابد أن يذل نفسه لهذا الشهود، فكأنه أمره بمراقبة حاله في الإتيان إلى الشيخ، ويكون المتواطي من الطريق، إذا كان مقصود المريد يحفظ عليه الذلة التي أتى بها، ويسهل عليه مطلوبه، ولقد كنت بمكة عشية يوم، مع موسى بن محمد القباب [١]، وكان صاحب حضور، ونحن بمسجد أبي بكر منها، وكان في أرض متواطية، وإلى جنبها سد جبل، حزن وعر، فيه [صخرة][٢] محددة، وكان بذلك الموضع الوعر، دار عمر بن الخطاب، فقال لي موسى بن محمد: يا سيدنا انظر إلى هذا الأمر ما أعجبه، فقلت: ما هو؟ فقال: مسجد كل واحد من هذين الشخصين في موضع مناسب لخلقه [هذا دار أبي بكر في موضع سهل متواطي وكذا كان خلقه في موضع مناسب لخلقه] [٣]، وكان في خلق عمر حزونة، فاتخذ داره في موضع وعر حزن، [فتعجبت] [٤] من [تنبهه] [٥]، وحسن مراقبته.

فلهذا أمر الشيخ أن يمشي في المتواطي من الطريق، لأجل أنه منبه للمراقب أحواله، وهو أسرع وأسهل لقضاء الحاجة، ألا ترى مشي رسول الله ﷺ كأنه ينحط من صبب، سريع الخُطى، وقال في ذلك: أن تلك الحالة في المشي أنفى للكِبر، وأسرع لقضاء الحاجة، فإن الشخص ما يمشي إلا في حاجته ولابد.

ثم قال: (وأن يكون في نفسه أنه دون من يلتقيه في طريقه إلى الشيخ كذلك في كل أحواله) إنما دله الشيخ في وصيته على هذه

---

(١)

(٢) في (ب) صخور.

(٣) زيادة في (ب).

(٤) في (أ).

(٥) في (أ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصفة، لأنه طالب حكمة، فحيث ما وجدها نطق بها مَن نطق، فينظرها هذا المريد من حيث أن الله تعالى أنطق هذا الشخص بما له فيه عناية، بلا شك ما أنطقه به، والسامع لا يرى إلا المُنطِق، ولاشك أنه دون المنطق، فهو دون كل مَن ظهرت منه تلك الحكمة عند نطقه بها، فإنه مجلى إلهي من حيث لا يشعر، فإن جانب الطور الأيمن لم يكن عنده خبر، بأن الله تعالى يكلم عبده موسى منه.

فدله هذا الشيخ في وصيته إياه بهذا على مقام جليل، ومنزلة رفيعة، وإن كان فيها شهود الغير، لأنه لابد أن يشهد الغير، ولو لم يكن إلا بقصده الطريق، الذي يرد به السلوك عليه إلى دار الشيخ، فإذ ولابد من شهود الأغيار، فليجعل في نفسه أنها أوعية ما يلقي الحق فيها، فيستفيد في طريقه، إذا كان بهذه المثابة علومًا كثيرة، قبل وصوله إلى الشيخ، فإن المريد ما يقصد الشيخ إلا ليستفيد منه، ويعلم أنه دون الشيخ، وكذلك يقصده، فإذا صحبته هذه الصفة في طريقه، وفي أحواله مع كل من يلقاه في حقه شيخًا، ألا ترى أبا يوسف الهمداني [1] كيف قال لذلك المريد الذي طالبه بخاطره ليشرح له واقعته، فقال له: يا ولدي إذا خطر لك ما يشكل عليك فلا تتعبني، واسأل عن بيتي حتى أشرح لك واقعتك، فقال له المريد: يا أبا يوسف إذا وقعت لي واقعة رفعت كل حجر، فوجدت عنده أبا يوسف – مثلك يشير إلى ما قاله هذا الشيخ في وصيته – قال أبو يوسف: فعلمت أن المريد الصادق يحرك الشيخ بهمته، فتبت إلى الله، وانصرفت.

---

(١) الشيخ الصالح، صاحب الأحوال والكرامات: يوسف بن أيوب ابن يوسف بن الحسين الهمداني أبو يعقوب t ، نـــزيل مرو، أحد الأولياء الأكابر، تفقه في مذهب الإمام الشافعي t على صاحب التنبيه وقدمه على صغر سنه، وسمع الخطيب وغيره، ثم انقطع وتزهد وتعبد، واجتمع في رباطه بمرو خلق كثير، وعقد له مجلس الوعظ والتذكير ببغداد. مات t سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. [انظر ترجمته الكواكب الدرية رقم (٤٥٣)، طبقات الشعراني (١/١٣٥)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل مستفيد وطالب فائدة، فإنه بالضرورة في نفسه دون من يرجو حصول تلك الفائدة، والمريد طالب حكمة أبدًا من كل شيء، وفي كل شيء، فلابد أن يكون في نفسه بهذه المثابة، حتى أنه يكون مع نفسه بهذه الصورة، فيستفيد من نفسه لمراقبته ما يُجري الله عليه في حركاته، وسكناته، وأعضائه من الحكم، فيفيد بعضه بعضه، [كما قال بن زهير في نظمه

وبكى بعضي وعلى بعضي معي فجعل بعضه يساعد بعضه] (١)

تنبيه

على ما أشرنا إليه من أن الإنسان يفيد نفسه إذا كان طالب حكمة، فهو في جميع أحواله لا يبرح يستفيد، فإنه لا يبرح في مراقبته، وهذه حالة السماع من الله [U في كل شيء ومن كل شيء إلا إن هذا المريد يزيد على صاحب السماع من الله تعالى] (٢) أنه سمع من نفسه ما يفيده، من حيث أنه مجلى إلهي، مُنطق أو مُحَرك من الله، فهو أتم بهذه الحالة من السامع من الله U.

ثم قال: (فإذا قرب من منزل شيخه، فإن كان هناك مسجد دخل فيه، وصلى، وسأل الله تعالى أن يُعطف [قلب شيخه عليه] (٣) أما إن كان قصده ومشيه إلى بيت الشيخ، عن توجيه الشيخ إليه بالمجيء، فلا خلاف بين القوم أنه لا يصلي، ولا يفعل شيء سوى المجيء إلى الشيخ، وأصلهم في ذلك القصة التي نزلت فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ومعلوم عندنا أن الشيخ لا يطلب المريد بالوصول إليه لنفسه، بل لمنفعة المريد،

(١) سقط في (أ).
(٢) سقط في (أ).
(٣) في (ب): عليه قلب شيخه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولو كانت الحاجة للشيخ، فإنه ما اختص هذا المريد بالمشي فيها، وقضائها على يديه، إلا لمنفعة إلهية تعود عليه في ذلك يُحيا بها قلبه، ويكون فيها قربه إلى الله تعالى، فإن الرجل الذي نزلت فيه هذه الآية، كان يصلي، فدعاه رسول الله ﷺ فمنعته صلاته من إجابته، فنزلت هذه الآية.

ومن هذا الباب مسألة العابد الذي دعته أمه وهو في صلاته، فقال: اللهم أمي وصلاتي، ثم أقبل على صلاته، وترك إجابة أمه، فدعته مرة ثانية، فقال: اللهم أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، وترك إجابة أمه، فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات - يعني الزواني - وابتلاه الله بإمرأة بغيّ، ادعت عليه أنها حاملة منه، فهدم الناس صومعته وضربوه، فقال: لا تفعلوا، هاتوا المرأة والصبي الذي ولدته، فجاءوا بالطفل وأمه المومسة، فقالت أمام الملك: هذا الولد من هذا العابد، فقال العابد للطفل: من أبوك؟ فقال: الراعي، فاعتذر الناس إليه، وبنوا صومعته كما كانت، فنفذت فيه دعوة أمه [(١)].

ولاشك أن الشيخ أعظم حرمة من والدته، فإنه لدينه ووارث سيدنا محمد ﷺ في إرشاده، ورسول الله ﷺ يقول: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[(٢)]، وأما إن كان إتيانه إلى الشيخ من نفسه من غير استدعاء، فحينئذ يفعل هذا الذي ذكره الشيخ، من دخول المسجد والصلاة، فإن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر بدأ

---

(١) رواه البخاري في باب: قول الله ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ رقم (٣٢٥٣) (١٢٦٨/٣)، ومسلم في باب: تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة رقم (٢٥٥٠) (١٩٧٦/٤)، وفي مسند الإمام أحمد باب: مسند سيدنا أبي هريرة t رقم (٨٩٨٢) (٣٨٥/٢).

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أنس t رقم (١٤) ورقم (١٥) كتاب: الإيمان باب: حب النبي ﷺ من الإيمان، رواه الإمام مسلم واللفظ له عن أنس برقم (٤٤) كتاب: الإيمان باب: وجوب محبة النبي ﷺ، وأبو يعلى في مسنده رقم (٣٨٩٥) (٨/٧)،والإمام أحمد في مسنده رقم (١٢٨٣٧) (١٧٧/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (١٣٧٥) (١٢٩/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالمسجد فصلى فيه ركعتين، واعتبر هذا القدر هذا الشيخ في وصيته بالصلاة، إن كان في طريق المريد مسجد.

وأما وصيته بأن يسأل الله أن يعطف عليه قلب شيخه ، فإن أكثر أوقات الشيخ شغله بربه، يجده في شغل عنه، فإذا جاء إليه المريد، وقد سأل الله تعالى مثل هذا السؤال، ووجد الشيخ في شغل مع ربه في خلوته، ما يبعد أن يجيب الله دعاءه، فيقول الحق للشيخ في سره: هذا فلان قد وصل، فاقض مطلوبه فيما جاء فيه إليك، ولقد دخلت على أعظم شيخ لقيته، يقال له: صالح العدوي [1]، فسلمت عليه وهو في مرضه، فرد السلام بين شفتيه، حتى قلت: أنه ربما رد السلام أو لم يرد السلام، وشككت فيه، كما كان يشك أحد الثلاثة الذين ذكرهم الله في القرآن، لما أعرض عنه رسول الله □، فكان إذا دخل المسجد، وسلم على رسول الله □ شك هذا الصاحب في رد رسول الله □ لخفائه، فكدت أذوب في موضعي، خوفًا من مقت الله U، وبقيت أرعد، والشيخ مُقطب الوجه غير ناظر إليّ، ضارب ببصره إلى الأرض، فأعدت عليه السلام عالي الصوت، فرفع بصره إليّ وتبسم في وجهي، ورد عليّ السلام، ورحب وانبسط، فقلت: يا سيدي قتلتني والله بإعراضك عني، فقال: كان عندي فلان قبل دخولك وهو ممقوت، فمنه كنت معرضًا، وقام وانصرف وما عندي خبر بإنصرافه، لشدة إعراضي عنه، وجئت أنت وما علمتُ بمجيئك، وتخيلت في سلامك الأول، أنك ذلك الشخص، وأما أنا يا ولدي فوالله إني لأحبك الحب الشديد، وفي تلك الليلة مات الشيخ، فنظرت في حال ذلك المريد، فلم يزل في إدبار في دينه، إلى أن خرج عن دينه بالكلية، وأباح المحرمات عقدًا.

---

(١)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلهذا كان سؤال هذا المريد أن يعطف [الله][(١)] عليه قلب هذا الشيخ، ولم يقل بوجهه، فإن النبي ﷺ أقبل بوجهه، وبش في وجه مَن قال فيه حين رآه قبل وصوله إليه:«بِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ»[(٢)]، فما بش في وجهه إلا اتقاء شره، كذا ذكر رسول الله ﷺ، فلهذا قيد هذا الشيخ سؤال هذا المريد، تعطف قلب الشيخ عليه، فإن القلب بيت الحق الذي وسعه، فإذا انعطف عليه قلب الشيخ، عطف عليه الحق بما هو معروف لذلك الشيخ، فإن قدر الحق في كل قلب، على قدر المعرفة به.

وقد علمتم حكاية أبي يزيد في ذلك في حق المريد، قال له بعض أصحابه: لما لا تمشي إلى بيت أبي يزيد فتراه؟ فقال المريد: رأيت الله وأغناني عن أبي يزيد، فقال له الرجل: لأن ترى أبا يزيد مرة خيرًا لك من أن ترى الله ألف مرة، يشير إلى ما ذكرناه من أن الحق في معرفة أبي يزيد، أتم [من][(٣)] معرفة هذا المريد به، فأراد المريد وكان صادقا أن يرى صدق هذا القائل.

واتُفق أن أبا يزيد مر فقال له الرجل: هذا أبو يزيد، فنظر إليه ذلك المريد، فمات من ساعته، فقيل لأبي يزيد عنه، فقال ما قلناه، كان الحق عنده على قدره، وقدرنا أعظم من قدره، فمعرفتنا بالله أعظم من معرفته به، فلما رآني كشف الله عن بصيرته، فرأى الحق على قدرنا لا

(١) زيادة في (ب).

(٢) طرف من الحديث المروي عن عروة عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: «**بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ**» فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**» رواه الإمام البخاري في صحيحه رقم (٥٦٨٥) كتاب: الأدب باب: باب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن رقم (٢٥٩١) كتاب: البر والصلة والآداب باب: مداراة من يُتقى فحشه.

(٣) في (ب): منه في.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على قدره، فلم يطق فمات، وكذلك جرى لموسى u لما صُعِق حين تدكدك الجبل من عظمة التجلي، وكان اندكاكه عن الله، فإن الله ما تجلى للجبل إلا على قدر علم الجبل به، فكان يثبت، فلذلك قال ﴿جَعَلَهُ دَكاً﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولم يقل: فلما تجلى ربه للجبل اندك الجبل من نفسه، وإنما كان اندكاكه بالجعل، وهو كان حجاب موسى، فلما زال رأى موسى ما رأى الجبل، فصعق من نفسه لرؤيته، ولم يطق مع علمنا بأنه ذو معرفة بربه في قلبه، فلو تجلى له على قدر علمه به لما صعق، وكذلك مذهبنا ومذهب سهل وأهل الحقائق في الجمادات، أنها أعظم علمًا بالله، وأنها مفطورة على العلم بالله، بخلاف الإنسان من حيث مجموعه، الذي به سمي إنسانًا.

فإن قلت: ظاهر الآية تعطي أن موسى ما رأى ربه، لأن الشرط في رؤيته ما وقع، قلنا: إنما نفى الشرط ما خلصه من استئناف الرؤيا، فما استأنف الرؤيا، بل رآه في الحال لمن فهم الآية الواردة في ذلك، والصعق تبين ما أشرنا إليه، فإن اندكاك الجبل لا يصعق موسى ولا غيره، وإنما كان حجابه الجبل، بنظره إليه عن أمر الله له بذلك، فأزاله الله رفعًا لحجابه، فرأى موسى ما رأى الجبل في الحال، كما رأى ذلك المريد ما يراه أبو يزيد من علمه بالله، وهذه المسألة التي نبه عليها هذا الشيخ في وصيته، [تتفرع] (١) وتتشعب وتُنبيء عن معرفة تامة، في روحانية [وعشق] (٢)، فاقتصرنا على هذا القدر في التنبيه لمن عقل عنا ما أردنا.

ثم قال: (ثم إذا فرغ من الصلاة يأتي باب الشيخ، ويقف بالبعد من الباب تأدبًا بين يديه) إنما أمره بالوقوف على البعد من باب الشيخ، لئلا

---

(١) في (أ): تتنوع.

(٢) في (ب): دمشق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينفتح باب الشيخ، فربما يخرج الشيخ في حالة لا يطيقها المريد، فيجري عليه ما جرى على المريد، الذي رأى أبا يزيد على غفلة، فإذا كان بالبعد كان أثبت له، وإن كان نور الشيخ عند المريد صاحب الكشف، لا تحكم عليه المسافات ببعدها ولا قربها، فإن زمان لمع البرق، غير عين زمان انصباغ الهواء به، عين زمان ظهور الأسماء به، عين زمان نظر الناظر إليه، ليس بين ذلك زمان، بل الزمان واحد في ذلك الجميع كله، فمثل هذا هو ما علمت أن لمع البرق يتقدم على صبغ الهواء به، وصبغ الهواء به يتقدم على ظهور الأشياء به، وظهور الأسماء به يتقدم على إدراك البصر من الناظر إياه، ومعلوم أن الزمان واحد في ذلك كله لقِدم المراتب، كتقدم العلة على معلولها، مع مساوقته لها في الوجود، ولكن لابد أن يكون للبعد أثر لا يكون للقرب، وإنما أمره بهذا البعد على جهة الأدب، عسى الله أن يكشف للشيخ إتيانه، فيخرج الإذن من الشيخ مع بعض أصحابه، بأمره بالدخول عليه، فيكون قد ترك من طريقه قدر ما يقطعه إلى الشيخ، بطريق الوجوب لما أمره الشيخ، فيلقاه مؤديًا واجبًا، فإن رؤية الله، ورؤية رسوله، ورؤية الشيخ، الذي هو من أولي الأمر في حق هذا المريد، من طريق الوجوب أداء الفرائض، أتم من رؤيته من حيث النوافل والتطوعات، فلأجل هذا الطمع أمره بالوقوف على البعد أيضًا.

وقوله: (تأدبًا مع الشيخ) لأنه إذا لم يكن بمنزلة الشيخ، فقد فارقه، فسواء عليه البعد الكثير والقليل، فيتأدب بالوقوف على البعد من باب الشيخ، بين يدي الشيخ، الذي في استحضار خاطره، ينبهه إن كان غافلاً، لأن المريد ينبغي له مراقبة الشيخ في جميع أحواله، فلهذا قال: تأدبًا بين يديه، وإن كان في ذلك الوقت بالظاهر، ليس بين يديه، ومن حيث هو مشاهد له، كأنه يراه هو بين يديه، وقد ورد في الخبر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصحيح ما [يشهد لذلك] [(١)]***، وهو قوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه»*** [(٢)]***، فأمره بالتأدب في استحضاره في خاطره، كتأدبه في حضوره، فإنه يراك إن لم تكن أنت تراه، يعني ظاهر الرؤيا، فإنه بالباطن يراه بلا شك، فأمره أن يتأدب مع صورة شيخه الذي في باطنه، وأن يكون باب الشيخ له كالمرآة، يتجلى فيها صورة الشيخ الذي في قلبه، فإنه لا يعرف المريد في رؤية الشيخ، إذا رآه بعين بصره، هل يراه بالصورة التي كانت مقررة في باطنه، أو تتنوع عليه الصورة بأكمل مما كانت عنده؟ هذا في كل رؤية، وإن كان الأمر هو كذا في نفسه، ما تجلى الله قط في صورة واحدة لشخص مرتين، وكذلك هي الأشياء، وما بقي إلا أن يكون لك بما تدرك ذلك، فإن في الأشياء في كل نفس في خلق جديد، عَلِم ذلك من علمه، وجهله من جهله، وإنما الأمثال حجب على البصائر والأبصار، إلا لمن ليس في لبس من خلق جديد، فلكل رؤية في الأشياء، والصورة صورة ما هي لغير تلك الرؤيا.***

فمن الرائين من يشهد ذلك وهو المتقي الذي جعل الله له بتقواه فرقانًا، ومنهم لا يشهد ذلك وهو غير المتقي، وبهذا الميزان يزن الإنسان حاله في التقوى، فيعلم هل هو متقٍ أو غير متقٍ، فإن الله تعالى قد شرط ذلك، فقال: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّـهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال: ٢٩]، وأتى بالفرقان نكرة فعم، فإن النكرة تعم، لا سيما في مثل هذا

---

(١) في (ب): يسند ذلك.

(٢) يشير إلى قول النبي ﷺ حين سأله جبريل قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة t رقم (٥٠) كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ورقم (٤٤٩٩) باب: إن الله عنده علم الساعة ، ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رقم (٨) وعن أبي هريرة t رقم (١٠،٩) كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، والترمذي في سننه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رقم (٢٦١٠) كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرى رقم (١١٧٢١) كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: نعت الإسلام، وأبو داود في سننه رقم (٤٦٩٥) كتاب: السنة، باب: في القدر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الموضع، فمن لم يعرف الفرقان فلا يدعي التقوى، فإن الله صادق الوعد.

وأما قوله: (تأدبًا بين يديه) فالأدب هو جماع الخير، فيحصر ذلك كله بين يديه، فإنه مشتق من المأدبة، وهو الاجتماع على الطعام، فكأنه يقول: حسن ظنك بشيخك في كل خير، فإن الله U يقول: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرًا»[1]، وكذلك الشيخ المحقق، هو عند ظن المريد به، وبذلك أمره الله تعالى أن يكون، فانظر غوص هذه الوصية، فإن كانت عن كشف ومعرفة فبخ على بخ، وإن كان مُنطقًا بها، ولا يقصد ما شرحناه، فحسن ولله به عناية، حيث نطقه بمثل هذا في حق هذا المريد، والله أعلم كيف هو.

ثم قال: (ويقصد جهده أن يدفع عن نفسه الخيالات الرديئة) يعني في حق شيخه، حتى لا ينجرح عنده، فيُحرم المنفعة به، فإن الشيطان لا يزال يُلقي إلى نفس المريد في شيخه ما يكرهه إليه، ولهذا بعض المريدين المحرومين، يعترضون على شيوخهم بما يرونه من حركاتهم، ولاسيما المذاهب الأربع إن كان لظاهر الشريعة، التي هم عليها فقهاء الزمان على تلك الحركة، حكم مقرر عندهم، ولاسيما عند أصحاب المذاهب الأربع، وما علم أن الشيخ من المحال، أن يحلل ما حرم الله، أو يحرم ما أحل الله، أو يحكم بما لم يحكم الله به، فيما يفتي فيه أو يدل عليه مريده، أو يفعله الشيخ على طريق الحِل، وهو محرم في حكم الله

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رقم (٦٩٧٠) (٧٠٦٦) كتاب: التوحيد، باب: باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقوله جل ذكره ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ورواه الإمام مسلم في صحيحه رقم (٢٦٧٥) كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: الحث على ذكر الله، والترمذي في سننه رقم (٢٣٣٨) كتاب: الزهد، باب: ما جاء في حسن الظن بالله، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك بنحوه عن واثلة بن الأسقع t رقم (٧٦٠٣) كتاب: التوبة والإنابة، وقال صحيح الإسناد، والطبراني في معجمه الأوسط رقم (٤٠١) (١/١٢٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى على لسان النبي ﷺ الواصل إلينا بشرع الله، فإنهم y قد يصح عندهم من طريق الكشف، عن رسول الله ﷺ مشافهة منه إليهم، أو إلهامًا من الله U، وإلقاء في قلوبهم على الطريقة المعهودة التي لأولياء الله مع الله في تلقياتهم، أن حكم الرسول عن الله في ذلك الأمر هو هكذا، إلا كما حكمت به المذاهب الأربع، أو مذهب ما، وإن كان الله قد قدر ذلك الحكم بالنظر إلى ذلك المجتهد وما قلده، وقد رأيت رسول الله ﷺ فسألته في المطلقة بالثلاث في المجلس الواحد، كيف حكمه عندك يا رسول الله؟ فقال: هي ثلاث كما قال: ﴿فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فقلت له: فإن جماعة من أهل الظاهر، حكموا أنها واحدة، فقال: هؤلائك حكموا بما وصل إليهم وأصابوا، وحكمي أنا في المسألة بما ذكرته لك، في رؤيا طويلة، فمن ذلك الوقت صرت أقول بهذا الحكم، عن رسول ﷺ.

ولا يلزم الشيخ مع هذا الكشف تقليد إمام في اجتهاده، كما لا يلزم المجتهد تقليد مجتهد آخر في مسألة مع اجتهاده، ولا يحل لمجتهد أن يحكم في نازلة باجتهاده على طريق فرض الوقوع، حتى ينزل، فإذا نزلت تعين الحكم منه فيها، بما يؤديه إليه اجتهاده، فإن نزلت مرة ثانية ويُسأل فيها، استأنف الاجتهاد أيضًا في الحكم، فإن وافق الأول كان، وأفتى به عن هذا الاجتهاد، وإن لم يوافق وحكم بأمر آخر في تلك النازلة، حرم عليه أن يحكم فيها إلا بما ظهر له الآن، مع صحة الأول في وقته لا في هذا الوقت، ولذلك كان يقول مالك بن أنس [1] إذا سُئل

---

(١) هو الإمام الجليل مالك بن أنس t ولد سنة بضع وتسعين بعد ما حملت به أمه ثلاث سنين.ورث حديث الرسول، ونشر في أمته الأحكام والأصول، وقد قيل: التصوف تحقق في التقوى، وتخلق في البلوى. أخذ العلم عن سبعمائة شيخ فأكثر. وما أفتى حتى شهد له سبعون إمامًا أنه أهل لذلك، وكتب بيده مائة ألف حديث، وجلس للتدريس وهو ابن سبع عشرة سنة، وصارت حلقته أكثر من حلقة مشايخه في حياتهم. وسئل عن ثمان وأربعين مسألة =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في مسألة نزلت، فإن قيل له: نعم، نظر وأفتى، وإن قيل له: لم تنزل ولكن فرضنا نزولها، وكان لا يفتي فيها بشيء إلا أن تنزل، فانظر إلى تحرير هذا الإمام t .

فمتى رأيت المريد يزن الشيخ وحركاته، بميزان الشرع المقرر عنده، من اجتهاده أو تقليده لإمام، فتعلم أن المريد في إدبار لا يفلح أبدًا، فلذلك قال هذا الشيخ في وصيته هذه، المقالة في الخواطر الردية، هذا في تحليل محرم، أو تحريم محلل.

وإما ألا يعصي الشيخ، فذلك لا يمكن أن يُقطع به في حق أحد، لا شيخ ولا غيره، فإن أبا يزيد قيل له: أيعصى العارف؟ قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فينبغي للمريد ألا يصحب شيخًا على طريق العصمة، وإنما يصحبه على طريق العلم بطريق الله، ولينظر في أقواله وفتياه لا في أفعاله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]، وما أمرنا أن نتأسى بأفعالهم لعدم فرض العصمة فيهم، وقال في حق الأنبياء كما عصمهم الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ

=

فقال في اثنتين وثلاثين: لا أدري، وقال: ينبغي للعالم أن يُورِّث جلساءه (لا أدري) ليكون أصلاً في أيديهم يفزعون إليه، وكان يرى المصطفى □ كل ليلة في النوم. وقيل له: كيف أصبحت؟ قال: في عمر ينقص، وذنوب تزيد. وقال: العلم ليس بكثرة الرواية بل نور يضعه الله في القلب يفرق بين الحق والباطل.

وقال: إذا علمت علمًا ظهر عليك أثره وسمته وسكينته ووقاره وحلمه لحديث «**العلماء ورثة الأنبياء**»، وقال: لا خير فمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس لها أهلاً. وقال: المِراء والجدال في العلم يُذهب بنوره من القلب.وقال: من صدق في حديث متع بعقله و لم يصبه هم ولا خوف.وقال: طلب الرزق في شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس. مات بالمدينة سنة سبع وتسعين ومائة، وقيل: اثنتين وتسعين ومائة، وقيل غير ذلك.وأفرد الذهبي t ترجمته بمؤلف حافل. انظر ترجمته الكواكب الدرية رقم (١٦٣)، طبقات الشعراني (٤٩/١)، وحلية الأولياء (٣١٦/٦)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فإنا نتبع الرسول من أقواله في جميع أفعاله، إلا ما نصه علينا من أفعاله، التي تختص به، ولا يجوز لنا فعلها، وقد بين ذلك فإنه نزل ليبين للناس ما نزل إليهم، مثل نكاح الهبة خالصًا له من دون المؤمنين، فليس لغيره نكاح الهبة، ولو كان هذا الحكم في غير القرآن أو السنة المتواترة، وكان يكون في خبر الواحد الصحيح بغلبة الظن، ثم رأينا شيخًا يفعله جاز عندنا أن يكون الخبر واهيًا في نفس الأمر، وإن كان صحيحًا بالنقل من حسن الظن بالرواة.

واعلم أن هذا من أعظم الأدوية لهذه العلة، التي تطرأ على المريد من الشيطان، ولاشك أن النفس الخبيثة تقبل على الفور مثل هذا الإلقاء بما يراه من حكم الشيخ عليه، وهي بالطبع لا تريد أن تكون محكومة لأحد، فإذا أخطر لها إبليس في الشيخ خاطرًا رديًا [قبلته] (١) من حينها، إلا أن يوفقها الله، ولقد خدم صادقٌ شيخًا، فرآه قد زنا بإمرأة، وعلم الشيخ أن المريد قد رآه، ثم رأى المريد يبالغ في خدمته كما كان، وما تغير عليه من حاله شيء، فقال له الشيخ: يا فلان أنت قد رأيتني قد وقع مني ما وقع، وثبتَ علي طريقك في خدمتي، فقال: يا سيدي ما صحبتك على أنك معصوم عن المعاصي، وإنما صحبتك أنك عالم بطريق الله الذي فيه رشدي، وأنت مع نفسك بحسب ما قدر الله عليك، فقال الشيخ: مثلك من يدعي أنه خديم.

وقد جرى لنا مثل هذا مع بعض شيوخنا، وكنا معه مثل هذا المريد، ووالله ما تغير لي باطن ولا قلب على الشيخ، من أجل حركته وسكونه، وإني ما صحبته إلا أنه ينصحني فيما يُلقى إليّ، وأنا أقتدي بكلامه لا بفعله، وكل مريد خرج عن هذه القضية فإنه لا يجيء منه

---

(١) في (ب): قتلته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رجل أبدًا، [ثم لتعلم أن لله عبادًا قد قيل لهم: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فما يدريك أن هذا الشيخ منهم، وباب المريد حسن الظن لا سوء الظن] (١).

واعلم أن الله U إذا فتح على عبد في باطنه، بسوء الظن بأحد من خلق الله، فإن ذلك من مقت الله به، ومن عمى بصيرته، ومَن فَرَض العصمة لأحد، فذلك غاية الجهل بالله، والمعاصي لا تغير مسلمًا ولا يتغير لها، وإن كُره فيُكره الفعل لا الفاعل، فإن سلطان الإيمان أقوى، فإنه يكفيه في المعصية من الطاعة، اعتقاده أنها معصية، فالناصح نفسه، ينبغي له أن يحمي باطنه من الخواطر الردية، في حق المؤمنين والكافرين في الوقت، فإنه لا يدري بماذا يُختم لهذا الكافر المعين في الوقت، وإنما يُكره الكفر من حيث هو كفر، لا هذا الكافر، فكيف المؤمن، وكل من أساء الظن بأحد من خلق الله بلا خلاف أنه ممقوت من الله، وذلك بدء الجُهال، وطريق الخسران، لو لم يكن فيه إلا تدنيس الخاطر والقلب بالسوء، ما لم يكلفه الله ذلك، فإن النبي يقول: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» (٢)***، وأي عيب أعظم من سوء الظن بالناس، وهل يكون ذلك إلا من مراقبة هذا المحروم بحركات الناس، فلو اشتغل بنفسه ما تفرغ إلى النظر في غيره، كما قال بعض شيوخنا:***

وفي نفسي لي شغل شاغل

فرحم الله هذا الشيخ بما أوصى به، ولقد وصى بخير كثير لله الحمد على ذلك .

---

(١) زيادة في (ب).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان من طريق أنس بن مالك t رقم (١٠٥٦٣)، والترمذي في نوادر الأصول (٢٤٢/١)، والديلمي في الفردوس رقم (٢٩٣٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال: (ولا تجلس ولا تتكيء على شيء، ولا يحرك له عضوًا، إلا أن ينظر فيه لما يحرك هذا العضو، هل هو لهوى نفسه؟ أو لله سبحانه وتعالى؟ فإن كان لهوى نفسه؛ فيمتنع عنه بالكلية، وإن كان ذلك لله، فيزنه بميزان الشرع، ويقرن بذلك نية صادقة خالصة، وكذلك في جميع أحواله).

اعلم أن هذا الرجل قد خرج من وصيته مريد التربية، إلى وصية أهل الله الذين لا يتقيدون بشيخ، فإن مريد التربية في أول قدم، قد خرج عن هوى نفسه، فما له حركة ولا سكون؛ إلا بأمر من الشيخ، فلذلك قلنا: أنه خرج من وصية مريد التربية إلى أهل الله، بما هم به مشتغلون.

وأما قوله: (إن كان لهوى نفسه فيمتنع عنه بالكلية) هذا غير محرر، فإن أحكام الله في [أوقاتها] (١)، قد [يوافق] (٢) هوى المحكوم عليه، فإذا وافق فليشكر الله تعالى في موافقة هوى نفسه حكم الله، فيفعل ذلك بما هو لله، ويسر بما هو هوى نفسه، وبما وفقه الله لذلك من حيث لا يشعر، فهذا لا يمتنع عن نفسه [أنه قيده] (٣) بالكلية، فإنه إن امتنع [عنه بالكلية امتنع] (٤) عن إنفاذ حكم الله تعالى فكان عاصيًا، وإنما أراد بهوى نفسه ألا يوافق حكم الله تعالى، إلا أنه لم يحرر العبارة.

وأما قوله: (فإن كان ذلك لله فيزنه بميزان الشرع) فكلام غير محرر، فإنه إذا عرف أنه لله فلا يحتاج إلى ميزان، فإنه عين الشرع،

---

(١) في (ب): أوقات.

(٢) في (ب): يوافق.

(٣) في (ب): أن يمضيه.

(٤) سقط في (أ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنما أراد أن يقول: وإن كان ذلك في نفس الأمر لله، ولا يعرفه هذا الشخص، لأنه لا هوى لنفسه في ذلك، فيزنه عند ذلك بميزان الشريعة، فإن وافق [في ذلك] (١) أمضاه وإلا تركه، فهذا يدلك أن كلامه أنه في العموم لا في وصية مريد التربية، فإن المريد لا يزن على الشيخ أمره ولا حاله، وإنما هو مستسلم له، كالمقلد في الفُتيا إذا نزلت به نازلة، يقلد المفتي فيما يفتيه به، فإن كان مؤمنًا، فلا يجد حرجًا فيما أفتاه به، وقضى به عليه وسلم له تسليمًا، وإن كان قبل ذلك يكره ذلك، فإنه عند الفُتيا يرجع إلى الرضا بما قضى به عليه، ومتى لم يجد ذلك فإنه قد قدح في إيمانه، فإن الله يقول ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]، وكل مفتٍ في حق من قلده واعتمد عليه بهذه المثابة، فإنه بمنزلة الرسول عنها أو خضر، فإن المفتي ما ينقل إلا حكم الله تعالى، أي: الحكم الذي قرره الله بالنظر إليه، وكذلك الرسول ما ينقل إلا عن الله، فالعلماء ورثة الأنبياء.

ولذلك لا يجوز للمقلد أن يفتي، ولا للمفتي أن يُفتي في كل وقت إلا عن اجتهاد في طلب الدليل، ولو تكررت [عليهم] (٢) النازلة في اليوم عشرين مرة، وأنه يتعين عليه في كل مرة إحداث اجتهاد ونظر في الأدلة، وهو في كل مرة مع ما يعطيه دليله، ويغلب على ظنه أنه دليل، وحينئذ يحل له أن ينطق بالحُكم، وذلك هو الحُكم الذي تعبده الله به.

وأما قوله: (ويُقرن بذلك نية صادقة خالصة وكذلك في جميع أحواله) فيريد قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ

---

(١) في (ب): الميزان.

(٢) في (ب): عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[(١)]، وصح هذا الخبر، فالإنسان تبلغ مرتبته عند الله في [الدنيا] [(٢)] والآخرة، حيث تبلغ نيته وإن قصر عمله عما يطلبه بنيته، وأما إن كان تحت [الاقتدار] [(٣)] ما يطلبه بنيته ولا [يعلمه] [(٤)]، فليست له هذه الدرجة، ولا يبلغ يوم القيامة إلى حيث انتهت به نيته، فإنه قادر على عمل ما نوى، ولكن له أجر من نوى لا أجر النية، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام فيمن يحدث نفسه بأن يعمل حسنة فلم يعملها يكتب له حسنة واحدة[(٥)]، [وهو كونه حدث نفسه] [(٦)] وهو حديث نفسي بعمل خير خاصة مع قدرته على العمل، فلم يعمل، فإن عملها كُتبت له عشر أمثالها، فإن كان غير قادر فله أجر من عمل، أي: هو والعامل في الأجر على السواء، وقد ورد ذلك في الرجل يكون له المال فيفعل به الخير، فيقول من لا مال له: لو كان عندي مثل الذي عند فلان من المال لعملت مثل عمله. قال في ذلك: «هُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ»[(٧)] فأوصى

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب t رقم (٦٣١١) كتاب: الأيمان، باب: النية في الأيمان، ورواه الإمام مسلم في صحيحه رقم (١٩٠٧) كتاب: الإمارة باب: قوله : إنما الأعمال بالنية، والترمذي في سننه رقم (١٦٤٧) كتاب: فضائل الجهاد باب: فيمن يقاتل رياءً وللدنيا، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) في (ب): الدار.

(٣) في (ب): اقتداره.

(٤) في (ب): بعمله.

(٥) يشير إلى قول النبي المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «قَالَ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» رواه الإمام البخاري رقم (٦١٢٦) كتاب: الرقاق باب: من هم بحسنة أو بسيئة، وأحمد في مسنده رقم (٢٨٢٨) (٣١٠/١)، ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة t رقم (١٢٨) كتاب: الإيمان باب: إذا هم العبد بحسنة كتبت.

(٦) سقط في (أ).

(٧) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي كبشة الأنماري t (٢٣٠/٤)، وابن ماجة في سننه رقم (٤٢٢٨) كتاب: الزهد، باب: النية، والطبراني في المعجم الكبير رقم (٨٦٧) (٣٤٥/٢٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الشيخ أن يكون الإنسان في جميع أحواله ينوى قربه إلى الله، والقُرب لا تعرف إلا من الشرع.

ثم قال: (فإن وقع في نفسه إلهام من جهة شيخه، فينبغي للمريد أن يكون فيه يقظة، فيحفظ ذلك حفظًا بليغًا إذا كان من جهة الشيخ).

اعلم أنه لا يكون مثل هذا من المريد؛ إلا بعد معرفته بالخواطر وميزها، فإذا كان بهذه المثابة، حينئذ يفرق في الإلهام الذي يجده في نفسه، بين ما هو من جهة الشيخ ومن جهة أخرى، فإن كل إنسان لا يخلو من الإلهام البتة، فما بقي إلا العلم بمن ألهمه ذلك، هل هو إلهام إلهي، أو شيطاني، أو نفسي، أو ملكي، أو من جهة أحد غير من ذكرنا؟ مثل ما ذكر هذا أن يكون من جهة شيخه، ويعلم أنه إذا كان من جهة شيخه من أي مقام، كان الإلهام للشيخ الذي جعل الشيخ يرسل به إلى المريد، هذا الإلهام الذي وجده هذا المريد، هل أعطاه إياه حال المريد أو من أمر آخر؟ وهذا لا يكون إلا من كبير في الإرادة، أو متحقق بالصدق في هذا الشيخ، فإن المريد متى لم يقم الشيخ في قلبه مقام الحق، لا يعلم مثل هذا، ومعنى مقام الحق فيه، أنه لا يتصرف فيه إلا شيخه، كما أنه لا يتصرف في العالم إلا الحق فمن الحق يكون جميع ما هو العالم فيه.

وكذلك المريد يرى جميع ما يأتي يجده في نفسه، أنه من تصرف الشيخ فيه، لأنه [مدد][1] من الشيخ قد سرى في ذاته كلها، بحيث أنه لم يبق فيه متسع لغير شيخه، أو يكون المريد صاحب كشف كما كان لأبي مدين[2]، كان له ابن صغير جدًا، أول ما بدأ يتكلم، وكان يكشف

---

(١) في (ب): ملآن.

(٢) هو الشيخ العارف سيدنا: أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري؛ أصله من حصن قطنيانة من عمل أشبيلية، ثم نزل بجاية، مات بوادٍ قريبٍ من تلمسان عام أربع وتسعين وخمسمائة، وقيل: عام ثمانية وثمانين، والأول أشهر، ودُفن بالعباد خارج تلمسان. ومن أقواله: انْكِسَارُ الْعَاصِي خَيْرٌ مِنْ صَوْلَةِ الْمُطِيعِ.

=

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو ببجاية ما يتفق في الإسكندرية والأندلس، وما شاء الله من البلدان، قد جرى في الأمر في موضع كذا وكذا، فيكون كما قال، فقيل له: بماذا ترى هذا؟ فيقول: بعيني، ثم يقول: إنما أراه بقلبي، ثم [يقول][(١)]: لا، إنما أراه بوالدي، إذا كان أمامي رأيت الأمر به، فإن لم يكن

=

وقال: عَلامةُ الإخْلاصِ: أَنْ يَغِيبَ عَنْكَ الْخَلْقُ فِي مُشَاهدةِ الْحَقِّ. وقال: ليس للقلب إلا وجهه واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها. وقال: نسيان العبد للحق تعالى طرفة عين خيانة تستحق العقوبة. وقال: الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بأطرافه وأنار باطنك بإشرافه.

وقال المصنف t : كان شيخنا أبو مدين t يقول: من علامة صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق، ومن علامة فراره عنهم وجوده للحق، ومن علامة صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق، فهذا هو حال الوارث للنبي r فإنه كان يخلو بغار حراء وينقطع إلى الله فيه ويترك بيته وأهله، ويفر إلى ربه حتى فاجأه الحق فبعثه الله رسولاً مرشدًا لعباده، فهذه حالات ثلاث ورثه فيها من اعتنى الله به من أمته، ومثله يسمى وارثًا، فالوارث الكامل من ورّثه علمًا وعملاً وحالاً. وقال: مَنْ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الدُّنْيَا ابتلي بِالذُّلّ فِيهَا، وقال: مَنْ عَرَفَ نَفْسه لَم يَغْتَرّ بِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْه.

وقال t : كان شيخنا أبا مدين t إذا جاءه مأكول طيب أكله أو خشن أكله، وإذا جاع وجاءه فقد علم أن الله تعالى خيره إذ لو أرد أن يطعمه أي صنف أراد من المأكول جاء به إليه فينظر في ذلك الوقت ما هو الأحب إلى الله من المأكول بالنظر إلى صلاح المزاج للعبادة لا إلى غرض النفس. قال: وكان يقول لأصحابه أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هي العليا، كما يعلن هؤلاء بالمعاصي ولا يستحيون من الله

حكى صاحب حرز الأتقياء: (إن بعضَ الصالحين رأى النبي في النوم، فقال له: يا رسول الله ما تقول في أبي مدين؟ قال: «هو شيخ الشيوخ». وأفرد له ابن قنفذ في ترجمة الشيخ t ومناقبه في كتاب أسماه "أنس الفقير وعز الحقير" (ط. دار المقطم – مصر) ولكنه لم يوف ببعض مناقب الشيخ – قدس سره – إذ أن أخباره ومناقبه نفعنا الله به لا تفي بها المجلدات الكثيرة، وقد تكلم عن بعض أحواله الشيخ الأكبر – قدس سره – في ثنايا الكثير من مؤلفاته . وانظر في ترجمته: "المعزى في مناقب – شيخه - سيدي أبي يعزى" للتادلى [ط. العلمية]، و"المنهاج الواضح في مناقب- تلميذه - سيدي أبي محمد صالح" للماجري [ط. العلمية]، و"خلاصة المفاخر في مناقب سيدي عبد القادر" لليافعي (ص٧٣)، "بهجة الأسرار" للشطنوفي (ص٣٤٤)، و"الانتصار للأولياء الأخيار" للكردي (ص٤٥١)، و"فلائد الجواهر" للتاذفي (ص٣٤٩)، "الكواكب الدرية" رقم (٥١٤)، و"التشوف" (٣١٩)، و"نفح الطيب" (١٣٦/٧)، وغيرها.

(١) سقط في (أ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حاضرًا لم أر شيئًا، فكان يرى الأشياء من جهة أبيه، ومثل هذا لا يقال إنه كان فيه يقظة، فإن الكشف منحة لا يقال فيه أنه يقظة، وحد اليقظة في هذا الولد، الذي كان لأبي مدين، كونه قال: بوالدي أرى ما أرى، بعدما درج الأمر من عينه، إلى قلبه، إلى أبيه، فمن هنا كان في فطرته التيقظ.

وأما قوله: (ينبغي للمريد أن يكون فيه يقظة)، فما اليقظة من فعل المريد، وإنما اليقظة [في] (١) ***فطرته، والذي يكتسب منها إنما يكتسبه بها، وما أراد هذا الشيخ باليقظة هنا إلا في حفظ ذلك الإلهام، إذا كان من جهة الشيخ، ومريد التربية لا يكون قط عنده الإلهام؛ إلا من جهة الشيخ في نفسه، وما بقي في قوله إذا كان من جهة؛ إلا أن يكون الشيخ قد قصد إلهام ذلك المريد بما وجد في نفسه، لا بما هو المريد عليه من اتحاده بشيخه، فينبغي له أن يميز بين ما يكون من الإلهام الذي يجده، هل هو مقصود للشيخ؟ أو هل هو من اتحاده بشيخه؟ فإن كان الشيخ لا علم له بذلك، كما كان أبو مدين لا علم له ولا خاطر في كشف ابنه ما كان يكشفه به، فكان يقام له أبوه مقام مرآة مجلوة، يتجلى له فيها إذا نظر إليه ما كان يخبر به ويراه، فإذا كان الإلهام من جهة الشيخ، فيحفظه حفظًا بليغًا لما يقرن به من الفعل، فإنه أمر من الشيخ له بما ألهمه به، أو نهي أو إخبار بشيء، ويعلم ذلك عند اجتماعه بالشيخ، فيذكر له ما وجد في نفسه من الإلهام، ويعرفه الشيخ أنه أراد ذلك، وإن كان من اتحاده بالشيخ، فلا ينتج النظر بما تقتضيه المصلحة من إمضاء ذلك أو تركه، فلهذا يحفظه حتى يعرضه على الشيخ.***

---

(١) في (ب): من.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن أهل الله قد أجمعوا، على أن المريد لا يستر عن شيخه شيئًا مما يقع له، أو تجده نفسه، ومتى لم يفعل ذلك، لن يبرأ من علة نفسه أبدًا، ولا يجيء منه شيء، فهذا فائدة حفظه لذلك، فإنه متى نسي ما وجده، ولم يعرضه على الشيخ، فبقي برأيه لا يعرف ما ينفق عليه منه، فلابد أن يحفظ الحفظ البليغ لجميع ما يقع له.

وأما قوله بعد ذلك: (ويزن بذلك أفعال نفسه في كل أحواله) فالإشارة في قوله بذلك إلى الحفظ لا إلى الإلهام، فينبغي له أن يحفظ أفعال نفسه، أي: جميع ما تحرك فيه حتى يذكر ذلك لشيخه، فلا يريد ميزان الإلهام، فإن الإلهام إنما يقع له في أمر خاص، والحفظ يعم.

ثم قال: (ويعلم أن الشيخ يريد أن يحييه ويوجده بإذن الله تعالى)، يقول: إذا علم أن ذلك من جهة الشيخ لا من اتحاده بالشيخ، يعلم عند ذلك أن الشيخ قد أحبه لما ألهمه به، فإنه يريد أن يوجده نتيجة ذلك الإلهام، إلهيًا، أو إخبارًا بأمر، فلابد أن يكون كذلك نتيجة إرادة الشيخ أن يوجده إياها.

وقوله: (بإذن الله تعالى) يريد قول الله تعالى في عيسى u فيما ظهر عليه من إحياء الموتى، وخلق الطير، ونفخه فيه الروح، فأخبر أن ذلك كله بإذن الله، وإذا كان بإذن الله فإن الله ما يأذن إلا بهذا الطريق الخاص، لا بالطريق العام الذي يعلم أنه لا يتصرف للعالم إلا الله، لا يريد ذلك، وإنما يريد الإذن الخاص، أي: على الطريقة التي يعلمها رسل الله، وأولياء الله تعالى، فإن الله تعالى يقول في الإكمال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا﴾ بالفطرة ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧،٨] أي: بفطرتها تتقي، وبفطرتها تأتي كل شيء في قوتها، هذا الإلهام العام، والإلهام الخاص في هذا الكمال، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ أنه فجور ﴿وَتَقْوَاهَا﴾ أنه تقوى، فتأتي من ذلك ما شُرع لها أن تأتيه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتجتنب من ذلك ما شرع لها أن تجتنبه، سواء كانت هذه النفس عين الرسول أو المرسل إليه.

وأما قوله: (ويعلم أن هذا الإلهام أبلغ من الحفظ باللسان) فعبارة غير مستقيمة، فإنه يريد أن يقول: وأن هذا الإلهام الذي وجده هذا المريد من جهة الشيخ، أبلغ من مشافهته به إياه، فيكون حفظه لما ألهمه به أشد من حفظه لما شافهه به، لأن الإلهام ما يعطي إلا المعنى المجرد، فهو كالنص ما فيه تأويل لأنه لما عين له، والمشافهة في الخطاب تنزل عن هذه الرتبة، فإنها مقيدة بالألفاظ، فلا يسمع بالمشافهة إلا ألفاظًا، واللفظ يدخله التأويل، فقد [يوافق] (١) ما يريد الشيخ بذلك اللفظ في المشافهة، وقد لا يوافق، بخلاف الإلهام، ففي الإلهام تعيين الشيء، فتحفظ ذلك المعين، وفي المشافهة لا يقدر على حفظ التأويل، فإنه لا يعرف هل هو فيه مُصيب أو مخطأ، فالذي يحفظ في المشافهة عين اللفظ خاصة، حتى يذكره للشيخ ليبين له أحد محتملاته، هذا إذا لم يكن نصًا في الباب.

وأما قوله: (ولا ينزعج من كثرة الوقوف والتردد إلى باب الشيخ مهما قدر)، فاعلم أنه أراد بقوله: لا ينزعج من كثرة الوقوف، لا يضجر ولا يسأم، فإن مريد التربية لا يأتي إلى باب الشيخ إلا عن أمر الشيخ، وقوله: مهما قدر، يعني: إن عاقه مرض لا يستطيع معه النهوض، وإما أنه يقول: مهما قدر، يعني: أنه مهما قدر على نفسه، إذا وجد منها [الإبانة] (٢)، فهو متمكن من نفسه أنه قادر على مخالفتها، وموافقة أمر شيخه، إلا إن خذله الله، فهذا مطرود لا كلام لنا معه.

---

(١) في (ب): توافق.

(٢) في (ب): الإباية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد جرى في ذلك حكاية لبعض الشيوخ، وذلك أنه طلب من المريد أن يشتري له إبرة من السوق، فجاءه بإبرة فردها، فقال: ما هي على غرضي، فجئني بغيرها، فكلما جاء بإبرة أظهر له أنها على غير مراده، فعل ذلك معه مرارًا عديدة، فضجر المريد ولم يعلم بضجره، وتأولت نفسه فيما سولت له، أن الشيخ قد تعب خاطره بكونك ما جئته بغرضه، فلو أخذت الصانع بآلته، وجئت به إلى الشيخ حتى يفعل له ما يريد على موافقة غرضه، لكان ذلك مما يريح الشيخ من تعب خاطره، فقال له الشيخ: بطنت عليك نفسك، أنت ضجرت من كثرة ترددك، كنت تأتي بإبرة بعد إبرة طول عمرك، حتى أقول لك هذا غرضي، وما أردت بترددك إلا استخراج عيبك لك، وأنا فأي إبرة كانت تقضي حاجتي، فإياك والضجر في كل ما تُؤمر به، وهذا ليس مع الشيخ وحده، بل يكون خُلقًا فيك مع عباد الله، وما رأيت أحدًا [بحمد الله أحكم هذا المقام مثلي] (١)***، مكنني الله من نفسي في ذلك، حتى هان عليّ، بحيث أني لا أجد في ذلك كلفة أصلاً، في حق الأدنى [والأعلى]*** (٢)***، والصبي، والمرأة، والخادم، فأحرى أمر الشيخ أو رجل كبير من أهل الله، ولا يقعدني قط عن مثل هذا إلا مرض حتى يمنع الجسم من الحركة فلا أقدر عليها.***

ثم قال: (فإن رؤية الشيخ إحياء قلب المريد، وشفاءً لصدره، وذهابًا لهمه، وسكون لنفسه)، أما قوله: (إحياء قلب المريد) فإنه لابد له في كل رؤية يرى شيخه، من استفادة علم لم يكن يعلمه، وبالعلم تحيا القلوب، فإنه لابد في كل رؤية من فائدة تحصل له من الشيخ برؤيته، وحينئذ يصح أن يقال فيه: أنه رأى الشيخ، وأقل ذلك أنه ما ثم

---

(١) في (ب): أحكم هذا المقام بحمد الله مثلي.

(٢) في (ب): والعالي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيء يتكرر في الوجود أصلاً، للاتساع الإلهي، ولذلك يقول U عن نفسه: إنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وأصغر الأيام نفس الإنسان الواحد، وهو الزمن الفرد، والله في شأن كل جزء من العالم، فرد بأمر لم يكن عينه في الزمن الآخر المتقدم، ولا يكون في الآتي، وهذا معنى قوله فيمن لم يعلم ذلك من الله ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

وقد تقرر في العلم الإلهي عند أهل الله، أن الله لا يتجلى في صورة واحدة لشخصين، ولا في صورة واحدة لأحد مرتين، وقد ثبت أنه متجلٍ على الدوام، فلابد من اختلاف الصور، ولابد من اختلاف الآثار على المتجلى له، والكل متجلي له، وكل من لا يشعر هذه الزيادة من نفسه، ولا من رؤيته الأشياء الخارجة عنه؛ فليس بعارف، ولا إنسان كامل، ولا هو ممن علم الأمر على ما هو عليه، وإذا كان هذا على ما ذكرناه، فالفائدة وزيادة العلم متحققة بلا شك في كل رؤية.

وأما قوله: (وشفاءً لصدره) فإن الشيخ عين القرآن، ومعنى عين القرآن: أنه جامع لما أمره الله تعالى به من التخلق بالقرآن، كما قالت عائشة – رضي الله عنها وأبيها – عن رسول الله □ حين سُئلت عن أخلاقه؟ فقالت: كانت أخلاقه القرآن[1]، والله يقول في القرآن أنه ﴿شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]، فإذا صح إيمان المريد بالشيخ كانت رؤيته شفاء لما في صدره،

---

(١) رواه أحمد في مسنده رقم (٢٤٦٤٥) بلفظ عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ:أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**»،وأخرجه أيضًا بأرقام (٢٥٣٤١) (٢٥٨٥٥) عن يونس عن الحسن t ، ومسلم في صحيحه رقم (٧٤٦) كتاب: صلاة المسافرين باب: جامع صلاة الليل ولفظه والقول لسعد بن هشام t : أنبئيني عن خلق رسول الله □ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله □ كان القرآن» وبه أخرجه أيضًا النسائي في سننه رقم (١٦٠١) باب: قيام الليل، والطبراني في المعجم الأوسط عن أبي الدرداء t رقم (٧٢) (٣٠/١)،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صدره، وكان عندنا رجل بفاس يقال له: أبو العباس الخشاب، فجاء إليه إنسان بكتاب في الرقائق، فقال له: يا أبا العباس أريد أن أقرأ عليك هذا الكتاب، وتتكلم لي عليه؟ ثم جعل يقرأ والشيخ ساكت، فقال له: لما لا تتكلم لي عليه؟ فقال له الشيخ: اِقرأني، فقام من عنده، ودخل [إلي] [١] أبي مدين شيخنا، وذكر له ما جرى من الخشاب، فقال له: صدقك، ما كان يتضمن الكتاب؟ فقال: جميع أنواع الطريق، من زهد، ومجاهدة، وورع، ومعرفة وغير ذلك، فقال له أبو مدين: فهل كان [ثم] [٢] باب لم يكن حالاً للخشاب؟ فقال: لا، كل ذلك صفة الخشاب، فقال له: فقراءتك إياه بحاله أبلغ من الكتاب، قال: اِقرأني، فإذا لم تنتفع بحاله ونعته، كيف تنتفع بكلامه؟ فهذا من الشفاء لما في صدره.

وأما قوله: (وذهابًا لهمه) فإن المريد إذا انفرد بنفسه، ما يبعد أن يرد عليه الخواطر، ويتشتت أمره فيكثر همه فيما يفعل مما يخطر له، إذا كان بين يدي شيخه يذهب همه.

وأما قوله: (وسكونًا لنفسه) فيريد عما ذكرناه من تشتيت الخواطر، ويبقى مراقبًا للشيخ ليرى ما يأمره به، ويجمع همه عليه، فهذا ذهاب همه في انفراده بنفسه، عند عدم رؤية الشيخ، فإن النفس تُلقي إليه، والشيطان يُلقي إليه، والمَلك يلقي إليه، والحق يُلقي إليه، وبحضور الشيخ يزول عن باطنه، وينفى عن باطنه، ويبقى مصغيًا لما يأمره به شيخه، ولا يبقى له مشهود سوى صورة شيخه، لا يبقى عنده حديث نفس، ولا فكرة في شيء، فهذا معنى السكون، وهو ضد الحركة في الجهات المختلفة، بعدم رؤية الشيخ مما ذكرناه من تشتيت الخواطر، وهذا يجده كل إنسان من نفسه في الاجتماع مع الناس،

(١) في (ب): على.
(٢) سقط في (أ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخلوة بنفسه، فإن الشخص مع جليسه، ينفرد معه فيما يأتيه به جليسه، وإذا بقى وحده كثُرت عليه الأفكار في أمور مختلفة، هذا في العموم، فكيف حال المريد الذي لا يرى شيخه، إلا رؤية محبة واعتقاد.

ثم قال: (فإذا أمره الشيخ بأمر ظاهر، بادر إليه شاكرًا الله تعالى، كيف شرفه الشيخ بذلك) كيف، هنا بمعنى حيث، لقول الله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، والشيخ من أُولي الأمر، حيث وليته أمرك به، ودخلت تحت حكمه وطاعته، واعتقدت فيه أنه يخبر عن الله، وفي نفس الأمر عندنا إذا صدق المريد في التوجه إلى الله U، لا يطلب بتوجهه غير الله، لم يرمه الله إلا على شيخ محقق صادق اللهجة في دعواه، ثم إنه من صدق المريد، أنه إذا صدق في شيخ أنه مخبر عن الله، ولم يكن الشيخ بهذه المثابة، ولم يكن عند المريد تردد فيما اعتقده فيه، فإن الله تعالى يرزق ذلك الشيخ من التوفيق والعلم والنصح لما يحتاج إليه هذا المريد ما لم يكن عنده، ولا عرفه من نفسه، وبمجرد ما رأى هذا الأمر، أن هذا المتشيخ يحصل في قلبه نور التوفيق، تيقظ من نومة الغفلة، فينصلح في نفسه لربه، ولا يعلم أن ذلك من جانب المريد، وصدقه هذا بما هو موفق من عند الله، فينظر عن ذلك في إصلاح حاله مع الله، وبالعلم الذي يهبه الله الذي فيه صلاح هذا المريد الصادق، ينتفع به الشيخ في نفسه، ويفيده هذا المريد الصادق فإن تقوت يقظة هذا الشيخ يعلم أن بركة صدق هذا المريد عادت عليه فوفق بها، وأتاه الله به رحمة منه، وعلمه من لدنه علمًا.

وهذا مقام رأيته مشاهدة ممن ظهر بصور الشيخوخية بالأندلس، ولم يكن شيخًا حقيقة، واجتمعت به وهو مُعَظم عند الناس، وسألني في سؤال لا يقتضيه حاله، فوبخته أمام الحاضرين بجواب حق، وعَزّ ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الحاضرين، لما كانوا يرونه فيه من التعظيم، ثم بعد ذلك صدق فيه بعض خدمته من غير تردد، فوفق الشيخ واعترف بنفسه وتزوره الذي كان عليه في حال دعواه، وصرح في البلاد بالاعتراف، ورجع عن تلك الحالة التي كان عليها، وصار من عباد الله المصطفين، وكان ذلك ببركة صدق مريد صدق في اعتقاده فيه.

وقد شرع لله الحكمين، وأمر الزوجين، أن يدخلا تحت حكمهما، ومن ولى على نفسه شخصًا لزمه الدخول تحت أمره، إذا أمر بما فيه قربة، معلومة في الشرع المطهر إلى الله، أو بمباح للمأمور فعله، فيرجع أمر هذا الشيخ واجبًا، فيحصل للتلميذ أجر من أدى واجبًا، [ومنزلة] (١) ***الذي له من الحق، فإن منزل أداء الواجبات من الحق، غير منزل النوافل، وبما في النوافل من الواجبات، تكون النوافل ذات أرواح علية عند الله، فإنه تقرب في نافلة بما فيها من الواجبات بأحب ما لله، فإنه يقول في الخبر الصحيح الإلهي «ما تقرب المقربون بأحب إلى من أداء ما افترضت عليهم»*** (٢)***، فيدخل في هذا الخبر، الفرائض المطلقة، والفرائض التي يتضمنها النوافل، ونتيجة الفرائض المعلومة عندنا بالذوق، ونتيجة النوافل المعلومة عندنا ذوقا وسمعًا، فإن الشرع نص على نتيجة النوافل، ولم ينص على نتيجة الفرائض، إلا بقوله «أحب إلي» فجعل ذلك الحب فوق ما تنتجه النوافل من الحب الإلهي، وذكر في الحب الإلهي الذي تعطيه النوافل، أنه أعضاء عبده وقواه،***

---

(١) في (ب): ومنزله.

(٢) له شاهد من السنة ما أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» كتاب الرقاق، باب: التواضع رقم (٦١٣٧) (٥/٢٣٨٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عند قيام أحكامها بها هويته تعالى، ولم يذكر في حب الفريضة الذي هو أحب إليه من النافلة، ما ينتجه حب الفريضة فما يُعلم إلا ذوقا، وهو من الأسرار المكتمة، فإن الإنسان في أداء الفريضة عبد اضطرار، وفي النافلة عبد اختيار، [والعارف تعطيه معرفته أنه لا يتقيد في عبوديته باضطرار ولا اختيار] (١) بل هو عبد مطلق لله، لا يخطر في عبوديته اضطرار، ولا اختيار.

فإذا أمر الشيخ المريد بأمر، يشكر المريد الله تعالى على ذلك، لأن أمره إياه تعريف من الشيخ لهذا المريد، وبشرى أنه قبله مكلفًا له بأمور، ثم إن الشيخ لا يخلو في أمره ذلك المريد، إما أن يشاهد نفسه آمرًا عليه بما حكمه المريد به على نفسه، فهو من تولية المريد، فينكسر عند هذا الخاطر في نفسه، فإنه غير مستقل في ولايته عليه، إذ ما وليه إلا بتوليته إياه، ما هي ولاية قهر.

وإن شاهد الشيخ نفسه مُولى من جهة الحق لا من جهة المريد، حيث قرن الله له هذه الولاية عليه، فإنه إذا أمره بعزة إلهية، فهذا هو المعبر عنه بنفوذ همة الشيخ في المريد في امتثال أمره فإن العزة لله هنا بلا شك، فإن شاهد الحال يشهد بذلك، وإذا قبل الشيخ تولية المريد له على نفسه، بتقرير الله كذلك، كان من ولاة الأمر، ووجبت طاعته، وكان هذا الشيخ مطالبًا عند الله في جميع ما يأمر به، من دخل تحت طاعته، غير أن الفرق بينه في الولاية وبين أولي الأمر من الملوك والسلاطين، أن أمر هذا الشيخ لما كان عن صدق المريد في توليته، لم يعص له أمرًا وكان رحمة في حقه مطلقة، ولما كانت ولاية الملوك عن قهر وخوف لذلك لم يمتثل العامة أمرهم بقلوبهم من القبول إلا فيما يَسُرها لا فيما يَسُؤها، وإن امتثلته في الصورة الظاهرة فإنها تمقته في

(١) سقط في (أ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نفسها على ذلك بخلاف المريد، وسبب ذلك في الملوك عدم العلم والإيمان الذي يلزم الرعايا استعماله، وهذا أمر خفي على أكثر الناس.

فليشكر الله الشيخ كما يشكر الله المريد، ولا يكون في شكره فارحًا، إلا إذا أمره بلسان حق، ووفى الميزان الموضوع له حقه فيه، فحينئذ يفرح بأمر أتاه من حيث الوفاء بالميزان لا من حيث أنه أمر، والمريد يفرح بأمر شيخه إن كان مشهوده عناية الشيخ به،وأن قبلَه، فإن كان مشهوده الذي أوجب له الفرح، كون الشيخ قبل توليته إياه، فتلك رعونة نفس، وفرح طبع، فعن قريب يعود فرحه حزنًا عليه، فقد انقسم فرح المريد، كما انقسم فرح الشيخ، ويتعين على الشيخ إذا علم أن فرحه وشكره لله تعالى، لكون الشيخ قبل توليته، وأن له بذلك يدًا عليه، حيث أعطاه بتوليته منصب الآمر، فإن الشيخ لا يأمره، ويتعين عليه إهماله، والإعراض عنه حتى يعرف نفسه ويفتقر، ويعرف قدر الشيخ أنه فوق قدره وكذلك الله، فإذا علم منه هذا التوجه وصدق فيه، فعند ذلك يأمره وينهاه.

ثم قال (ويجتهد أنه لا يرجع إلى الشيخ، إلا إذا انقضى ذلك الأمر، ولا يرجع سريعًا، ويعتذر إلى الشيخ، فإن [تيسر] [١] ذلك الأمر رجع إلى الشيخ متأدبًا) يقول: لا يرجع سريعًا قبل قضاء ذلك الأمر، فإذا انقضى سريعًا، رجع إلى الشيخ سريعًا، فإن همته كلها متعلقة بما رُسِمَ [له] [٢] أن يقضيه.

وقوله: (ويعتذر)، فاعلم أن العذر ساقط في أهل طريق الله جملة واحدة، فإن العذر دليل قاطع على سوء الظن بمن يعتذر إليه، وسوء الظن حرام على المريد، وعلى كل من ادعى أنه من أهل الطريق، فهم

(١) في (ب): تعسر.

(٢) في (ب): الشيخ له.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقبلون [العذر] (١) من الأجانب، ولا يعتذرون، ولا يقبلون اعتذار بعضهم لبعض أصلاً، وإن تحقق أحد من أهل طريق الله في أحد، أنه ينتفع في دينه بالاعتذار إليه، ويزيل به ما كان في نفسه، مما يؤدي إلى القدح في إيمانه، يجب عند ذلك عليه، أن يعتذر إليه تربية له وعناية، حتى يزول عنه ما يقدح في إيمانه، فإن علم منه أنه يقبل عذره في الظاهر والباطن على خبثه، فلا يعتذر أصلاً بوجه من الوجوه.

ثم قال (فإن أمره ثانية امتثل) أي: يكون في ذلك كما كان في الأمر الأول، ولو أمره ألف مرة، أو طول عمره، لا يزال يسارع إلى امتثال أوامره على التتالي، من غير ضجر ولا مجاهدة، بل يرى ذلك من اعتناء الله تعالى به، حيث جعل له الله تعالى هذه المنزلة في قلب الشيخ، وإن أمر الشيخ للمريد ليس عن حاجة إليه فيما أمره به، وإنما ذلك تربية له ومصلحة يراها الشيخ في حقه، فإن كَره ذلك المريد [فليعمل] (٢) ويمتثل أمره على كُره، ويكون صاحب مجاهدة، فإنه إذا عمل ما أمره به الشيخ على مجاهدة، انفتح له السبيل إلى الله تعالى، فيسلك عند ذلك عليه، فإن سبيل الله يزيد بالذوق، [فمن لم يجد باللذة، يعلم أنه] (٣) ما هو في سبيل الله المطلوب في الطريق، فإذا وجد تلذذًا في الطاعة، وامتثال الشيخ من أكبر الطاعات، والالتذاذ بما يكون من الناس في حق هذا المريد، فيما جرت العادة أن تكرهه النفوس طبعًا، ويذم عُرفًا، إلا أن هذا المريد يلتذ به، فيعلم أنه في سبيل الله الخاص، وهو قول إبراهيم بن أدهم(٤) في الإنسان: لا يكون في الطريق حتى

---

(١) في (ب): المعاذير.

(٢) في (ب): فليعمله.

(٣) في (ب): فما لم يجد باللذة يسلم أنه.

(٤) هو أمير الزهاد: أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور، من كورة بلخ، وقال: ما صدق الله عبدًا أحب الشهرة. وقد قيل: إن التصوف، التكرم والتظرف، والتنسم والتنطف، وكان يقول: من علامة العارف بالله تعالى أن يكون كبير =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يستوي عنده الحمد والذم. وهو أول باب من أبواب المعرفة بالله، وهو أمر هين جدًا تحصيله.

وما رأيت من المشايخ الذي لقيت ممن تحقق بـه جـدًا، إلا أبـا إسحاق بن ظريف، بالجزيرة الخضراء، غير ذلك ما رأيته مع الصحو، وأما مع السُكر المسمى جنونًا، فرأيت جماعة لا يبالون بالـذم، وهـذا الرجل صاحب هذه الروحانية، الذي كان يمد الناطق بهـذه الوصـية، يوسف بن إبراهيم وهو علي الكردي، [فما رأيت] (١) على هذا القدم مع كونه كبير القدر، فإني حضرت له مجلسًا، ووقع مثل هذا من شـخص معه، فتغير عليه تغيرًا كليًا، حتى قال له: لولا حرمة هذا القاعد، أريتك ما يسؤك، وقام وانصرف مجاهدًا لنفسه، فيما أحرجه فيه ذلك الإنسان، فإن الله تعالى يقول في هذا المقام: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْـدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فلا تتضح السبل إلا مع هذه المجاهدة، فأبان أن السبل إلى الله [الخاصة] (٢) ما اهتدى إليها صاحب الجهاد، إلا بعـد الجهاد في الله حق جهاده، ولا يجاهد في الله حق جهاده إلا المهتـدى المجتبى.

=

الهمَّة، كثير العبادة، وأكثر كلامه الثناء والرحمة على خلق الله تعالى.

وكان يقول: اطلبوا العلم للعمل، فإن أكثر الناس قد غلطوا حتى صار علمهم كالجبال، وعملهم كالذر.

وقال له رجلٌ: أوصني، قال: اتخذ الله صاحبًا، وذر الناس جانبًا t .

مات بالجزيرة سنة اثنتين وستين ومائة، وحمل فدفن بصور.من أكثر العباد أخبارًا وأثارًا، [انظـر ترجمتـه، الحليـة (٣٦٧/٧)، الرسالة القشيرية (٣٥/١)، الكواكب الدرية رقم (٤٠)، المختار (٢١٢/١)]، وغيرها، وكتاب (الدر اليتيم في مناقب السلطان إبراهيم) [مخ، بدار الكتب] .

(١) في (ب): فيما رأيته.

(٢) سقط في (أ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسبب ذلك حضوره مع بشريته، كما قال u : «إنما أنا بشر مثلكم، أغضب كما يغضب البشر، وأرضى كما يرضى البشر، اللهم من دعوت عليه – يعني عند غضب البشرية – فاجعل ذلك الدعاء عليه مغفرة ورضوانًا»(١)، فأجابه الحق بهذا الأمر الكلي، فكان دعاؤه بالشر خيرًا للمدعو عليه، فانظر ما كان أعرفه بالأمور، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وأي حجاب أعظم من حجاب بشريته، فإذا أخذ الشخص عن بشريته، كلمه الحق اختصاصًا الكلام المطلوب لأهل الله، ولهذا أخبر الله تعالى في القرآن الآمر بذلك لنبيه عليه الصلاة والسلام، فأمره في غير ما موضع أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، هذا لتقويم الحجة على من يتخذه ربًا، كما اتخذ النصارى المسيح، فيقول لهم: قد قلت لكم غير مرة ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ ، ولا يقال له يوم القيامة، كما يقال لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقد قال الله تعالى في حق سيدنا محمد □ فيما أنزل عليه ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ

(١) رواه مسلم في صحيحه رقم (٢٦٠٣) بلفظ عن أَنَسُ بْنُ مَالِك t قَالَ:كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَتِيمَةَ فَقَالَ: آنْتِ هِيَهْ لَقَدْ كَبِرْتِ لَا كَبِرَ سِنُّكِ، فَرَجَعَتْ الْيَتِيمَةُ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِي فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: مَا لَكِ يَا بُنَيَّةُ؟ قَالَتْ الْجَارِيَةُ: دَعَا عَلَيَّ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا يَكْبَرَ سِنِّي، فَالْآنَ لَا يَكْبَرُ سِنِّي أَبَدًا أَوْ قَالَتْ قَرْنِي، فَخَرَجَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا حَتَّى لَقِيَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا لَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَدَعَوْتَ عَلَى يَتِيمَتِي؟ قَالَ: وَمَا ذَاكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟ قَالَتْ: زَعَمَتْ أَنَّكَ دَعَوْتَ أَنْ لَا يَكْبَرَ سِنُّهَا وَلَا يَكْبَرَ قَرْنُهَا، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: «**يَا أُمَّ سُلَيْمٍ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» كتاب: البر والصلة باب: باب من لعنه النبي □ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك كان له زكاة، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٨٤٤) (٥/٤٥٤) حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة t ، ورقم (٢٤٣٠٤) (٦/٥٢)، وفي مجمع الزوائد (١/١١٢) وقال: رجاله ثقات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شيئًا﴾ فربما قالوا، وكذلك نفعل. أنت هو الله؟ فتمم وأوضح فقال: ﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فشرك نفسه معهم، ليكون له الحجة على من اتخذه إلهًا من دون الله، وقد بلّغ ما أنزل إليه من ربه ولا يسأل يوم القيامة عن مثل هذا.

فينبغي للمريد أن يمتثل أمر شيخه في المنشط والمكره، ملتذًا في المنشط، وصاحب جهاد [لنفسه] (١) في المكره، فإن الله تعالى يقول ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [الرعد: ١٥]، فجعل السجود له كرهًا أي: تمجه نفس الساجد، ومع هذا فالله يقبله، إلا أن يهديه الله [السبل، حتى] (٢) يجد عند شهودها اللذة بأمر الله، والشيخ نائب الله في حقه، وصورته مع الشيخ صورة المكلفين مع الله، فلا يجزع المريد في كراهيته أمر الشيخ، بل يمتثل مجاهدة إن لم يكن صاحب التذاذ.

لذلك قال : (وإن رأى هذا المريد الشيخ يعمل أمرًا من الأمور، يقصد أن يعمل هذا المريد ذلك الأمر معه تأسيًا بهذا الشيخ، فليكن ذلك التأسي بحضور الشيخ، فإن نهاه انتهى)، يريد بهذا الكلام، وإن لم يحرر العبارة، بأن الشيخ إذا فعل أمرًا ما من الأمور، ولم يأمر المريد بفعل ذلك الأمر أو بمساعدته له فيه، وأراد المريد أن يفعله تأسيًا بشيخه، فلابد أن يكون بحضوره حتى يرى المريد هل ذلك العمل مما يخص الشيخ فينهاه عنه، أو هو مما يعم، ولا سبيل أن يعمل ذلك الأمر بغير حضور الشيخ، هذا هو الطريق الذي أتممناه، حتى لا يُترك منه شيئًا، فإن هذا الموصي ما قصد بكلامه هذا، إلا مساعدة الشيخ فيما

---

(١) سقط في (أ).

(٢) في (ب): السبيل التي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تصرف فيه خاصة، فإنه قال وقصد أن يفعل ذلك معه، ومع هذه تقتضي المصاحبة، [فجرت] (١) ***العبارة في الترجمة عند المستوفي الأمر كما هو، ولذلك أتمم الشيخ في وصيته فقال:***

ثم قال: (ثم يعرض نفسه لذلك العمل، فإن أشار إليه الشيخ بالعمل فيعمل، وإن نهاه انتهى)

فاعلم أن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومع هذا فقد علمنا أنه اختص بأمور، لو فعلناها نحن لفعله إياها وتأسيًا به، كنا عُصاة، مثل نكاح الهبة، فإن ذلك خالصًا له من دون المؤمنين، ولهذا يتعين على الرسول أن يبين للناس، لأن الله تعالى قد أقامه في مقام الاقتداء به، فإن لم يعين ويبين ما اختص به، وإلا كانت مهداته ضلالة، فيبادر لكل فعل فعله □ لقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

فإن نهى عن شيء مما كان يفعله، وقضى عند نهيه كذلك، فلتكن في خدمة الشيخ، فقد علمنا أنه لا يأمرنا إلا بما فيه المصلحة لنا، وكذلك نهيه، فإذا رأيناه يفعل فعلاً نتعرض إليه فيه بإيماء وإشارة، فإن سكت فعلنا، فإن سكوته علامة على رضاه عنا في ذلك الفعل، وإن رأى أنه لا يصلح نهانا فانتهينا، قال u : «خذوا عني مناسككم» (٢)***، وقال:***

---

(١) في (ب): فحررت.

(٢) رواه مسلم في صحيحه رقم (١٢٩٧) أخبرني أبو الزبير t أنه سمع جابرًا t يقول: رأيت □ يرمى على راحلته يوم النحر ويقول: «**لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**» كتاب: الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا وبيان قوله: □ لتأخذوا مناسككم، وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى رقم (٩٣٠٧) بنحوه عن جابر t قال: أفاض رسول الله □ وعليه السكينة وأمرهم بالسكينة وأوضع في وادي محسر وأمرهم أن يرموا الجمار مثل حصى الخذف وقال: «**خذوا عني مناسككم لعلي لا أراكم بعد عامي هذا**» باب: الإيضاع في وادي محسر (٥/١٢٥)،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[١]، ونهى عن الوصال وكان يواصل، وهذا نهي إشفاق لا نهي كراهة ولا تحريم، فإنه واصل بهم، ثم بين بماذا امتاز في وصاله عن تلك الجماعة الحاضرين، وإنما قلنا الجماعة الحاضرين، فإني واصلت، ومطعم أطعمني في وصالي، وساق أسقاني، فأصبحت شبعانًا ريانًا، من الطعام الذي طعمته في الرؤيا، فلذلك علمت أن النبي ﷺ ما أراد بقوله: «لست كهيئتكم»[٢] إلا تلك الجماعة الحاضرة، فلو أراد الأمة ما رأيت أنا هذه الحالة، ولا وجدتها، فقد وجدتها، فدل عندي على ما قلناه.

ولما كان رسول الله ﷺ معصومًا في أفعاله، أمرنا الحق أن نتأسى به، وقال الحق في علماء هذه الأمة إذا لم تدروا ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وما قال اقتدوا بهم، وذلك لأنهم غير معصومين، فإن العصمة بعد الرسل مجهولة في الاسم، وإن كان الله قد عصم في نفس الأمر بعض عباده من الأمة، ولكن ما عين لنا من هو، كما عين الرسل، فإذا تحقق المريد أن الشيخ لا يتصرف في حركة ولا سكون، إلا عن أمر إلهي، فله التأسي به، حتى ينهاه عنه الشيخ، ولذلك لا يجوز للمريد أن يفعل شيئًا من أفعال الشيخ إلا بحضوره، ولا يفعل ذلك لأنه تعرض في نفسه للفعل، ولكن إذا رأى الشيخ يفعل ولم ير للشيخ فعلاً، فليس له أن يتحرك بعمل إلا بأمر شيخه، ولذلك قال هذا الشيخ في تمام وصيته هذه:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أبي قلابة t رقم (٦٠٥) كتاب: الآذان، باب: الآذان للمسافر ، ورقم (٥٦٦٢)، ورقم (٦٨١٩)، والبيهقي في سننه الكبرى في حديث مالك بن الحويرث t رقم (٣٦٧٢) ورقم (٥٠٧٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رقم (١٨٢٢) كتاب: الصوم، باب: بركة السحور، ورقم (١٨٦٢) باب: الوصال، ورواه مسلم في صحيحه رقم (١١٠٢) كتاب: الصيام، باب: النهي عن الوصال، ورقم (١١٠٥) باب: النهي عن الوصال في الصوم، والإمام مالك في موطئه رقم (٦٦٧) كتاب: الصيام، باب: النهي عن الوصال في الصيام، والإمام أحمد في مسنده رقم (٦١٢٥) (١٢٨/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(ثم ينظر بعد ذلك في فعل الشيخ وحركاته وكلامه، فإن المشايخ كل حركاتهم وأفعالهم، وأحوالهم، إشارات لمن ينظر فيها، فإن كلامه مع الناس بأمر الدنيا، أخفى بحاله، وتطييب لقلب المتكلم معه)

اعلم أن هذا الذي قال: ما يكون إلا فيما يفعله الشيخ من الأفعال، بحضور الناس لا في الفعل، الذي ينفرد مع نفسه، فيتفق أنه يطلع عليه على غير علم من الشيخ، وليس لك أن تطلع على الشيخ، من غير أن تعلمه بحضورك، ولكن لا يقع مثل هذا من مريد، إلا من غير قصد، بل ينبغي للإنسان ألا يطلع على أحد من خلق الله تعالى مسارقة، فإن ذلك المختفي قد يكره أن يطلع عليه في ذلك العمل، وقد لا يكره، وما للإنسان والدخول في الأمر المحتمل [غرًا] (١).

ولقد اطلع بعض الناس من كوة على رسول الله ﷺ في بيته يسرح رأسه بمشط، فهم رسول الله ﷺ أن يفقأ عينه، وقال: «إِنَّمَا جُعِلَ الْإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ»(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ»(٣)، ومثل هذا فلا يقع من مؤمن، فأحرى من مريد مع شيخه، أو مع أحد من خلق الله، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

فإذا فعل الشيخ أمرًا من الأمور بحضور الناس، ولم يبين أن ذلك خاص به، فللمريد التأسي به أن يفعل فعله إن شاء، لكن بحضوره، فإن لم ينكر عليه، فترك النكير حجة له على من يعترض عليه، ومع هذا فهو سوء أدب من المريد، إلا أن يفهم من قرائن الأحوال، أن الشيخ ما

---

(١) في (ب): عَزَرُ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي t رقم (٥٨٨٧) كتاب: الاستئذان باب: الاستئذان من أجل البصر، ورواه مسلم في صحيحه واللفظ له رقم (٢١٥٦) كتاب: الآداب باب: تحريم النظر في بيت غيره، والطبراني في معجمه الأوسط رقم (٨٣٨٥) (١٩٦/٨).

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة t رقم (٢١٥٧) كتاب: الآداب باب: تحريم النظر في بيت غيره، وبنحوه للترمذي في سننه عن سهل بن سعد الساعدي t رقم (٢٧٠٩) كتاب: الاستئذان باب: من يتحقق في دار قوم بغير إذنهم، وقال: حديث حسن صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فعل ذلك إلا ليُتَأسى به فيه، فحينئذ يجب على المريد أن يبادر مبادرة لأمره لو أمره، وهذا كما يقال في المثل السائر (إياكِ أعني، فاسمعي يا جارة) وهذا مَثل الفأل الحسن، كما قال النبي ﷺ للرجل الذي جاء من المشركين في صلح الحديبية «ما اسمك؟ فقال الرجل: سهل، فقال: الأمن»[١]، وكان كذلك فانتظم الصلح على ما يُرضي الله، ولم يرض بذلك بعض الصحابة، فليس غرض المؤمن إلا فيما يرضي الله لا ما يرضيه.

وأما قوله: (فإن كلام الشيخ بأمر الدنيا إخفاءً بحاله) إنما قضى بذلك، لحاله مع الله تعالى المختصة به، فإن كلامه مع الناس، في أمر الدنيا المباح له الكلام فيه منها، إنما ذلك أيضًا من حاله مع الله في ذلك الموطن الخاص، فما ظهر إلا بحاله مع الله، الذي هو فيه إخفاء حال آخر له مع الله، لو لم يكن هذا الموطن، لظهر أظهر بغيره من أحواله مع الله، فالحكم للمواطن في الأشياء، كما قال u وقد رأى أبا دجانة يخطو، ويزهو بين الصفين، ويمشي الخيلاء، وبيده السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ وأخذه بحقه، فلما رآه رسول الله ﷺ يمشي به الخيلاء بين الصفين، قال ﷺ: «هذه مشية يبغضها الله ورسوله، إلا في هذا الموطن»[٢]، والحكم للمواطن أبدًا.

وأما قوله: (وتطييب لقلب المتكلم معه) هذا يحتاج إلى ميزان، فإن رسول الله ﷺ عُوتب في مثل هذا، فلا ينبغي أن يفعل الشيخ هذا، إلا وبيده ذلك الميزان الإلهي، فإن الله تعالى أدب رسول الله ﷺ فحسن أدبه، فلا أدب إلا أدب الله، وفي مثل هذا نزلت ﴿عَبَسَ﴾ [عبس: ١]، فإنه ﷺ قصد تطييب قلوب المؤلفة قلوبهم، حتى يسلموا، فعاتبه الله

---

(١)

(٢) الشوكاني في نيل الأوطار (٦٨/٨) باب: استحباب الخيلاء في الحرب،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على ذلك مع هذا القصد الجميل النبوي، فللشيخ أن ينظر في أحوال الجلساء، فمن كان أقرب إلى الله [ينص] (١) الله عليه، فليقصد تطييب ذلك القريب، فليعرض عمن دونه سياسة، وفي مثل هذا نزلت ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] الآية، فكان إذا جلسوا إليه لا يقوم حتى يكون هم الذين يقومون، وإذا وضع أحدهم يده في يد رسول الله لا يزيلها، حتى يكون ذلك الشخص هو الذي يزيل يده.

ولعمر بن الخطاب t حكاية معهم، إذ كان يشير إليهم إذا أطالوا الجلوس معه، أن يقوموا من غير أن يُعلِم بذلك رسول الله لعلمه بأنه لا يقوم حتى يقوموا، وكان إذا لقيهم يقول: «مرحبًا بمن عاتبني الله فيهم» (٢) ، لكن هذا الشيخ نظر ما نظر من قال: اصغ إلى

---

(١) في (ب): بيض.

(٢) قال الحافظ أبو نعيم t في "الحلية" - في ذكر بعض صفتهم -: هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا حال، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولا يفرحون إلا بما أُيدوا به من العقبى، كانت أفراحهم بمعبودهم ومليكهم، وأحزانهم على فوت الاغتنام من أوقاتهم وأورادهم، هم الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، و لم يأسوا على ما فاتهم، و لم يفرحوا بما أتاهم، حماهم مليكهم عن التمتع بالدنيا والتبسيط فيها لكيلا يبغوا ولا يطغوا، رفضوا الحزن على ما فات من ذهاب وشتات.

عن طلحة بن عمرو قال: كان الرجل إذا قدم على النبي وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة، قال: وكنت فيمن نزل الصفة فوافقت رجلاً وكان يجرى علينا من رسول الله كل يوم مُد من تمر بين رجلين.

عن أبي هريرة t قال: كان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحد منهم رداء.

عن الحسن t قال: جاء رسول الله إلى أهل الصفة فقال: «**كيف أصبحتم ؟**» ، قالوا: بخير، فقال رسول الله : «**أنتم اليوم خير، وإذا غدى على أحدكم بجفنة وراح بأخرى، وستر أحدكم بيته كما تستر الكعبة**» ، فقالوا: يا رسول الله نصيب ذلك ونحن على ديننا؟ قال: «**نعم**» ، قالوا: فنحن يومئذ خير نتصدق ونعتق، فقال رسول الله : «**لا بل أنتم اليوم خير، إنكم إذا أصبتموها تحاسدتم وتقاطعتم وتباغضتم**».

=

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كلام جليسك، وإن كان ما يأتي به نذرًا، فإن لكل أحد في نفسه قدرًا، وهذه كلمة حكمة جاءت النبوة بها، فقيدت ذلك بما عرفها الله به، والوقوف مع الأدب الإلهي أولى.

ثم قال (وإذا رأيت الشيخ يفعل فعلاً لم يظهر فيه وجه [التقريب][1] به إلى الله تعالى، فإياك أن ترد ذلك بقلبك، فإن الشيخ لا يفعل شيئًا إلا لله، ولكن خفي عليك ذلك، فتحفظ من هذا الرد، وتضرع إلى الشيخ في إزالة هذه الخواطر الردية، وتبديلها بالخواطر المحمودة، وكذلك في كل شيء تجده من مثل هذا).

يقول: إياك والاعتراض على شيخك، لا بظاهرك ولا بباطنك، فيما تعلم أنه لا يجوز، فكيف فيما تجهل، فلنقل ما جرى لنا في ذلك، وبعد هذا أرجع إلى كلام الشيخ في هذه الوصية، وذلك أني كنت في خدمة شيخ جليل القدر، عيسوي الورث، فقال لي مسألة أعلم أن الحق في خلافها، وذلك أن عين لي شخصًا كان رسول الله ﷺ قد ذكر ذلك الشخص، فقام الشخص وادعى أنه ذلك الشخص، وادعى فيه، ولم يكن هو، فقال الشيخ: إنه هو، فقلت له: يا سيدي ما هو، هو لم يكن غير ذلك، وخرجت من عنده والشيخ متغير عليّ، فما مشيت من عنده يسيرًا إلا ولقيني رجل في الطريق مستقبلاً، فقال لي: سلم إلى الشيخ ما قاله، ولا تعترض عليه، فرجعت من حيني إلى الشيخ مستغفرًا مما جرى، وقد سلمت نفسي إليه، ليعاقبني على ما بدا منى بما يراه، ولما دخلت

=

عن فضالة بن عبيد يقول: كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في صلاتهم لما بهم من الخصاصة، وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين.اهـ بتصرف، باب: ذكر أهل الصفة (١/٣٣٧). وقد أفرد السخاوي في ترجمتهم مؤلفًا أسماه: "**رجحان الكفة في بيان نبذة من أخبار أهل الصفة**"(ط).

(١) في (ب): التقرب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه ابتدأني، وقال لي: يا محمد من أين أقدر في كل وقت تنازعني في مسألة أن يأتيك الخضر، ويقول لك: سلم إلى الشيخ ما قاله، فرميت نفسي عليه، فلم يعاقبني، فلما كان بعد ذلك بمدة، ظهر للشيخ صدقي فيما قلته في تلك المسألة، ورجع عما كان يعتقده في ذلك الشخص، فأفادني الخضر التسليم لأهل الله، فقد ينطق الشيخ بما يُلقى إليه من عند الله، وقد ينطق بما يراه في نفسه، لا بما أراه الله، ويكفي في هذا الباب الحديث الصحيح في إبار النخل، ونهى النبي عن ذلك ورجوعه عنه، وقال: «أنتم أعلم بمصالح دنياكم» [(١)]، وأيضًا حديث أسارى بدر، وهو رسول الله ولا شك أن الشيخ ما قال لي أن الله أخبرني، فكان الأولى أن أسلم إليه مقالته ولا نعترض، وبعد [هذا] [(٢)] نقت هذا المقام من نفسي، واعترض عليّ في أمر نتحقق فيه الحق، لما كنت فيه على بينة من ربي.

ومعلوم أن الشيخ في هذا الطريق، وإن كان ليس بمعصوم، أي: الدليل ما يقوم على عصمته في حركاته، وعلى غير عصمته، فإنا لا ندري في نفس الأمر ما هو عند الله، هل هو ممن عصمه الله أم لا؟ وقد ذكرت لك أن أهل الله المخبرين عن الله قد يصدر عنهم مما هو مخالف، لما تقرر في المذاهب، لحديث ورد من طريق صحيحة بالنظر إلى أهل هذا الشأن، ويكون الشيخ قد أعلم في أخباره، أن ذلك الدليل ليس بشيء، وأن النبي ما ذكره ولا نطق به، فقد [أنبأني] [(٣)] ذلك

---

(١) رواه مسلم في صحيحه رقم (٢٣٦٣) بلفظ عَنْ أَنَسٍ t أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ**» قَالَ فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ مَا لِنَخْلِكُمْ قَالُوا قُلْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**» كتاب: الفضائل باب: وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي، والهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٧٩) باب: الإجتهاد وقال: رجاله موثقون.

(٢) في (ب): ذلك.

(٣) في (ب): انبئ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحكم عند الفقهاء على دليل واهٍ ساقط، تبين سقوطه عند هذا الشيخ من طريقه المعتادة فيما يخبر به، فربما بل يقطع على الأجانب أنهم يقولون بتخطئة هذا المخالف، ومخالفته أمر الله تعالى، وأنه في هذه المسألة على غير الشرع وهو في نفس الأمر على الشرع المطهر، وأن العلم عنده وعند الفقهاء غلبة ظن لا علم بذلك، فإن الشيخ ما يدعو إلى الله إلا على بصيرة، لاتباعه الصحيح أوامر الشرع ابتداءً، حتى كان من أهل الاختصاص، وقد شهد الرسول لمثل هذا بذلك وأخبرنا الله به فقال:إنما ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، فقال: إنه بالاتباع يكون الإنسان على بصيرة من أمره.

ولا ينبغي لشخص أن يخدم شيخًا على الشك فيما يدعو إليه، ولا يخدمه على انه معصوم أيضًا، ولا ينبغي له أن يقتدي بأفعال الشيخ في نفسه، إلا أن يأمره الشيخ بذلك، ولا يقتدي بما يراه قد أمر به غيره، وربما ذلك الأمر لا يصلح هذا الشخص، فلهذا سكت عنه، فإن الشيخ غير متهم في نصح العامة، فكيف في نصح مريد التربية، وإياك أن يخطر لك في باطنك اعتراض بوجه، ولو رأيته يفعل ما يفعل، ورأى تلميذ شيخه قد جاء إليه شخص بكأس فيه خمر، فناوله إياه، فشرب منه، والتلميذ يتحقق أنه خمر معاينة، فشرب الشيخ بعضه، ثم ناوله التلميذ، فلما شربه التلميذ رأى شرابًا أحلى من العسل، فقال التلميذ: التوبة التوبة مما خطر لي، فتبسم الشيخ، وقد عاينا بأنفسنا من هذا كثيرًا، ولقد جئت لماء ملح لا يشرب جملة واحدة، فسقاني بيده منه شخص كنت أصحبه، ثلاث غرفات وأكثر، حتى رويت، وكنت أنا إذا تناولت منه بيدي لا أقدر على تجرعه لمرارته، والماء هو الماء عينه.

وهذه مسألة خاصة لا يعرفها إلا عالم متبحر، أعني: تغير الطعام في الطعم، والشراب، والنكاح في الصورة، حتى يرى الرائي بعينه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صورة لا يشك أنها فلان معين عنده، وليس إلا روح تجسد كجبريل في صورة دحية، فما شك الصحابة أنه دحية وهو جبريل، وقد رأيت مثل هذا، فتحفظ من هذا الباب، وسلم الأمر إلى صاحبه، واشتغل بما يأمرك به لا بما تراه يفعله، فإن ذلك تضييع لوقت المريد، فإنه لا يمضي عليه زمان لا يكون فيه تحت أمر من الشيخ جملة واحدة، فليُشغِل نفسه بما أمره به الشيخ حتى ينقله عنه.

واحذر أن يخطر لك خاطر رديء في أحد من خلق الله، كان ذلك الخلق من كان ممن أحسن أو أساء، فإن النبي ﷺ يقول: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[1]، والعاقل لا يتفرغ إلى غيره حتى يتفرغ عن نفسه، ولا يتفرغ عن نفسه أبدًا، فإنه مراقب لنفسه ما يحدث الله فيها في كل نفس، مستقل مشتغل بما ألقى الله إليه في وقته فيها من الخير، هذا حظ المؤمن، فكيف حظ المختص في الإيمان بالإتباع؟.

---

(١) سبق تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان الشيخ إبراهيم بن طريف [١] يقول لي: يا ولدي ما أرى في العالم إلا وليًا لله تعالى بالنظر إليّ، فإنه لا يخلو من يعرفني أن يكون

(١) هو الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن طريف شيخ الشيخ العارف ابن عربي **y** كان عظيم المقدار، رفيع المنار مقصودًا من جميع الأقطار.

ومن كلامه: الشيخ لا ينسى من يعرفه، وإن كان الشيخ لا يعرفه فليسأل الله تعالى أو يعفو ويغفر عمّن سمع بذكره فسبه وذمه أوأثنى عليه خيرًا.

قال العارف ابن عربي **t** : وهذا ذقته في نفسي وأعطانيه ربي **U** بحمده، ووعدني بالشفاعة فيمن أدركه بصري ممن أعرف وغيره.

قال: وهذا مذهب شيخنا أبي إسحاق **t** وهو من أكبر من لقيته، وقد سمعته يقول- وأنا عنده بمنزلة الجزيرة الخضراء سنة تسع وثمانين وخمسمائة -: يا أخي، الناس اثنان: ذام ومثن، والله ما أرى الناس في حقي إلا الأولياء عن آخرهم ممن يعرفني، قلت له: كيف؟ قال: الناس الذين رأوني أوسمعوا بي إما أن يقولوا في حقي خيرًا أوضده، فمن قال في خيرًا فما وصفني إلا بصفته، فلولا ما هو أهل لتلك الصفة ما وصفني بها، فهذا عندي عن الأولياء، ومن قال فيَّ شرا فهو عندي ولي أطلعه الله على حالي، فإنه صاحب فراسة وكشف ناظر بنور الله فهو عندي ولي.

قال: وكان هذا الشيخ من الشيوخ الذين تحسب عليهم أنفاسهم ويعاقبون على غفلاتهم.

مات في عقوبة غفلة غفلها.

ومن كلامه: قد يمنع الله العبد من العمل احتبارًا له لينظر حاله عند الفقد لذلك في تضرعه وافتقاره وغفلته واستغنائه.

وقال: إن الله تعالى يعيد من بركات الحركات الظواهر على البواطن ما يكون سببًا في تنويرها وصلاحها حتى إذا صفت السرائر وتخلصت من شوائب الكدورات عادت بالصلاح على أعمال الظواهر، فزكّت الأعمال وارتفعت الأحوال بطهارة أصولها وثبات أساسها.

وقال: رؤية الفعل والمنة في العمل، وإن قل أتم في حق واجب الربوبية من رؤية التقصير عن المقام بحق العبودية.

وقال: إذا خدم المريد المشايخ والأحوال بالأدب عادت عليه من بركات أحوالهم ما لم يكن يبلغه بعمل، لأن ما يرد عليه منهم ثواب أعمالهم المتقبلة، وما يرد عليه منه هو ثواب عمله ولا يقدر على تخليصه. [انظر ترجمته الكواكب الدرية رقم (٤٠٣) روض الرياحين (٨٤)، جامع الكرامات (٢٣٦/١)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حامدًا لما أنا عليه، أو ذامًا، فإن حمدني أقول: هذا ولي، ما رآني إلا بصورة ما هو عليه، فالحمد لله الذي أراني وليًا من أوليائه، وإن ذمني أقول: هذا رجل قد كشف الله له عن عيبي، ولا يُكاشف إلا ولي، وهذا رجل يشتمني بما ينسب لي، ومُذكر لي حتى أتحفظ من هذه الصفة، فما ينصح عباد الله إلا ولي لله. هذا كان اعتقاده – رحمه الله – في الخلق كلهم، فهكذا فليكن المريد مع الناس فكيف مع شيخه؟.

ثم قال: (وأكثر النظر إلى وجه الشيخ، وإلى أفعاله، ومهما كان مقبلاً عليك بوجهه، فلا تعرض عنه أصلاً) هذا إذا كنت عنده حاضرًا بين يديه، فلتكن بهذه الصفة، ولكن تمام ما أوصاك به في هذا، أن يكون في [نظرك] [(١)] ترحم بفتور، لا بمجرد النظر فيه، فإن ذلك نظر البغيض، والمحب في نظره ترحم، وربما تدمع عينه عند نظره لمن هو عظيم عنده، وقد شاهدنا ذلك من مريدين كنا نربيهم، فنعرفهم في نظرهم إلى وجوهنا، ولا يكن في نظرك جمود عندما تنظر في وجه الشيخ، فإنه ينبيء عن بلادة وعن عداوة خفية، لا يشعر بها صاحبها، حتى تقع منه في المستأنف، ولا ينبغي للشيخ أن يثق بمن يكون نظره في وجهه بهذه المثابة، وليحفظ الشيخ نفسه من مثل هذا، ويتعمل في طرده عنه، والغالب على من يكون نظره في شيخه باحتداد، وجمود الملل، لا يثبت عنده ولا يبرح، يخطر له فيه خواطر ردية، وأكثر ما يعامله صاحب هذه النظرة بالنفاق، ولا يشكر كل أحواله، فإذا علم هذا من نفسه، فلا يقعد عند هذا الشيخ، فإنه لا ينتفع به ما لم تقم الحرمة عنده فيه.

ثم قال: (وقدر في نفسك الهيبة من الشيخ) هذا إن قدر على ذلك، فإنه قليل ما يحصل هذا في القلب إلا بوهب من الله وعناية منه، وإما

---

(١) في (ب): بصرك نظر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالتقدير، فقليل أن يثبت مثل هذا في القلب، فإنه من جعله ولا يثبت إلا ما هو من جعل الله، فإن المريد أعمى في حق [الشيخ] (١)، لا يرى معه سواه ولا يتجلى الله له إلا في صورته، فإذا كان بهذه المثابة حينئذ ينتفع به.

ذكر القشيري - رحمه الله - في رسالته: أن بعض التلامذة سقطت حرمة الشيخ من قلبه، فأمره بالاعتزال عنه مادام هذا الأمر في نفسه، فانعزل، فلما عادت حرمته عنده كما كانت، عاد إليه، فانتفع به(٢).

ولله نساء ورجال جبلهم على الخير المحض، فلا يرون أحدًا إلا ويحسنون الظن به، بل ما يخطر لهم فيه خاطر رديء، وهذه قلوب قد [حباها] (٣) الله للخير المحض، فهم ينتفعون بكل أحد، فمن وجد ذلك من نفسه فليشكر الله على ما منحه، ثم قال بعد قوله: (وقدر في نفسك الهيبة من الشيخ).

قال: (والخوف منه إنه المتحكم في موتك وحياتك، وإيجادك وإعدامك، بإذن الله تعالى سبحانه).

أما قوله: (الخوف منه) لئلا ينظر فيك نظرة مقت، ولا تفلح أبدًا، وأما قوله: (إنه المتحكم في موتك وحياتك) أي: المتحكم فيك في حال موتك وحياتك، أي: اعتقد فيه أن الله تعالى تجلى لك في صورته، كما قال الله تعالى في حق الرسول ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فإن كل مخبر إذا لم يخبر عن نفسه، وأخبر عن غيره، فإنه قد تجلى في صورة ذلك الغير من حيث ما أخبر به، وقد تجلى لك

---

(١) في (ب): شيخه.

(٢)

(٣) في (ب): حبأها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك الغير في صورته، من حيث أنه المترجم عنه، فهو القائل لا هذه المشافهة بالخبر، فمن مات وهو تحت حكم شيخ، فإن الله لا يتجلى له في القيامة إلا في صورة ذلك الشيخ، هذا تحقق عندنا ذوقا، ورأيناه من نفوسنا مع الحق، فإن اعتقاد المريد فيه أنه تجلٍ إلهي، كما يعتقد أن الله هو القائل على لسان عبده المصلي «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» [(١)]، بالخبر الصحيح إذا حصل الكشف، وهذه مسألة كبيرة مفيدة لمن عرف، ومن هنا [يُعرف] [(٢)] مرتبة الرسل، ومن هو المشرع للناس.

وقد نبه ابن قسي في باب الرؤيا الإلهية يوم القيامة[(٣)]: أنه يرى رؤية محمدية، وصورة محمدية - يعني في هذه الأمة - وهو أكمل

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك t رقم (٦٥٧) كتاب: الجماعة والإمامة، باب: إنما جعل الإمام ليؤتم به، ورواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة t رقم (٤٠٤) كتاب: الصلاة، باب: التسميع والتحميد والتأمين، ومن طريق آخر عن مالك بن الحويرث t رقم(٣٩١) كتاب: الصلاة باب: استحباب رفع اليدين حذو المنكبين، والحاكم في المستدرك عن أبي سعيد الخدري t رقم (٧٧٩) (١/٣٥٥) باب: فضل الصلوات الخمس وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٢) سقط في (أ).

(٣) هو الإمام أحمد بن الحسين أبو القاسم المعروف بابن قسي بفتح القاف وخفة السين المغربي، صاحب "خلع النعلين"، عارف أشرق نور كماله، وأرق غصن جماله، كان مقيمًا بألمرية ثم ارتحل إلى شلب فقطنها وابتني بإحدى قراها مسجدًا، وانتشر صيته وكثر أتباعه وحاسدوه وقالوا: هو فلسفي التصوف، وأراد الثورة على ملك المغرب عبد المؤمن فظفر به وسجنه ثم أطلقه، وقد تفرقت الناس في شأنه شيعًا -كما وقع للعارف ابن عربي t ونحوه - والمذهب واحد والطريقة واحدة. وتبعه كثير من أعيان المغرب وارتحل إليه من الأقطار ما لا يحصى، ولم يزل أمره في ازدياد حتى اتفق أرباب الدولة على قتله فقتل، وذلك بعد الأربعين وخمسمائة.

ومن مشاهير كتبه كتاب "خلع النعلين" شرحه العارف ابن عربي t فأتى بالعجائب بين أسرار الكتاب ما لم يكن للناظرين فيه حساب. [انظر ترجمته الكواكب الدرية رقم (٤٠٨)، الوافي (٧/٢٩٧)، جامع الكرامات (١/٢٩٣)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صورة [خلقته] (١)، يتجلى فيها، فهذا معنى ما قاله هذا الشيخ في تحكم الشيخ في موتك وحياتك، ولم يقل: إماتتك ولا في حياتك.

ثم قال: (وإيجادك وإعدامك) أي: في إيجادك ما تجده، وفي إعدامك ما تعدمه، من حيث أن الشيخ ظاهر بأسماء الله، ومن أسماء الله U الضار النافع، وإذا أوجد الشيخ في المريد أمرًا، فإنه لا يوجد إلا خيرًا، فهو الاسم النافع، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩]، وإذا أعدمك صفة تقوم بك تؤدي إلى إهلاكك، وقد أعدمك الشر، إلا أن يصدر منك ما يوجب أن يسلب عنك ما كنت عليه من الخير، كما يفعل بعض الشيوخ في سلب أحوال المريد، لمنفعة يراها لما رآه الشيخ من زهوه بتلك المشيخة، فيسلبه تلك الحالة في الدنيا، ويحفظها له في الآخرة، فيعود بها عليه، وقد جرى هذا للشيخ أزدشير - رحمه الله - في حق مريد كان له، ذكر ذلك [إلى] (٢) عبد الله بدر، عن شيخه وصاحبه مكي الواسطي، وكان من الأكابر من أهل الإلقاء واللقاء t.

وأما قوله: (بإذن الله تعالى له في ذلك كله) فذلك من تأدبه، حيث أحيا الله تعالى عيسى u في ذكر امتنانه عليهم، قال: ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ .... إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ فذكر خلق الطير، وإحياء الموتى، ونفخ الروح، وإبراء الأكمه والأبرص، وقال: كل ذلك ﴿بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وفي آية أخرى: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فهذا من أدبه في وصيته.

ثم قال: (فإن رأيت الشيخ يأمر غيرك بفعل كنت تفعله بين يديه، أو يقول الشيخ شيئًا، فيرده عليه غيره ممن حضر عندهم، فيرجع إلى قوله أو يحضر عنده عاصٍ بمعصية، فينهاه عنها نهيًا لينًا، ويدعو له،

(١) في (ب): خلقية.
(٢) في (ب): لي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويرد ذلك عليه، ويقول: هذا بقضاء الله وقدره، فكل ذلك لحكمة، فتأدب بذلك، وتخلق بأخلاقه جهد الطاقة).

نقول: إن الشيخ قد يُقام في وقت يقتضي له أن يخاطب الجماعة في واحد، لأمر يقوم له في نفسه في خطابه لذلك الواحد، والمراد الجماعة كقضاء الأعيان، إذا أراد الشارع بذلك الأمة، فيكون حكمه على الواحد حكمه على الجميع، فيأمر الشيخ ذلك الغير، فافعل أنت ذلك الفعل المأمور به ذلك الغير بين يدي الشيخ، فإن كان أرادك به، فهو يسكت عنك فيه، وإن لم يردك به، فهو ينهاك عنه في ذلك الوقت أن تكون أنت في فعل من الأفعال، فرأيت الشيخ يأمر غيرك وهو ساكت عنك فيه، فلا تفعله أنت، واتركه على مشاهدة من الشيخ لك في تركه، فإن سكت عنك الشيخ، تعلم أن مراد الشيخ فيك ألا تفعل ذلك، وإن لم يسكت وأمرك أيضًا، أو خيرك فيه، فإن أمرك فابق على فعلك، وإن خيرك فلا تفعل، إلا إن رأيت المأمور به، الذي هو غيرك قد رد ذلك على الشيخ بكونه لم يفعل، وسكت الشيخ عنه فافعله أنت، ولا تغتر بسكوت الشيخ.

وأما إن خيرك وذلك الغير قد بادر لما أمره الشيخ فيفعله، فلا تفعل مع التخيير، وقبول ذلك الغير، فإن رأيت ذلك الغير المأمور بذلك الفعل يرد على الشيخ بما قاله، وأن المصلحة في تركه، فيرجع الشيخ إلى قوله، ولا ترجع أنت، واشرع في ذلك الفعل بمرأى من الشيخ، فإن كان رجوع الشيخ لقول الغير رجوع، فسينهاك عن ذلك الفعل، وإن سكت عنك ولم ينهك عنه، فاعلم أن رجوعه إلى قول ذلك الغير مكر من الشيخ به، فإن للشيوخ مكرًا إلهيًا يمكرون بالتلامذة فيه، إذا رأوا من المريد علامة عدم الفلاح بجوابهم للشيوخ، واعتراضهم عليهم، وتصويب قولهم دون قول الشيخ، فإنه لا معصية أعظم على الإنسان بعد الشرك من قتل الرجل نفسه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ذكر الشيخ القشيري – رحمه الله –: أن بعض الشيوخ أمر تلميذه أن يسجر التنور، ففعل، فجاء إلى الشيخ فعرفه والشيخ في حال مع الجماعة، فألح عليه بالتعريف، حتى أغضب الشيخ وأضجره، فقال له عند ضجره: ألق نفسك فيه، فامتثل أمر الشيخ، وألقى نفسه فيه، ثم تذكر الشيخ، فقال: أدركوه، فإنه بايعني على السمع والطاعة في المنشط والمكره، فتبادروا إليه، فوجدوه في التنور، كأنه في الحمام يتصبب عرقا، والتنور في غاية من الجمر، فجاءوا به إلى الشيخ، ففرح الشيخ به، وقال: هكذا تكون خدمة أهل الله الناطقين من الله[١]، فهم في مثل هذا كما قال رسول الله ﷺ لربه: «يا رب إني بشر أغضب كما يغضب البشر، وأرضى كما يرضى البشر، اللهم من دعوت عليه، أو سببته – يعني في وقت غضبه – فاجعل ذلك عليه رحمة، ومغفرة، ورضوانًا»[٢]، ففعل الله معه ذلك، حتى إنه يومًا دعا على صبية صغيرة أضجرته، فخافت من دعائه، فقال لها: لا تخافي، فقد سألت الله، وذكر هذا الخبر، فكان دعاؤه بالشر خيرًا في حق المدعو عليه.

وأراد الشيخ أن يظهر لمن عنده تأسيه برسول الله ﷺ في ذلك وتأدبه، وما تنتجه طاعة المريد للشيخ، إذ الواجب على المريد أن يرى نطق شيخه نطق الحق في جميع ما ينطق به من خير وشر، عرفًا وشرعًا، وهذا عزيز في المريدين جدًا، بل الغالب على القائلين منهم أن يقبلوا ذلك، إذا قبلوه ولم يردوه على كره فيهم، لا جرم أنهم يعاقبون على الرد، فإن كان الحق بأيديهم في ذلك، ولكن طاعة الشيخ أولى بالمريد على كل حال، ولقد قال لي شيخ يومًا كلامًا فيه فُحش عظيم، أوصله إلى الغير من عامة الناس، وإيصال ذلك معصية في الشرع

---

(١) الرسالة القشيرية باب: الإرادة (٢/٣٥٢).

(٢) سبق تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقرر عندنا، فبادرت لامتثال أمره بحضرة الجماعة، فقال لي: أو تفعل ذلك؟ قلت له: إي والله، قال: وتعلم أن ذلك معصية شرعًا؟ قلت: نعـم، قال: وكيف تفعله وأنت تعلم أنه معصية شرعًا عن كره أو عـن طيـب نفس؟ قلت له: عن طيب نفس، قال: وبما ذلك؟ قلت له: لأنا ما أخـذنا الشرع عن الشارع، وإنما أخذناه بالنقل عنه، كما قال أبو يزيد – رحمه الله –: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عـن الحـي الـذي يموت، وكلامك عندي هو الشرع المقرب إلى الله تعالى، فإنـك عنـدي ممن ينطق عن الله، لا عن هوى نفسه، والأخذ عنك أثبت وأصح مـن أخذي من أقوال علماء الشريعة، فقال: بارك الله فيك، اجلس لا تفعـل ذلك، فإني ما أردت إلا أرى الجماعة صدقك، وقيامك بالحرمة، وقد ظهر والحمد لله يا بني أن ذلك الذي أمرتك به معصية عنـدي، ومـا كنـت لأتركك تفعل ذلك، وإنما ابتليتك حتى نعلم، كما قال الله تعالى في محكم كتابه مع علمه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١].

وقوله t : (أو يحضر عنده عاص بمعصية فينهاه عنها نهيًا لينًا) فذلك منه امتثال لما أمر الله به موسى وهـارون، إذ أرسـلهما إلـى فرعون فقال لهما: ﴿ فقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْـشَى﴾ [طـه: ٤٤]، ولا معصية أعظم من الشرك، ومع هذا أمرهمـا بـاللين فيمـا يدعوان به، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله، فجاء الخير بكله، وهذا من الأمور التي ينبغي فيها الرفق فإنه من الإحسان، أو كنفوس قابلـة لما يكون من المحن، مجبولة على حب من أحسن إليها، والحب يقتضي القبول، فينتهي بالرفق، والكلام الطيب يحبه كل أحد، ولا ينتهي بعـدم الرفق، إذا أعنف وشدد الناهي في نهيه كل أحد، فإن النفوس تكره أن يظهر عليها وأن تُنازع، ولا سيما في هذه الأمة على الخصوص، فـإن الله تعالى ما أرسل سيدنا محمدًا رسولها إلا رحمة، حتى إنه لما دعا على رعل وذكوان، وعصبة من المشركين في القنوت، أوحى الله إليـه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينهاه عن الدعاء عليهم، فقال له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] أي: بمسلط.

فمن أجل هذا، نهى هذا الشيخ عن من نهاه نهيًا لينًا، ودعا له بالتوفيق، كما فعل الجنيد[1] حين مر مع أصحابه على قوم مجتمعين على معصية، فغضب الجماعة، وقالوا للشيخ: ادع على هؤلاء، وقال الجنيد: اللهم كما جمعتهم على معصيتك، فاجمعهم كذا على طاعتك.

فانظر ما أحسن هذا وما أبلغه، فبلغ دعاء الجنيد لتلك الجماعة، فتبادروا إليه وتابوا على يديه، فهذا ما أثره الإحسان في الدعاء إلى الله تعالى، ونحن وإن لم نرض [بالقضاء][2] به، فإن الله لا يرضى لعباده

---

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخراز القواريري لقبه الأستاذ أبو القاسم القشيري قدس الله روحه في رسالته بسيد الطائفة وإمامهم، ولقبه جماعة من الشيوخ بتاج العارفين وقال الفرغاني: كان الجنيد وأبو الحسين النوري يسميان ببغداد طاووسا العباد. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: كان الجنيد قطباً في العلم، أصله من نهاوند وهى مدينة من الجبل، ومولده ومنشأه بالعراق، وتفقه على أبي ثور صاحب الإمام الشافعي، وكان يفتي في حلقته، وقيل: بل كان فقيهاً على مذهب سفيان الثوري. توفي قدس الله روحه يوم السبت، وكان نيروز الخليفة سنة سبع وسبعين ومائتين، وقيل: ثمان وسبعين، آخر ساعة من نهار الجمعة ببغداد، ودفن يوم السبت بالشونيزية عند خاله وشيخه سري السقطي رضي الله عنهما، وقبره بها ظاهر يزوره الخاص والعام، وكان عند موته قد ختم القرآن الكريم، ثم بدأ من سورة البقرة فقرأ سبعين آية ثم مات وقال أيضاً: رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس فوقف عليّ ملك، فقال: أقرب ما يقترب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا؟ فقلت: عمل خفي بميزان وفيّ، فولى الملك عني وهو يقول: كلام موفق والله ما أخذت التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات وقال: الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح، وقال: إذا رأيت الصوفي يعبأ بظاهره فإن باطنه خراب.

وقال: المريد الصادق غني عن علم العلماء، وإذا أراد الله بالمريد خيرًا أوقعه مع الصوفية، ومنعه صحبة القراءة، وقيل له: ما الفرق بين المريد والمراد؟ فقال: المريد تتولاه سياسة العلم، والمراد تتولاه رعاية الحق، لأن المريد يسير، والمراد يطير، فمتى يلحق السائر بالطائر؟. وقال: ولو عَلِمَ منك التحقيق لوسَّعَ عليك الطريق، ولو أشرت إليه في أول المصائب لأُبْرِزَتْ إليك لطائفُ العجائب.

وقال: الخوف إخراج الحرام من الجوف، وترك العمل بعسى وسوف. [انظر ترجمته الرسالة القشيرية (٧٨/١)، الكواكب الدرية (٢٤٠)، روضة الحبور ص(١٠٨)، الحلية (٢٥٥/١٠)، المختار(٥٥/٢)].

(٢) في (ب): بالمقضي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكفر، لكن يتعين علينا، ويجب الرضا بقضاء الله وقدره، والقضاء ليس عين [المقتضى] (١)، فلا يتنافى عند من يعلم العلم.

واعلم أنه لا شيء أصعب في هذا الطريق، ولا أشد خسارة ولا حرمانًا من الاعتراض على الشيوخ، ورد القول عليهم، وإذا رأيتم الأجنبي فضلاً عن المريد يرد على الشيوخ بما تقرر في علمهم، فاعلموا أنه محروم لا يفلح أبدًا، ولا يجيء منه شيء ما دامت هذه الخلة فيه، ولا أقل من أن ينزلوا هذا الشيخ منزلة المجتهد إذا اجتهد في الحكم، و[حكم] (٢)من رد على المجتهد حكمه بالنظر إليه، فقد أساء الأدب [مع] (٣) الشارع، ورد ما قرر الشارع حكمه في حق ذلك المجتهد، ومن رد شرعًا مقررًا، فقد عصى الله ورسوله فيما قرره، وإن كان هذا الفقيه لا يقول بذلك، ولا تعبده الله به، وحرام عليه فعله لا قبوله من ذلك المجتهد، وهذا يقع كثيرًا من جهلة المقلدة من الفقهاء من تقدم من الأئمة، فأضافوا إلى التقليد الوقوع في المجتهد، وتخبيطهم وليس لهم ذلك.

ثم قال (وإن رأيت أن [تُجري] (٤) أمر من أمور الدنيا بحضور الشيخ، ويعتقد في ذلك أنه ما هو على وجه المصلحة، فافهم من ذلك أن أمور الدنيا ما ينبغي أن يأتي بها الإنسان على وجه السداد والإحكام، بل دفع حال يوم بيوم، ثم عرض نفسك لفعل ذلك، فإن أذِن في صلاحه وإلا فقد فهمت الغرض. وبالجملة فكن بين يدي الشيخ كأنك بين يدي من إذا رأى منك ذلة قطع رأسك، بل هذا أبلغ، فإنك تخسر مع

---

(١) في (ب): المقضي.
(٢) سقط في (أ).
(٣) في (ب): على.
(٤) في (ب): يجري.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك والعياذ بالله الدنيا والآخرة، فاحفظ نفسك، وتوسل إلى الشيخ في جميع ذلك، ثم بعد ذلك تسعى في تطييب قلب كل مريد للشيخ، وتحترمه وتهابه، غاية الهيبة والاحترام وتكرمه، فإن المريد إكرامه لأجل الشيخ، ولكرامة عين تكرم مائة عين، وإن قدرت على المواساة، وإياك من التقصير في ذلك، أو كل من قدرت عليه خصوصًا المريدين، وليكن السخاء والإيثار سجيتك، وليكن الذل والمسكنة والانكسار [سيمتك] (١)، أيها المريد دائماً. وكذلك الحزن، وكن شديدًا في كل ما ذكرته لك، قوي العزم في ذلك جميعه، ولتعلم أنه مهما كان قلب الشيخ معك ما يضرك أحد أصلاً، وإن زال قلب الشيخ عنك، والعياذ بالله من ذلك، صرت بين الناس كالمطرود من مكان إلى مكان، والعياذ بالله من ذلك، واعلم أنه إذا كان قلب شيخك معك، لو اجتمع أهل السماء والأرض أن يضروك لم يقدروا على ذلك، فإنه مهما كان قلب الشيخ معك كان الله معك).

أما قوله: (فيما يجري من أمور الدنيا بين يدي الشيخ... إلى قوله دفع حال يوم بيوم) فاعلم أولاً، أن هذا الشيخ قاصر في العبارة عما يجد، واعلم أن القوم قد ذكروا في الفتوح المصطلح، فتوح في العبارة، وما كل من يجد يقدر على التوصيل، وما كل من يقدر على التوصيل، يكون حسن العبارة عن ذلك فيما يمكن أن يوصل، وما لا يمكن أن يوصل، فذلك ممتنع لنفسه، كعلوم الأذواق، فقال لك هذا الشيخ في وصيته: فيما يجري من أمور الدنيا بحضور الشيخ في سكوت الشيخ على ذلك، ولا تعتقد فيه إن جرى مثل ذلك ما فيه مصلحة، بل فيه مصلحة يعلمها الشيخ، ويجهلها غيره هذا لا يلزم قد يجري أمور من أمور الدنيا، ما فيها مصلحة عرفية ولا شرعية في حكم الظاهر، ولله فيها سر، فقد يكون في ذلك ابتلاء إلهي في حق الحاضر من الشيخ

(١) في (ب): شيمتك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وغيره، فإنه القائل تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١]، وما ذكر بأي شيء، وقد يكون في المجلس صاحب دعوى، فيبتلى بما جرى ليرى ما يقع منه في ذلك.

وأما قوله: (هذا المبلغ فافهم من ذلك أن أمور الدنيا ما ينبغي ..الخ)، يقول ما يلزم أنه يأتي بها الإنسان على السداد والإحكام، يقول قد يدفع بها حال الوقت، ولا شك أنه يريد سدادًا خاصًا، فإن دفع حال الوقت من أحسن السداد، ولكن هذا الذي ما عنده حال يدفعه ما جرى، لا يكون عنده ذلك سداد، وهو سداد عند من يدفع به حال وقته، ثم إن اعتبرت غرض الشارع فيما جرى، فإن كان يحمده الشرع فهو السداد بلا شك، فإنه [لا] [1]يلزم من أمور الدنيا أن تكون كلها مذمومة شرعًا، كما ورد في الخبر الصحيح المعنى «الدنيا مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر، إذا قال: أحدكم لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربه»[2].

وقال قتادة: ما أنصف الدنيا أحد، ذمت، بإساءة المسيء فيها، ولم تحمد بإحسان المحسن فيها، وإن كان ذلك جرى مما يذمه الشرع، فقد ذمه لسان الحق فلا حكم لك فيه، بل الحكم للشرع، فغايتك أن تقول: لما سكت الشيخ عن مثل هذا، فاعلم أن المنكرات قد ورد الأمر بتغييرها على قدر الاستطاعة، فإن اقتضى الوقت التغيير باليد، فاعلم أن الإيمان بالسلطان والولاة قوي، وإن لم يقدر باليد، وكان آمنًا على نفسه، إذا غيره باللسان، فهو وسط ما هو بذلك القوة في الولاة، أعني الإيمان،

---

(١) سقط في (أ).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٧٨٧٠) كتاب: الرقاق عن سعد بن طارق عن أبيه t قال: قال رسول الله □: «**نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته حتى يرضى ربه U وبئست الدار لمن صدته عن آخرته وقصرت به عن رضاء ربه، وإذا قال العبد: قبح الله الدنيا قالت الدنيا: قبح الله أعصانا لربه**» هذا حديث صحيح الإسناد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا بذلك الضعف، وإن لم يكن آمنًا على نفسه إذا غيره باللسان، وغيره بقلبه، لكونه مؤمنًا، فذلك أضعف في السلطان والولاة في حق هذا المغير بقلبه، فإن حق نفسه عنده جعله الله أعظم الحقوق عليه، حتى قال فيه: «أنه من قتل نفسه بيده حرم الله عليه الجنة»[١]، وقال في قتل القاتل غيره «إذا لم يؤخذ به أن أمره إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء آخذه به»[٢]، فما قطع عليه مثل ما قطع على القاتل نفسه، فالظالم نفسه أعظم من الظالم غيره، فإن الإيمان إذا كان في السلطان في غاية من الضعف، بحيث ألا يأمن هذا الغير، إن غير باللسان أو باليد من جور السلطان عليه، وقتله من أجل ذلك، فهو مخير بين أن يغير، أو لا يغير، فإن غير مع علمه بقتله، فإنه ظلم نفسه، وإن لم يغير فإنه ظالم لنفسه، وهو من المصطفين الذين ورثهم الله كتابه، ويحتاج المغير لمثل هذا إلى معرفة بقوة نفسه ومنزلتها، فإن في مثل هذا يقول أبو سليمان الداراني[٣] – رحمه الله تعالى – إني أرى المنكر، وأعلم إن غيرته

(١)

(٢)

(٣) هو الإمام عبد الرحمن بن عطية أبو سليمان الداراني بنون بعد ألف الثانية - ويقال بهمز بدل النون وبالنون أشهر وأكثر- ذكره السمعاني. وهو الإمام الكبير الشأن في علوم الحقائق ومعاني بديع البيان، ارتفع قدره وعلا ذكره حتى صار تشد إليه الرحال لإقامة شعار الدين ونصره حزب الموحدين على حزب النفوس الأمارة والشياطين، ومن فوائده: لا ينبغي للفقير أن يزيد في نظافة ثوبه على نظافة قلبه؛ ليشاكل باطنه ظاهره.

وقال: ليت قلبي في القلوب كثوبي في الثياب. وقال: من صارع الدنيا صارعته، وإذا سكنت الدنيا قلبًا ترحلت منه الآخرة. وقال: من أظهر الانقطاع إلى الله فقد لزمه خلع ما دونه من عنقه.

وقال: يارب، إن طالبتني بسريرتي طالبتك بتوحيدك، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك، وإن جعلتني من أهل النار أخبر أهلها بحبي إياك. وقال: أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله أن يطلع على قلبه فيراه لا يريد أحدًا غيره في الدراين.

وقال: من أحسن في نهاره كفي ليلة، ومن أحسن في ليله كفي نهاره. وقال: إذا بلغ العبد غاية الزهد أخرجه =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

=

إلى التوكل. وقال: كلما ارتفعت منـــزلة العبد كانت العقوبة إليه أسرع. وقال: أسكنهم الغرف قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه، لا يسأل عمّا يفعل. وقال: القناعة أول الرضى، والورع أول الزهد.

وقال: مفتاح الآخرة الجوع، ومفتاح الدنيا الشره، وأصل كل خير الخوف من الله.

وقال: هانوا عليه فعصوه، لو كرموا عليه لمنعهم. وقال: إذا وصلوا إليه لم يرجعوا أبدًا، وإنما رجع من رجع من الطريق، وإنما حرموا الوصول فتضييع الأصول، ومن لم يتخلق لم يتحقق، وعلامة من صح وصوله الخروج عن الطبع، والأدب مع الشرع، واتباعه حيث سلك. وقال: من عرف الدنيا عرف الآخرة، ومن لم يعرفها لم يعرف الآخرة.

وقال: كيف يعجب عاقل بعمله؟ وإنما عمله عطية من الله ونعمة منه عليه شكرها. وقال: من أكل ليَسُرَّ أخاه لم يضره أكله. وقال: إذا فتح لك باب فالزمه. وقال: من حسن ظنه بالله فقد فُتِحَ عليه باب الرحمة.

وقال: القلب بمنـــزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة، فأي باب فُتح له عمل فيه. وقال: عليك بالجوع؛ فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب ويورث العلم السماوي.

وقال: أحلى ما تكون العبادة إلي إذا لصق ظهري ببطني. وقال: القلب إذا جاع وعطش صفا ورق، وإذا شبع عمى وثار. وقال: من شَبع دخل عليه خمس آفات: فقد حلاوة العبادة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق - لظنه أن الخلق كلهم شباع- وثقل العبادة، وزيادة الشهوة. وقال: من ترك الدنيا للآخرة ربحهما، ومن ترك الآخرة للدنيا خسرهما، وكل أُمٍّ يتبعها بنوها. وقال: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية. وقال: إن الله يفتح للعارف على فراشه مالا يفتح له وهو قائم يصلى.

وقال: ذهب المطيعون لله بلذيذ العيش في الدنيا والآخرة. وقال: إذا لذّت لك القراءة فلا تركع ولا تسجد، وإذا لذّ لك السجود فلا تركع ولا تقرأ، والأمر الذي يفتح لك فيه الزمه. وقال: من كان يومه مثل أمسه فهو في نقصان. وقال: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، وإذا كانت في القلب لم تزاحمها الآخرة؛ لأنها كريمة والدنيا لئيمة، واللئيم يزاحم الكريم والعكس لا.

وقال: إذا تكلف المتعبدون ألاّ يتكلموا إلا بالإعراب ذهب الخشوع من قلوبهم. وقال: سمعت من أحد الأمراء شيئًا، فأردت أن أنكره، فخفت أن يقتلني، ولم أخف من الموت، بل خفت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحي فسكت. [انظر ترجمته حلية الأولياء (٩/٢٥٤)، وصفة الصفوة (٤/١٩٧)، والرسالة القشيرية(١/٦١)، الكواكب الدرية رقم (٢٥٩)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قتلت، ووالله ما أخاف الموت، ولكن أتركه لكوني لا آمن على نفسي أن يدخلها التزين بذلك عند الموت، حيث قتلت على تغيير المنكر، ولا يصفو لي الأمر مع عدم نفسي فأتركه.

فهكذا حاسب القوم نفوسهم، وإن كان ذلك الأمر جرى بحضور الشيخ من أمور الدنيا ما للشرع عليه إلا حكم الإباحة، والشيخ بل أهل الطريق بلا خلاف، ولا يرون أن يمشي عليهم زمان في تصرفاتهم في مباح، بل في واجب أو مندوب، فإن لم يكن ثم ما يقتضي وجوبًا ولا ندبًا، فلا أقل من حضور المؤمن في ذلك المباح، إحضار الإيمان فيه أنه مباح، وهو واجب، وعليه أعني الإيمان بإباحته، فيكون حال الشيخ في ذلك الوقت، أو من كان من أهل الطريق، النظر في وجوب الإيمان بإباحته، فيكون ناظرًا في واجب.

ثم إن الشيخ المحقق ما يفرق في أفعال الله كلها الجارية في الدنيا، بين ما هو من حيث الدنيا، أو من حيث الآخرة لشهود المصرف في التصريف، فهو ينظر في حكمه ذلك الواقع من الله في ذلك الوقت، وفي تلك الجماعة، وإما أن يكون للمجموع، أو لأحدهما، فلابد من العلم بالمناسبة مما ظهر وجرى من ذلك، وبين الزمان والجماعة أو أحدهما، فيعلم أن تلك المناسبة اقتضت جري ذلك الأمر، فينظر عند ذلك في [الأمر] (١) المناسب ما حكم الله المشروع فيه، مع شهوده أنه من عند الله، وبتصريف الله هذا لا يغيب عنه، ولا عن أهل الله، فإذا علم حكم ذلك المناسب كان بحسب علمه به، فإن اقتضى العلم أن يتكلم في ذلك بنهي أو غيره تكلم، وإن اقتضى السكوت سكت، فإن الكبير يجري بحكم العلم في الأشياء، كما قال بعض السادة: ليس السخي من سخا بماله، وإنما السخي من سخا بنفسه على العلم، يقول يجعل العلم حاكمًا عليه.

---

(١) في (ب): الأصل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن قلت: فهذا صاحب المواقف قد قيل له في موقف العلم، لا تأتمر للعلم.

قلنا: صدقت، ما هو مُؤَتَمِر للعلم، إنما هو مُؤَتَمِر للعالِم الذي أمره، وإن العلم لا يأمر، وإنما الأمر للعالِم الذي أمره، فإذا أمر الإنسان نفسه بكونه عالمًا إذا علم، فيتجوز في اللفظ بأن يقال: إنما العلم أمره بذلك، وهذا تحقيق الأمر في نفسه، كما قال في مثل هذا سبحانه وتعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، بناء عن حقيقة، وإنما الحقيقة أن الذي يدركه المُبصر بالبصر، لا البصر، كذلك العلم لا يأمر، وإن العالِم يأمر به، إذ لا يأمر حتى يعلم، وما كل من يعلم يأمر، وقد قال السادة: أن الصوفي ابن وقته.

فالشيخ ما سكت فيما جرى إلا على بصيرة، وسكوته دعاء إلى الله، وأهل الله المتبعون هداية ما يدعون إلى الله، إلا على بصيرة بالنص الوارد في ذلك، وقد يكون الدعاء باللسان، وقد يكون بالسكوت، وعدم النكير، وقد تقرر من حكم الشرع، أن ترك النكير من النبي □ إذا جرى أمر بحضوره حجة، حيث أنه شاهده وسكت عليه، ولم يقل فيه بشيء، فدل سكوته على إباحة ذلك في ذلك الوقت، فسكوته عن حكم في المسألة كسكوته بحضوره، وقد أكل الضب على مائدته، أكله خالد بن الوليد وغيره، ولم يقل فيه بتحريم ولا بتحليل، بل سكت، فدل سكوته على إباحة أكله، فهذه عبارة معنوية بلسان حال.

فالشيخ الكامل يفيد سكوته كما يفيد بكلامه، سواء بقول المترجم عن حال الشيخ على طريق الشرع، أن يفهم من ذلك أن أمور الدنيا ما يلزم أن تجري على السداد، بل دفع يوم بعد يوم، ذلك مبلغه، وأن حاله يشهد أنه مريد، أن لو كان عين ما جرى لكان أولى، ولكن حكم الزمان، وقد بينا أن الحكم في ذلك لله بما يعطيه الوقت، فهذا قد ذكر وجوه المسألة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله: (ثم اعرض نفسك لفعل ذلك) يعني إن كان ما جرى مما يفعل، إما بأن تتكلم فيه أيضًا أنت كما تكلم الغير، فإن حكم الشيخ مع المريد التلميذ عنده، ما هو مثل حكم الشيخ مع مريد آخر ليس بتلميذ له، ولا هو مثل حكم الشيخ مع الغير، ممن ليس بمريد أصلاً، فالشيخ مع مريده، حكمه أن يتكلم في المصلحة في حقه، أو يسكت عند الفعل سكوتًا، هو كلام في المعنى منه عند هذا المريد، لعلمه بما يفهمه منه، فإن كان مريده من البلادة بحيث لا يفهم عن الشيخ بالسكوت، فحينئذ يتعين على الشيخ الكلام مع المريد، عندما يعرض نفسه لذلك، إما بالذم فيه، أو بالنهي عنه، فتكون عند ذلك بحيث ما يقوله الشيخ لك.

وأما قوله: (وبالجملة كن بين يدي الشيخ، كأنك بين يدي من إذا رأى منك ذلة، قطع رأسك بل أبلغ) يريد أن يحذر من الشيخ، كما يحذر ممن يريد إذايتك، فإنك إذا عرضت نفسك لفعل ما، من غير أمر من الشيخ، فقد تكون زلة، ومعلوم من الطريق أن الشيخ إذا لم يعاقب المريد على زلة، فقد خانه وخان الله فيه، فإنه حق عليه عقابه، لا التجاوز عنه، فإنه ما صحبه، ودخل تحت حكمه إلا لإقامة أحكام ما يطلبه الطريق إلى الله تعالى عليه، ألا ترى رسول الله ﷺ قال: «من أبدى لنا صفحته»[1] يقول من ظهرنا عليه بأنه قد فعل فعلاً يقتضي إقامة حد عليه فيه أقمنا عليه حتى قال: فأبلغ في قضية عين في حق المرأة التي خانت الأمانة، فقطع يدها، فإنها كانت تستعير الحُلي، ثم تنكره، وكانت من أشراف قومها، فلما كُلِم رسول الله ﷺ فيها أن يتركها

(١) طرف من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رقم (٦٧١٥) كتاب: التوبة والإنابة وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، والإمام مالك في موطئه عن زيد بن أسلم t رقم (١٥٠٨) كتاب: الحدود باب: ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا، والبيهقي في سننه الكبرى رقم (٢٣) (٣٢٦/٨) باب: ما جاء في صفة السوط.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لشرفها، قال ﷺ: «لو أن فاطمة بنت محمد - يعني نفسه - سرقت قطعت يدها»[1] يقول الله في الثناء على قوم ﴿لاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، يعني في جنب الله والقيام بحقه.

وأما قوله: (فاحفظ نفسك، وتوسل إلى قلب الشيخ في جميع ذلك) يقول: إن علمت من نفسك أنك من البلادة، بحيث أنك لا تفهم من قرائن الأحوال، عين حكم ما يريده الشيخ منك، فعرف الشيخ بما أنت عليه، فإن الشيخ قد يشتغل بالله في وقت عنك، فلا يعرف ما أنت عليه ولا غيرك، فتُنبه الشيخ بحالك حتى يعاملك بما يكون فيه مصلحتك، فيعدل فيك إلى الكلام بما يريد منك أن تفعله، أو أن لا تفعله، ولا تتكل فيك على قرائن الأحوال، فإنك لست من أولئك.

وأما قوله: (ثم بعد ذلك تسعى في تطييب قلب كل مريد للشيخ) يقول الله تعالى في حق أصحاب رسول الله ﷺ وهم له u بمنزلة المريدين المربيين للشيخ، والشيخ وارث، فهو كالرسول فيهم، فإنه من أولي الأمر، [فيمر][2] حكمه على نفسه، فوجبت طاعته كما وجبت الطاعة على الجميع لله ولرسوله، ولا سبيل إلى نزاعه، ولا إلى الرد عليه، والتأويل بحضوره، والذي يطلب النبي ﷺ من الصحابة من الإيمان بالله، وبما جاء به هو بعينه، يطلبه الشيخ من التلامذة، الإيمان بما يخبرهم به عن الله تعالى، وكانوا y رحماء بينهم، كما أخبر الله تعالى عنهم، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، فكان يرحم بعضهم بعضًا، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ [الفتح: ٢٩]، أصحاب خشوع وسكينة، وهم

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها رقم (٣٢٨٨) كتاب: الأنبياء باب: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم، والإمام مسلم في صحيحه رقم (١٦٨٨) كتاب: الحدود باب: قطع السارق الشريف وغيره، والترمذي في سننه رقم (١٤٣٠) وقال: حديث عائشة رضي الله عنها وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) في (ب): فيمن في.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بين يدي الله تعالى، وبين يدي الشيخ، وبين يدي بعضهم مع بعض كما قيل:

كأنما الطير منهم فوق أرؤسهم ... لا خوف ظلم ولكن خوف إجلال

ج ج

ما منهم شخص، إلا ويهاب أصحابه هيبته لشيخه، ويحترمه احترام شيخه، ولا يسامحه في زلة وقعت منه [على] (١) غفلة أو تأويل، فينبهه عليها ليرجع عن ذلك التأويل، أو يذكر في ذلك وجهًا مقربًا إلى الله تعالى، فتقع الفائدة بينهما، فما من مريد من هؤلاء؛ إلا ويراقب أحوال صاحبه بحضوره ومراقبته نفسه في خواطرها، فإنهم مأمورون بأن يتواصوا بالحق، ويتواصوا بالصبر، ويتواصوا بالمرحمة، فإنهم أصحاب الميمنة، ولذلك وصى هذا الشيخ في هذه الوصية.

فقال: (ويحترمه ويهابه غاية الهيبة) يعني لمريدي شيخه، وعندي أن ذلك ينبغي أن يعامل به في جميع عباد الله، فإنه ما يدري متى تفجأهم رحمة الله، فيكتب في عليين في الحال بالحال، فمن الأدب مع الله احترام عباد الله، ولا ينظر إلى معصيتهم التي وقعت منهم، وليكره المعاصي لا العاصي.

وأما قوله t : (ويكرمه فإن المريد إكرامه إنما هو لأجل الشيخ، ولكرامة عين تكرم ألف عين) يقول: لما قام الشيخ للمريدين مقام الحق في عباده، وجب عليهم أن يتحابوا في الله، أي: لأجل الله، لأنهم عبيد لسيد واحد، وهؤلاء أولاد دين واحد، فإن الله تعالى يقول: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، فسماه أبًا للمسلمين، وقال في المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ولا يشك أن أبناء الأب أخوة

(١) في (ب): عن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعضهم مع بعض، فإذا صحت الأخوة كانت الشفقة والرحمة، وإذا كانت الشفقة والرحمة كانت النصيحة، ولذلك قال رسول الله ﷺ «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قالُوا لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[(١)]، ولا شك أن جميع عباد الله مسلمون لله، لكن من طرق مختلفة، ألا ترى المشركين كيف قالوا في آلهتهم: إنهم ما يعبدونها إلا لتقربهم إلى الله، فقد أسلموا نفوسهم إلى الله تعالى من طريق لا يرضاها الله، فوجب نصحهم بأن يتركوا [ذلك] [(٢)] الطريق إلى طريق ما شرع لهم، ألا ترى ما أحسن تربية الله تعالى عباده المشركين في التنبيه على غلطهم، بقول الله تعالى ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، وقوله ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، فلا يمكن أن يكون في الرفق بهم من القادر عليهم، والتلطف وحسن الدعاء إلى الله تعالى، والتعليم أحسن من هذا اللطف الإلهي بهم.

فهكذا ينبغي أن يكون أهل الله من الرحمة بعباد الله مطلقًا، فكيف [بالمؤمنين منهم فكيف] [(٣)] بمن جمع معهم على خدمة عالم بالله تعالى، يقول الله تعالى يوم القيامة: «أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ لِجَلَالِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»[(٤)]، وقال بإيجاب محبته مثل هؤلاء، فقال في الصحيح «وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن تميم الداري t رقم (٥٥) كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، والترمذي في سننه عن أبي هريرة t رقم (١٩٢٦) كتاب: البر والصلة باب: ما جاء في النصيحة وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرى رقم (٧٨٢٢) كتاب: البيعة والطاعة.

(٢) في (ب): تلك.

(٣) سقط في (أ).

(٤) رواه مسلم في صحيحه رقم عن أبي هريرة t (٢٥٦٦) كتاب: البر والصلة والآداب باب: فضل الحب في الله، والإمام مالك في موطئه رقم (١٧٠٨) كتاب: الشعر باب: ما جاء المتحابين في الله، والإمام أحمد في مسنده رقم (٧٢٣٠) (٢/٢٣٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فِيَّ »[1]، فأوجب على نفسه محبة أمثال هؤلاء، ومن أخذ محبة الله من الله، بطريق الوجوب، أعظم منزلة [ممن][2] أخذها بطريق الامتنان، فإنه جامع لرحمتين من الله، فإنه برحمة الامتنان أحب في الله من أحبه، وبطريق ما أعطته هذه الرحمة الامتنانية وجبت محبة الله له، فجمع بين الرحمتين، كل محب أحب في الله من أحبه.

وأنبهك على أمر ذقته وهو عزيز وجوده، وذلك إنك إذا صحبت أو أحببت شخصًا في الله، واتفق أنه بغضك ذلك الشخص، إما لشهوة نفسه، أو خاطر سوء قام له، فبغضك لنفسه، أو طرأ عليه شبهة فيك، وتنبه لبغضك في الله، بحسب ما أعطته لك الشبهة، فابق أنت على حبك فيه لله، وعامِله معاملة المتحابين في الله، ولا تنظر لما طرأ عليه في حقك، ولتكن أنت الرحيم به في ذلك، فإذا فعلت ذلك، فقد وفيت المقام حقه، فاحرص على مثل هذا، ولا يؤثر في حبك فيه بالله، بما وقع عنده من البغض فيك في الله على زعمه، فإنك ما رأيت منه ما يوجب بغضك فيه في الله، ولتتلطف في إصلاح قلبه عليك رحمة به من حيث لا يشعر.

ثم قال هذا الشيخ: (وإن قدرت على المواساة، فإياك من التقصير في ذلك كل ما قدرت خصوصًا المريدين، وليكن السخاء والإيثار سجيتك، وليكن الذل والمسكنة شيمتك أيها المريد دائمًا) هذه وصية منه لإخوته من المريدين، ولغيرهم من المؤمنين أن يكونوا بهذه الصفة وهو قوله: «والمتباذلين فيّ» فاحذر من التقصير مع القدرة على ذلك، وليكن عطاؤك بقدر الحاجة، وذلك هو السخاء، وأما الإيثار فإعطاؤك ما

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٧٣١٤) كتاب: البر والصلة وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين وقد جمع أبو إدريس بإسناد صحيح بين معاذ وعباد بن الصامت في هذا المتن، والإمام مالك في موطئه عن أبي إدريس الخولاني t رقم (١٧١١) كتاب: الشعر باب: ما جاء المتحابين في الله، والإمام أحمد في مسنده عن معاذ t رقم (٢٢١٨٤) (٥/٢٣٣).

(٢) في (ب): فمن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تتوهم أنك محتاج إليه في المستقبل، وأنت مستغنٍ عنه في الحال، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، فهذا تقدير وقوع الخصاصة، فإذا كانت الخصاصة على التساوي، فحق نفسك عليك أوجب عند الله تعالى، وكذلك الأقرب فالأقرب حالاًكالزوجة، ونسب كالولد، ودارًا كالجار، ونسبة كالمملوك، هكذا تربية الحق تعالى في ذلك على لسان رسوله ﷺ في أداء الحقوق، وكل من خالف ما عينه الحق في أداء الحقوق، فذلك مواساة شهوة وغرض، ما هي لله تعالى، فليتحفظ [بالمواساة] (١) من هذه الأغلوطة، ولا يجنح فيها إلى تأويل، فإنه لابد أن يرى غب ما فعل، وهذا لا يمكن إلا لمن راقب الله في أحواله وتصرفاته.

ثم قوله: في الانكسار والذل والمسكنة، دلك على فوائد جمة، وذلك أن المعطي أبدًا يجد في نفسه عزة على المعطي له، وهو أضر شيء يكون بالعبد، فيحتال في إيصاله ذلك للمعطي له، من غير علم منه أنه أعطاه هذا المعطي شيئًا، والحيل في ذلك كثيرة فيه، فعلناها كثيرًا، ثم الذي يرجع المعطي من العلم بالله في ذلك، أن يقول لنفسه: لو كان هذا الذي آثرت به، وأوسعت به غيرك رزقك المخصوص بك، ما قدرت على إخراجه ،ولا إعطائه، وإذا لم يكن لك في تقدير الله، وقسمه الأشياء، وقد علمت أنه أمانة بيدك، وأنت مأمور بأداء الأمانة إلى أهلها، فما أعطيت ما هو لك، وإنما أعطيت ما أودعه الله عندك له، فإن كان لك أجر فما هو إلا أجر أداء الأمانة، فلا ترى مع هذا أن لك مزية، ولا تميز عليه بما أوصلت إليه، فإنك ما أوصلت إليه بالعلم الصحيح، إلا ما هو له لا لك، فهذا دواء نافع، إن استعملته لم تر لك فضلاً على أحد، وإن كان الأخذ منك بمنزلتك في هذا النظر، فلا تبال في

(١) في (ب): صاحب المواساة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إعطائك إياه ذلك سرًا وعلنًا، وإن لم يكن له هذا القدم، فإنك تعلم قطعًا أن نفسه الأبية تنكسر عند الأخذ منك، ويرى لك فضلاً عليه، فاحتل في إيصال ذلك إليه من حيث لا يقوم به انكساره، ولا يجد ذلاً في ذلك، والوجوه كثيرة.

وأما قوله: (وكذلك الحزن) يقول: يكون شعارك الحزن دائمًا، وهو نظرك فيما فاتك، فإنك تجبر ما فاتك به، فهي كدية خفية، أعني الحزن، فإن الحزن متعلقه ما فات، فحصله بالحزن كما تحصله بالنية، فليس له طريق، أعني لتحصيله، إلا أحد هذين الأمرين: الحزن، والنية.

وأما قوله: (وكن شديدًا في كل ما ذكرته، قويًا في ذلك جميعه) فاعلم أن الله تعالى قد أمر عبده فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأولو العزم هم الأشداء الصلب في دين الله، كأبي بكر t في إيمانه في صلح الحديبية، فما اختبر الله إيمان المؤمنين بأشد ما اختبره في ذلك الصلح، حتى أن عمر t اختل عنده إيمانه في ذلك اليوم، على صلابته في دينه، ومن ذلك اليوم علمنا أن صلابته كانت طبيعية، ثم آمن فصرفها في إيمانه، لما اضطرب إيمانه بهذا الشخص المعين، بقيت الصلابة فيه على حكمها، فقال: أنعطي الدنية في ديننا، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فلولا أن الله لطف به بأبي بكر فيما نبهه به، فقال له مثل مقالة الرسول سواء، وأما الصحابة فكادوا يموتون [غيظًا] (١) لما أمرهم أن يحلوا من إحرامهم في ذلك، وأبو بكر ما عنده خبر، لصلابة إيمانه وشدته، وحكمه على طبيعته، انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]، وقد قضى رسول الله بما قضى به في صلح

(١) في (ب): غيضًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحديبية، ثم نص في ذلك المجلس، فقال: «والله لا يسألون في خطة فيها رضا الله، إلا أجبتهم لذلك»[1]، فقد علمنا بهذا في إجابته التي أنكرها الصحابة، أنها مما لله فيها رضا، وما منهم إلا من وجد في نفسه حرجًا مما قضى به في إجابته، إلا أبو بكر الصديق t لا جرم أن إيمانه وزن إيمان الأمة كلها، ورجحهم بمثل هذا، ولقد حصل [والحمد لله] [2] هذا الإيمان الصديقي البكري برسول الله ، وبورثته y حتى أني لا أقول بعصمتهم، إلا فيما يبلغونه عن الله، ولو وقع منهم جميع المخالفات والكبائر ما قدح شيء من ذلك في إيماني بهم مع كوني أعلم أن الذي وقع منهم من الكبائر كبائر عند الله، وأنهم قصدوا وقوعها على علم منهم أنها كبائر، ولا ينقص عندي، وفي قلبي مثقال ذرة من إيماني بهم فما فوقها، لله الحمد على ذلك، فإن عصموا عن مثل هذا، فذلك لله، وهذه مسألة كبيرة التفصيل فيها، وإيضاحها يطول، لأن المؤمن لا يتعدى في مثل هذا ما يعطيه الدليل العقلي، والدليل العقلي لا يعطيه في حق هؤلاء؛ إلا العصمة من الكذب في التبليغ عن الله خاصة، وما عدا ذلك فوقوعه جائز منهم؛ إلا أن ينصوا على ذلك بوحي من الله لهم، فإنهم لا يعلمون ما في علم الله فيهم، فهكذا فليكن الإيمان، ولذلك قال النبي لأصحابه في نهيه عن تأبير النخل «ما أخبرتكم به عن الله فخذوه، وما لا فأنتم أعلم بمصالح دنياكم»[3]، فإن كنت نبيهًا، صاحب يقظة، فقد علمت ما أتى به عن رسول الله في هذا الخبر، وعلمت [فيما] [4] أشرت به فيما ذكرته.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٣٦٨٥٥) (٣٨٧/٧).

(٢) في (ب): لي بحمد الله.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في (ب): ما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله: (وتعلم أنه مهما كان قلب الشيخ معك لا يضرك أحد أصلاً، وإن زال قلب الشيخ عنك، والعياذ بالله صرت بين الناس خسيسًا مثل المطرود من مكان إلى مكان، والعياذ بالله) واعلم أن قوله: (وتعلم) معناه تقطع وتجزم، كما يقطع العالم بالشيء على الشيء، فهذا من باب دلالته على الهمة، لما علم أن همم النفوس تؤثر في أجرام العالم، وهذه مسألة عظيمة جدًا، قد نبه عليها ذوقا منه، ولذلك قطع، ولو لم يذق لم يقطع، فبحاله نطق، وبما هو عليه الأمر في نفسه نطق أيضًا.

وقوله: (صرت بين الناس خسيسًا) أراد بالناس هنا أبناء جنسك من المريدين، وأهل الطريق، والخساسة التي وصفك بها عندهم، معناها لا قدر لك في قلوبهم، وسقطت من أعينهم، ومن سقط من أعين أهل الله، فقد سقط من عين الله، فإياك ومخالفة أهل الله، كان أبو يزيد – رحمه الله – يأكل طعامًا، فقال لبعض المريدين: كُل، فقال المريد: إني صائم، فقال أبو يزيد: كُل معنا ولك أجر يومك، قال: إني صائم، قال أبو يزيد: كُل ولك أجر عشرة أيام، فقال: إني صائم، قال أبو يزيد للجماعة: دعوه، [فإنه] (١) سقط من عين الله، إذ كان قد سقط بهذا الفعل من عين أبي يزيد، ورمى به طريق الله، فرُؤي ذلك الشخص بعد ذلك وهو شيخ مُسن، يتعرض للجواري في الطريق ويغمزهن.

وأما أنا فدخلت على شيخنا أبي الحسن يحيى بن الصايغ بـ (سبتة) وهو يأكل طعامًا وبي وجع، وذلك الطعام يزيد أكله في ذلك الوجع، ومع ذلك كنت صائمًا، فقال لي: كُل معنا، فذكرت له صومي ووجعي، وإن ذلك الطعام يزيد أكله في الوجع، فعاود، فقال: كُل معنا، فقلت: بعد أن عرفتك، فالسمع والطاعة لك، وأكلت، فزال الوجع عني من حيني في أول لقمة، فرأيت ذلك من بركة سماعي وطاعتي لكلام

(١) في (ب): فقد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشيخ، ونظري إلى الشيخ بالتعظيم والتوقير، وكذلك جميع من لقيت من المشايخ، والمريدين الصادقين، ما أعرض عني أحد منهم، ولا خدمت شيخًا قط؛ إلا وخدمني في أمر لم يكن عنده، أفاده الله ذلك على يدي، هكذا كان حالي مع المشايخ، ولم أر له سببًا إلا طاعتي وتصديقي بكل ما يتحققون به، وتسليمي لما يأتون به، ويكونون عليه، وذبي عن إعراضهم، ولقد رأيت والله أعلم رسول الله ﷺ في النوم، أو بعض المعصومين، فقال [لي] (١): أتدري بما نلتَ ما نلتَ من الله؟ قلت له: لا، قال: باحترامك لمن يدعي أنه من أهل الله، وسواء كان ذلك في نفس الأمر لما ادعاه أم لا، فراعى الله لك ذلك، وشكره منك، فأعطاك ما قد علمت، ومن ذلك الوقت، أرجو أن الله تعالى قد ورثني من نبيه، ما امتن به عليه في سورة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾ إلى قوله ﴿وَأَصِيلاً﴾ بل إلى قوله ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح:١: ١٠].

وما رأيت من نال هذا وقريبًا منه إلا صاحبنا، سليمان الديبلي، لقيته بدمشق مرارًا، فقال لي: يا أخي إن لي خمسين سنة، ما أخطر الله في خاطري سوءً، ولا حدثت به نفسي. وهذا من أعجب ما سمعته، فإن الحفظ ما هو إلا أن يقع منه في الظاهر، وإن حدث به نفسه، فهذا أعظم حيث عصم الله نفسه من إلقاء الشيطان فيه، فإن الأمور المذمومة المكروهة والمحرمة من إلقاء الشيطان، وضدها من إلقاء الملك، و المباحات من إلقاء النفس من [ذاته] (٢)، فإن أمرت بسوء، فمن إلقاء الشيطان إليها لا من ذاتها، والفتح في المعارف الذوقية من الله، هذه أربعة لا خامس لها، يجدها كل أحد من نفسه.

---

(١) سقط في (أ).

(٢) في (ب): ذاتها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله: (واعلم أنك إذا كان قلب الشيخ معك، لو اجتمعت عليك أهل السماء والأرض أن يضروك، لم يقدروا على ذلك، ومهما كان قلب الشيخ معك كان الله معك) هذا نبهك على مقام الشيخ وحفظه إياك، فإن الشيوخ - رضوان الله عليهم - ما تكون قلوبهم معك إلا عن أمر الله، فإنهم أصحاب إذن إلهي، فلهذا قال: (كان الله معك) وقد ورد في الأخبار الصحاح الإلهية، على لسان رسول الله ﷺ ما يؤيد ذلك.

ثم قال: (وأي عزم وقع لك، أو خيال ما عرض لك، [فتزنه] (١) بميزان الشرع، فإن وجدته يوافق قواعد الشرع، وأحوال المريدين، فهو إلهام، فخذه بقبول، وإن خالف ذلك فتضرع إلى الشيخ في إزالته).

هذه وصية لأهل الله، لا لمريد التربية، فإن مريد التربية ما عنده ميزان الشرع، إنما ذلك للشيخ الذي يربيه، وإن كان مريد تربية، فحقه أن يعرض غرضه، أو خياله على الشيخ خاصة، والشيخ ينظر في ذلك بما يعلمه الله فيه.

وأما قوله: في حق المنفرد بنفسه دون الشيخ مما عزم عليه، أو خيال عرض له، فليأنس، يريد بميزان الشرع أن يعلم حكم الشرع فيه، فإنه ما كل ما يقع له يعلم ما حكم الشرع فيه، ولا سيما هؤلاء الطوائف، فإنهم منعهم الشغل بالله عن البحث في الأخبار والأحكام النبوية، وما أخذوا منها إلا ما تعبدهم الله به في ظواهرهم وظاهر بواطنهم خاصة، وإنما أراد بالميزان هنا هذا الشيخ ما أراده الجنيد بقوله: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، والمعنى في ذلك أن الذي وجدوه من العلم في بواطنهم، والعزم وغير ذلك، إنما هو نتيجة عن العمل بالكتاب والسنة، وسبب ذلك أن الأمور المفتوح بها على النفوس،

---

(١) في (ب): فزنه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من جانب الأرواح العلوية [المتسمين] (١) ***في الشرع ملائكة، وعند القدماء عقولاً فعالة قد ترد بهذه الأمور على النفوس عند تركها شهوات الطبيعة، وخلوصها من أسرها وصفائها، برياضة ومجاهدة، وصقالة مرآتها، ينتقش بها فيها جميع ما في العالم، فينطق بالغيوب، ويعلم ما هو الأمر عليه، وسواء كانت هذه النفوس مقيدة بالشرع الخاص على طريق الإيمان به، أو لم تكن، فإن صفاءها يعطى ذلك، أي يعطى لحوقها بالأصل الذي صدرت منه، فما أخبرت إلا عما أعطاه مقامها ومحلها، فقال الجنيد هذا الحاصل لنا، ولأهل الله لم يكن طريقنا فيه طريق القدماء، يعني بالنظر الفكري في أصل خلقة النفوس، وما أهلت له، وإنما سلكنا بما قال لنا الشارع، وآمنا به، وأخذنا عنه سلوكنا، وإن وقعت المشاركة في الفتح والنتيجة، فإن أصحاب الأذواق يجدون فرقًا بين الإدراكين بينًا ذوقًا، ثم إن أهل الله العاملين على الإيمان، يكون لهم من الله إلقاء خاص، لا يناله أبداً من لم يكن طريقه الإيمان، وبهذا أيضًا يفترق الصنفان، فهذا الذي يريده هذا الشيخ بقوله: (يزنه بميزان الشرع) أي: هو نتيجة عن عمل مشروع، لا عن عمل نظري حكمي، ولذلك أكده بعد قوله: (قواعد الشرع وأحوال المريد) أي: زنه بميزان أهل الطريق، وهذا قول الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، أي: إنه لم تحصل لنا إلا على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.***

وأما قوله: (فهو إلهام) إذ كان يقوم بالنفوس ما يشبه الإلهام وهو الوسوسة التي قال الله فيها ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، فيتخيل من لا يعرف الفرق بين الأمرين في الوسوسة أنها إلهام، وقد بينا لك ما يختص بكل خاطر فاعمل عليه، ولا تبالِ غير أن هنا دقيقة،

(١) في (ب): المسمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذلك مهما خطر لك خاطر، بفعل أمر فيه قربة إلى الله تعالى أو تركه، فلا ترجع عنه أصلاً إلى قربة أخرى حتى تمضيه، وتفعل ذلك هذا تحفظ منه، فإن فيه سُمًا قاتلاً من عدو الله، لما لم يقدر عليك لإيقاع معصية فاحشة بينة، أدرج لك النقص في مقامك، ورضي به، أي: بأن تكون ناقص الحظ، وإن سعدت فيخطر لك خاطر عمل مقرب، وإذا عزمت وعقدت مع الله فعله، أراك ما هو أولى منه لترجع عن ذلك، فتكون من الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

فمتى وجدت مثل هذا، فاعلم أنه إلقاء شيطاني، ولذلك قلنا لك: إذا كنت على عقد مع الله صوم أو غيره، وأمرك من هو أكبر منك بأمر يناقض ما عقدت عليه، فاعرض على هذا الكبير ما عقدت عليه، فإن أمرك بعد ذلك برجوعك عن ذلك إلى أمره، فارجع عن ذلك إلى ما أمرك به، ولا تخالفه، ويكون هو المطلوب بذلك لا أنت عند الله، وإن أمرك بالبقاء على عقدك، فابق على عقدك ولا تحله، وهو مذهبنا أنه من عقد مع الله عقدًا فلا يحله حتى يفرغ منه، فإن النفوس إذا تعودت حل العقد مع الله، انحلت من عقد الشريعة، ولحقت ﴿بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[الكهف: ١٠٤]، وما أدري قط أن أحدًا من المريدين، أمرته بأمر وكان على عقد من الله تعالى، يخالف ذلك الأمر فذكره لي، إلاوأمرته أن يبقى على عقده الأول عن أمري أيضًا، فإذا فرغ زمان ذلك وانقضى، حينئذ يفعل ما كنت أمرته به، إن بقيت أنا على ذلك، وإنما فعلت ذلك نصيحة له وتنزيهًا لنفسي عن المطالبة في ذلك من الله تعالى، إذ لابد منها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال أيضًا: ([واجهد] (١) أن تُخفي الصفات التي كنت تظهرها إلى الناس، حال صبوتك من الخصال المحمودة، والأفعال الجميلة، وتظهر ما كنت تخفيه من الناس، خشية من الناس وحياءً منهم، واحفظ سرك جهد طاقتك، فإن وجدت واردًا من جهة الشيخ في زيارة قبر شيخ من المشايخ؛ فبادر إلى ذلك، فإنه خاطر صحيح شرعي، إلهام من الشيخ لك، فإذا حضرت عند القبر، فإن ألهمت بأن تفعل ما يفعله التائبون، من الخروج عن النفس والدنيا، وإرادتك النفسية، وعن الجنة، والملكوت بأسره، وتبيع الكل في محبة الله، فافعله، فإنه خاطر محمود، غير أنك تجعل الدخول في ذلك جميعه الذي بعته إلى الشيخ، فإن أذن لك بالدخول فيه، فادخل فيه، تكن أنت في ذلك جميعه عارية).

هذه وصية لا تكون إلا لمن لا تعلق له بشيخ من المريدين، إنما تتعلق بالإخوان، فإن مريد التربية ليس له أن يتحرك، ولا يسكن، ولا يظهر؛ إلا بأمر الشيخ، وشيخه لا يأمره إلا بما له فيه المصلحة، هذا شيخ الشيوخ أبو مدين t كان يقول لأصحابه: [أظهروا الطاعات](٢) منكم وأشهروها، كما أن العصاة في هذا الزمان يتظاهرون بالمخالفات، فاجعلوا كلمة الله هي العليا، ولا تطفئوا نور الله بالإخفاء، ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠].

وكان t لا يُقرأ عليه قط كتابان كتاب الرياء، وكتاب السماع، فكان يقول في كتاب الرياء: إنه يولد الرياء، والتدقيق فيه يحكمه في قلب العامل، ولا عامل إلا الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فبماذا ترائي والعمل ليس لك.

---

(١) في (ب): واجتهد.

(٢) في (ب): خرق العادات- لعله الطاعات-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك اظهروا في العامة، وتحدثوا بما يعطيكم الله من الكرامات في بواطنكم، وظواهركم، تكونوا في ذلك ممن أطاع أمر الله، فإن ذلك من أكبر النعم على العبد، والله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وقال ﷺ: «التحدث بالنِعم شكر»[(١)]، فكما يتحدث العامة بنقيض ذلك، فخالفوهم ونبهوهم، أن جميع ما يتقلبون فيه، إنما هي من الله تعالى نِعم، إن كانت رزايا فهي طريق الأجر التي يحصل لهم، فهي طريق إلى مُنَعِم محقق، وإن كانت غير رزايا فهي نِعم معجلة ينبغي الشكر عليها، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فعلى كل حال، إظهار الدين أعلى من إخفائه، فما شرع الله الصلاة في مساجد [الجماعة] [(٢)]، والنداء في الصوامع، والحج، وأمر بالإهلال فيه، كل ذلك ليُظهر دين الله، وتعلو كلمة الله تعالى.

وحسن هذه الأفعال كلها، إذا فعلتها لأمرين: الواحد: لأمر الله لك بتحسين أعمالك، والثاني: ليقتدي بك من يراك ممن لا يعلم، أو يتنبه الغافل الذي يعلم، ويتذكر، ولتكن في عبادتك كلها في السر والعلن على السواء، وهذه الطريقة طريقة الأكابر، ودونها هذه الوصية التي وصى بها هذا الشيخ، نعم إنما وجد هذا في طريق مريدي الملامتية، وهي طريق لا تناقض ما أشرنا إليه، فإن مريد الملامتية قد عملوا على مخالفة خواطر النفوس، ونصوا عليها في كتبهم، فقالوا:

ينبغي لمريدي الملامتية أن يجاهدوا نفوسهم بمخالفتها، فينامون في الوقت الذي يشتهون ألا يناموا، ويسهرون في الوقت الذي يشتهون أن يناموا، ويجوعون إذا اشتهوا أن يأكلوا، ويأكلون إذا اشتهوا أن يجوعوا، ولا يصحبون إلا من يكرهون صحبته، ويتركوا صحبة من

---

(١) مسند الشهاب للقضاعي عن النعمان بن بشير t رقم (٤٤) (٦١/١) باب: التحدث بالنعم شكر، والديلمي في الفردوس رقم (٣٤٣٧) ذكر الفصول من ذوات الألف واللام.

(٢) في (ب): الجماعات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يشتهون صحبته، وإذا حلى لهم الصوم يتركوه، وإذا حلى لهم [الإفطار] (١) يتركوه، ويبادرون لقضاء حاجة من يكرهونه، ويؤخرون حاجة من يحبونه، إلى أن يفتح الله أعين بصائرهم، فيروا الأمر على ما هو عليه في نفسه، فيتصرفون عند ذلك بحسب ما يُلقى إليهم، ويتلقونه من الله.

وأما هذه الطريقة التي دل عليها هذا الشيخ في وصيته، هي طريق المحاسبي وأمثاله، وهي طريق فيها يُعد الموت قريبًا، ولابد له أن ينتقل من هذه الصفة، إلى ما قلناه [فليأخذ ما قلناه] (٢) ابتداءً على علم، والكل حسن، ولكن هذا أحسن وأقرب للفتح.

قلنا: فليأخذ ما كان الشيخ أبو مدين t يقول: لا يجيء صادق جيد، إلا من مُرائي جيد، وذلك أن النبي ﷺ يقول: «الخير عادة»(٣)، فإذا تعودت النفوس فعل الخير الظاهر، ولو كان يُرائي بذلك، فإنه إذا تاب هذا المرائي، كانت توبته مثل الإكسير، تقلب عين أعماله المتقدمة، فيتوب على ما أسلف من الخير الذي ظهر، فيقبل جميعه، ويعطى نتيجته، فكأنه ما زال على خير هذا فائدته، ويهون عليه فعل الخير مع التوبة، لأنه قد اعتاده في الحال بهذا الرياء، فما خاف هذا الشيخ إلا من الرياء والعُجب، الذي يدخل النفس إذا أثني عليها من الصفات المحمودة، فيزيد في العمل على أصل جيد، ولا شك أن أصله جيد، ولكن جهله وشقاؤه في العلم، فإذا استعمل العلم كان بحكم ما ذكرناه في هذه المسألة بما ظهر.

---

(١) في (ب): الفطر.

(٢) سقط في (أ).

(٣) رواه الطبراني في معجمه الكبير من طريق يونس بن ميسرة عن معاوية t رقم (٩٠٤) (١٩/٣٨٥)، وابن حبان في صحيحه رقم (٣١٠) كتاب: البر والإحسان باب: ما جاء في الطاعات وثوابها، وابن ماجة في سننه رقم (٢٢١) باب: فضل العلم والحث على طلب العلم، والديلمي في الفردوس (٢٩٩٨) (٢/٢٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٨٦٦١) (٦/٤٠٠)، والعجلوني في كشف الخفا رقم (١٢٦٦) (١/٤٧٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما يؤيد ما ذكرناه ما حُكي عن الجنيد: أن رجلاً عطس بمجلس الجنيد، فقال: الحمد لله، فقال له الجنيد: أتمها، وقل: الحمد لله رب العالمين، فقال: يا سيدي، ومن العالَم حتى يذكر مع الله، فقال الجنيد: الآن قلها يا أخي، إن المحدث إذا قرن بالقديم لم يبق له أثر. فهذا قد أفنى العالم في جنب الله، وقد أقره الجنيد على ذلك، حين علم أنه الحق، وعلل هذا الذي يرائي [بعلمه] (١) من يرائي، وما ثم إلا الله، وبأي عمل له يرائي به، والعامل هو الله، كما قال على لسان عبده (سمع الله لمن حمده) كذلك على جميع أعماله بآلة عبده.

وأما قوله: (واحفظ سرك جهد طاقتك) فيريد بحفظه ما يلزم من القيام بحقه، الذي تعين عليك، فإن كان سرًا يجب إظهاره، فمن حقه أن يظهر في موطنه بما ظهر في موطنه، وإن كان سرًا يجب إخفاؤه، فمن حقه أن يخفيه، فإنه ما عين أي سر أراد، فخذ وصيته بالعموم في ذلك، فإنه ما أمرك إلا لتحفظه خاصة، وليس حفظه إلا ما ذكرته لك، وما سُمي سرًا إلا قبل الإطلاع عليه، فإن السر هو ما بينك وبين الله تعالى، من غير أن يطلع عليه مَلك ولا خلق، وهذا ليس ثم أصلاً، ولا فرق إذا اطلع عليه واحد، ليس هو الله أو كثيرون.

وإنما قلنا: إن هذا ليس ثم، من أجل أنه كائن، فقد وقع عندك في دار الدنيا، وما من شيء هو كائن في هذه الدار؛ إلا وقد علمه القلم واللوح، والمعتكفون عليه، فأين [الشيء] (٢) الذي انفردت به دون أحد من خلق الله، هذا ما لا يجده، فما أراد بحفظ السر هذا الشيخ؛ إلا ما ذكرناه من إعطائك حقه خاصة.

---

(١) في (ب): بعمله على من .

(٢) في (ب): السر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله: (فإن وجدت واردًا من جهة الشيخ، في زيارة قبر شيخ من المشايخ) يقول وأنت تعلم عند وروده أن الشيخ يريد ذلك منك، ولا فرق بين ذلك وبين مشافهته إياك بالأمر فإنك فيه على بينة منه، فبادر إلى ذلك كما تبادر إذا أمرك في الظاهر، فإنه قد ظهر في باطنك ذلك كما يظهر باللفظ في ظاهرك، فإنه لابد لكل واحد في هذه الطريقة من علامة تكون بينه وبين ربه، فيما يأخذه عن ربه، أعني من الطريق الذي يحمده ربه، إذ الكل منه، ولكن قد فضل الله تعالى ذلك، فجعل منه بواسطة نفس وملك وشيطان، وبلا واسطة.

فلابد للمريد من فارق، والعلامة ليست محصورة، فكنت أذكرها، فقد كان أبو يزيد - رحمه الله تعالى - لا يأخذ شيئًا من الحق إلا بأربعة شهود، محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، في نور معه لا إله إلا الله، وأما نحن فلنا علامة تخصنا، ليس هي هذه، فلكل شخص علامة بينه وبين الله، تثبت عنده بالذي تثبت النبوة عند النبي أنه نبي في نفسه، وإذا وجد المريد هذا الوارد من جهة الشيخ، وتشهد له العلامة المقررة عنده، أن ذلك من جهة الشيخ، ولا يكون ذلك أبدًا إلا ويعلم الشيخ بذلك، فإن وجده ولا علم للشيخ بذلك، ويتخيل أنه من الشيخ، فقد لُبس عليه الأمر، ولا يكون ذلك واردًا من جهة الشيخ، إلا حتى يكون ذلك مرادًا للشيخ فافهم.

وإذا وجدت ذلك الوارد، فاعمل فيه بحسب ما تعطيه حقيقته من غير تقييد، وأما الذي وصاك به من الفعل إذا وجدت ذلك، فإنه تكلم على وارد خاص، وهو قوله في زيارة قبر شيخ من المشايخ، فامتثل [وصيته] [1] فإنها نافعة في هذا الموطن، ونحن إنما نبهناك على ما يقتضي الوارد مطلقًا، فيعم قولي كل وارد من جهة الشيخ وغيره.

---

(١) في (أ): حسنه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله: (تبيع الكل في محبة الله) فيدلك عن الخروج من نفسك، فإن نفسك هي التي تطلب الكل، وهذا الخطب هين، فإن أبا يزيد يقول في حق المؤمن فأحرى المريد قال: المؤمن لا نفس له، فقيل له في ذلك، فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة: ١١١]، فلا نفس له ولا مال، فإنه قد باعها من الله، واشتراها الله منه بحكم الوكالة من النفس الناطقة، والنفس التي وقع فيها البيع والشراء، هي النفس الحيوانية صاحبة الأغراض والشهوات، فاشتراها من المؤمن بوكالة النفس الناطقة، وعوضها بالجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، والحيوانية هي صاحبة الشهوة، فتسلمت النفس الناطقة الجنة التي هي الثمن، وادخرتها عندها لهذه النفس الحيوانية، فإذا امتن الله على النفس الناطقة يوم البعث بهذه النفس الحيوانية، وردها عليها أبقى لها الثمن لم يرجع الحق فيه، فوهبته النفس الناطقة لهذه النفس الحيوانية، فإنها صاحبة الشهوات، والجنة دار الشهوات، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك مع جابر بن عبد الله t [(١)] كان معه في سفر، فاشترى منه ﷺ بعيره الذي كان عليه، فاشترط جابر على رسول الله ﷺ ظهره إلى المدينة فقبل الشرط، فلما وصل إلى المدينة وزن له ﷺ ثمن البعير، فلما قبضه وهبه البعير نفسه، فجمع له بين الثمن ورد البعير.

فهكذا فعل الله بالمؤمن، الذي هو نفسه الناطقة، لما اشترى منه النفس الحيوانية بالجنة، أعطاه الجنة ورد عليه النفس بالبعث فيها إلى

---

(١) هو الصحابي الجليل جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري من بني سلمة، يُكنَّى أبا عبد الله، شهد العقبة الثانية، وأبوه عبد الله بن عمرو t بدري نقيب، قُتل يوم أُحد. عاش جابر إلى سنة ثمان وسبعين، ومات وهو ابن أربع وتسعين، وقد ذهب بصره، وصلَّى عليه أبان ابن الإمام عثمان وهو والٍ، رضي الله عنهم أجمعين. الانتصار ص(٣٥٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يوم القيامة، بل عند قبضه إياها، وهي الشهادة، فإن الشهادة وهي القتل في سبيل الله، انتقال من يد البائع إلى يد المشتري من غير فوت، فإن المقتول في سبيل الله ليس بميت، ولا يقال فيه إنه ميت شرعًا، فإنه في نفس الأمر ليس بميت، فعندما انتقل ردها الله على النفس الناطقة، كما رد النبي عليه الصلاة والسلام الجمل على جابر عند وصوله، وأعطاه الثمن معًا، فوصف الله سبحانه وتعالى لنا ذلك بقوله عز من قائل ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقال عليه الصلاة والسلام في أرواح الشهداء: «إنها تعلق من ثمر الجنة»[١]، أي: تأكل، وليس ذلك إلا للمقتولين في سبيل الله، وليس ثم من يدخل الجنة بالنقد إلا هؤلاء خاصة.

وأما قوله: (غير أنك تجعل الدخول في ذلك، كبيعك الذي بعته إلى الشيخ، فإن أذن لك بالدخول فيه فادخل فيه، وتكون أنت في ذلك جميعه عارية) يقول هذا لمن كان مريدًا تحت تربية شيخ وفي حكمه، فيخطر لك مثل هذا، فيكون حكمه ما ذكر من عرض ما خطر له في أمر البيع، أعني بيع الكل، فإن الشيخ لا يأمره بذلك إلا بحسب الوقت، وما فيه له مصلحة غير ذلك لا يكون، وذلك أنه في وقت وفي حال آخر لا يأمره بالبيع، بل [توقفه] [٢] على عين الحق في الأشياء، ولا بيع ولا شراء، لأن المالك لا يشتري ما هو له مالك.

ثم قال (فإن كان في يدك مال أو منصب، أو لك زوجة أو ولد، فذلك جميعه للشيخ، إن شاء أبقاه في يدك، وإن شاء أخرجه عن يدك إلى من يريد).

---

(١)

(٢) في (ب): يوقفه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول هذا المتحكم عليه بكل ما يريه الله فيك، فسلم أمرك إليه، وإياك والاعتراض عليه، فيما يتصرف مما هو في يدك، فإنه t ما يفعل بك شيئًا إلا لمصلحة تعود عليك، وهو غير متهم، فإنه وارث رسول الله □ في النظر في المصالح، ولا ينظر في ذلك من نفسه، وإنما ينظر فيما يُلقي الله إليه في أمرك على الطريقة المعهودة، التي بينهم وبين الله ما هم مع النظر العقلي، ولا مع التدبير والرؤية، فإن ذلك قد يوافق ويخالف.

ولما كان الأصل قوله تعالى ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]، لم تر الطائفة أن تتحكم في شيء إلا بحكم الله المعهود بينهم، فإن للأولياء طريقًا يتلقون منها ما يُجري الله على أيديهم، وذلك التلقي يسمى إلهامًا وفهمًا عن الله، ويسمى في حق الرسل وحيًا وتنزيلاً، وشرعًا، وللرسول الأمران، وليس للورثة إلا الأمر الواحد من ذلك، وهو ما ذكرناه، وأصل الطريق في أمر الزوجة خصوصًا دون ما ذكر، أن المريد إذا جاء إلى الشيخ وهو ذو زوجة، لا يفرق بينه وبينها، وإذا جاء وليس له زوجة لا يزوجه، بل يقبله على الحالة التي جاء عليها وبايعه وهو فيها، وكذلك جميع ما بيده في حكم التبع لما ذكرناه هذا أصل الطريق، فإذا شرع الشيخ في غير ما يعطيه أهل الطريق من الجهاد في ذلك، فلا يفعله إلا بأمر إلهي فيه لهذا المريد مصلحة.

والجامع الذي أجمع عليه أهل الله تعالى في رتبة المريد، أن الشيخ يأتي إلى المريد بما يخالف إرادته، وهواه وغرضه، هذا أصل التربية، فإن جاء في أول أمره مُسلِمًا لا غرض له البتة في شيء دون شيء، فهذا قد قطع في الطريق مسافة كبيرة يهلك فيها كثير من الناس، فحينئذ يكون للشيخ معه حكم آخر، ما هو حكم من بقيت عليه فضلة بما هو مالك له، أو متحكم فيه من مال، أو منصب، أو زوجة، أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولد، وليس الاعتراض على الشيخ مما يفوه به لسان المريد، ذلك هو بمنزلة التلفظ بالكفر في حق المؤمن بالرسول، وإنما الاعتراض منه أن يخطر له في نفسه ذلك دون تلفظ به، فليزل ذلك عن نفسه إن كان مريدًا لما قصد، ولا يذكر مثل ذلك للشيخ، فإن إزالة ذلك متعينة على المريد لا على الشيخ، فإن الله تعالى يقول في ذلك ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فلا يتعدى بالشيخ مرتبته ولا بالرسول، فما هو لله فهو لله، وما هو للرسول والوارث فهو للرسول والوارث، فمتى وجد المريد الاعتراض في نفسه ولم يُزله، ولا رجع على نفسه بلائمة، بأن يقول لها: هذا طعن في إيمانك بما قصدت إليه، فإن صحبته مع ذلك الاعتراض القائم به ولم يزله، فهو منافق، وهو المعبر بلسان القوم فيه، غير صادق في طريقه، ومن لم يصدق لا يجيء منه شيء أبدًا، وإن جهل وذكر ذلك الاعتراض للشيخ فهو بمنزلة من ظهر بالكفر للرسول، فواجب على الشيخ أن يُتوبه من ذلك، أو يخرجه عن داره وأصحابه إن لم يتب، كما يجب على الرسول إذا كان صاحب سيف أن يعرض على المرتد التوبة، الذي هو الإسلام، فإن لم يسلم قُتل، وهذا عين إخراجه عن أهله وولده بالقتل، وليس الشيخ مخاطبًا بإزالة الاعتراض، ولا بتوفيق المريد جملة واحدة، وإنما له تربية الصادقين فيه، المسلّمين له، الذين جعلوا أزمتهم بيده يقودهم حيث يرى فيه المصلحة، كصاحب الإبل يطلب بها المرعى الخصيب.

ثم قال: (وكذلك أيضًا أمر الآخرة، يجعله إلى الشيخ، إن شاء أمر بك إلى النار، أو إلى الجنة).

يقول الأمر في نفسه على قسمين: دنيا وآخرة، مكروه ومحبوب، فالمكروه صعب على النفوس، وهو النار حيث كان، والمحبوب هيّن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على النفس، وهو الجنة حيث كان، فالله تعالى قد حف النار بالشهوات، وقد حف الجنة بالمكاره، وهى الأمور التي يشق على النفوس إتيانها، فصار باطن الجنة ظاهر النار، وباطن النار ظاهر الجنة، فمن اتبع طريق الشهوات كانت غايته إلى النار، ومن اتبع المكاره وغلب على نفسه فيها كانت غايته الجنة، وكذلك رأى ذلك الرجل الذي لقيته بالموصل، كان من أهل الكشف من حديثه الموصل، رأى معروفًا الكرخي[1] في وسط النار، فهاله ذلك حتى لقيني، وما كان وجد أحدًا يُعرفه ذلك الأمر، فقلت له: لو دخلت إليه لرأيته في الجنة، تلك النار التي رأيتها هي المكاره، التي اقتحمها في أيام مجاهدته، حتى أفضت به إلى الجنة، قلت: كيف رأيته، قال: رأيته سالمًا لا يحترق، والنار محيطة

---

(١) هو الإمام أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي كان من المشايخ الكبار، مجاب الدعوة، يستشفي بقبره، وكان أستاذ السري السقطى، وقد قال له يومًا: إذا كانت لك حاجه إلى الله فأقسم عليه بي. سمعت سريًا السقطي يقول: رأيت معروفًا الكرخى في النوم كأنه تحت العرش، فيقول الله U لملائكته: من هذا؟ فيقولون: أنت أعلم يا رب.فيقول: هذا معروف الكرخى، سَكِر من حبي، فلا يفيق إلا بلقائي. وقد قال: التصوف هو التوقي من الأكدار والتنقي من الأقذار. ومن فوائده: كلام الرجل فيما لا يعنيه مقت من الله. وقال: إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح عليه باب العمل بما علم، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد به شرًا فعكسه وقال: إذا أراد الله بعبد خيرًا ذوى الخذلان عنه وأسكنه بين الفقراء الصادقين، وإذا أراد به شرًا عطله من العمل الصالح وأسكنه بين الأغنياء وقال: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم.

وقال: التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما بأيدي الخلائق. ومرّ بسقّاء يقول: رحم الله من يشرب، فشرب، فقيل: ألم تكن صائمًا؟ قال: نعم، لكن رجوت دعاءه. وكان يقول: يا نفس، أخلصي تتخلصي. مات t سنة مائتين: وقيل: سنة إحدى ومائتين. [انظر ترجمته الكواكب الدرية رقم (٢٨٣)،الرسالة القشيرية (ص١٢) حلية الأولياء (٨/٣٦٠-٣٦٨) وصفة الصفوة (٢/٧٩-٨٣)؛ وطبقات الشعراني (١/٨٤)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

به، قلت له: يقول لك من أراد أن ينال مقامي فليَلِجِ الغمرات، فسري عنه.

ثم لتعلم أن الأمر صبر وشكر، نعمة وبلاء، فالبلاء يطلب الصبر، والنعمة تطلب الشكر في الدنيا، فقال هذا الشيخ: (وكذلك أيضًا أمر الآخرة) يعني في الدنيا تجعله للشيخ، فإن أمر بك إلى الجنة، أي: سلك بك طريق الراحات، ونيل الأغراض النفسية لما يرى في ذلك من المصلحة للمريد، فإن أمزجة الناس تختلف، فيعلم أن مزاج ذلك المريد الخاص لا يصلح إلا بالنعم، فهو من الشاكرين، ولو ابتُلي بالبلاء والمكاره، لنفر وكفر، والغرض نجاته من المهالك، فبأي شيء حصل ذلك، سلك به الشيخ عليه، فهذا أمر الشيخ بذلك المريد إلى الجنة، وكذلك إذا رأى من مزاجه أن النعمة تفسده وتلحقه بأهل البطر والأشر، وأن الفقر والبلاء يصلحه ويرده إلى الله تعالى، فيعلم الشيخ أنه من الصابرين، فيبتليه بما يكون به صابرًا، وليس إلا المكاره، فيربيه عليها، فيفضي به إلى السعادة وله أجر الصابرين، كما كان للآخر أجر الشاكرين، فهذا أمر الشيخ به إلى النار هنا.

وإما أن يأمر به إلى الجنة من طريق الشهوات والنعم، مع علمه أنه يهلك بها فلا، وكذلك الطريق الأخرى، وليس يريد هذا الشيخ بهذا القول، أن يأمر بها إلى المعاصي التي تقود إلى النار وهي الشهوات المذمومة، ولا إلى الطاعات بالتغالي فيها التي تكسله عن الإتيان بها، بل له t ميزان في ذلك يعرفه، فإن ظاهر قوله: (بالجنة والنار) إذا كانتا هنا هو أن ينظر كل واحدة بما حُفت به في الخبر النبوي الإلهي، والنفوس كلها ليست على مزاج واحد، والشيخ أعرف بالمصلحة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والإيمان، كما قال u «نصف صبر ونصف شكر»[١] فالشكر يطلب النعم والملذوذات، والصبر يطلب المكاره والمشقات، والصبر والشكر حالان منزلتهما في الدنيا، والله يحب الشاكرين كما يحب الصابرين ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فهذا شخص انتقل من جنة إلى جنة، فليحمد الله ويشكره على ذلك، وقد أبنت لك عن مقصد هذا الشيخ بهذا القول، فإن الشيخ والرسول لا يأمر بأحد في حال إرشاده بما يكون غاية طريقه إلى النار هذا ما لا يكون.

ثم قال :(وبالجملة إذا بلغت هذه الغاية، فكن مع شيخك كأنه هو الذي أخرجك إلى الوجود، ويُميتك ويحييك، ويضرك وينفعك به، ويخذلك ويشرفك، ويكسرك ويجبرك، ويعزك ويذلك، بإذن الله U).

يقول: (وبالجملة إذا بلغت هذه الغاية) من التسليم لأحكام الشيخ فيك، فلتعلم أن الله تعالى هو المتحكم فيك، فإن المريد إذا صدق في صحبة الشيخ، لم يجر الله على يد الشيخ إلا ما فيه نجاة ذلك المريد وسعادته، وقد يكون ذلك فيما يسر ظاهره، وفيما يسوء ظاهره، كما ذكر يقول لك: لا تنظر الشيخ من حيث صورته الظاهرة، التي تشبهك بها، وإنما يكون نظرك أن الحق تجلى لك في صورة هذا الشيخ، كما تجلى في صورة الرسول، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فإذا نظرت إلى الشيخ بهذه العين، علمت [أنه][٢] ما يحكم فيك غير الله تعالى،

(١) البيهقي في شعب الإيمان عن أنس t رقم (٩٧١٥) (١٢٣/٧)، والترمذي في نوادر الأصول (٢٠١/١)، والشهاب في مسنده رقم (١٥٩) (١٢٧/١) باب: الإيمان نصفان، والديلمي في الفردوس رقم (٣٧٨) (١١١/١).
(٢) في (ب): أنك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والصورة الشيخية آلة يفعل بها الله فيك ما يأمرك به لسان هذا الشيخ، [فتقيده] (١) ***بإخراجك إلى الوجود من العدم.***

يقول: إخراجك من الشر المحض إلى الخير المحض، الذي هو الوجود، قال لي رسول الحق في بعض الوقائع عن الله: اعلموا أن الشر في العدم، والخير في الوجود، ولكن إذا اتصفت بالوجود، فينبغي أن تكون في ذلك مع الله كما كنت في حال عدمك، عن عدم الاعتراض عليه فيما يفعله بك، فيُحييك بالعلم، ويُميتك عن الجهل، فيجعل لك نورًا تمشي به في ظلمات كونك حتى تقف منك عليك به، بما يلحقك بالأحياء الذين يرزقون، وتعلم أنه قد أماتك عن نقيض ما أنت عليه، وكذلك يضرك بما يأمرك به مما لا يوافق غرضك وتكرهه نفسك، فإنك بايعته على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وينفعك بما تجده عقيب هذا الضرر، كما يجد المريض عافية الدواء المكروه إذا شربه، فيعقبه عافية وصحة.

وقوله: (ويخذلك) بتركه إياك في الموضع الذي تستنصر به، فيما جاءك من نائبات الزمان مما لا يوافقك، لما يرى في ذلك من المصلحة لك.

وقوله: (ويشرفك) يقول بالإقبال عليك بالنصرة في وقت آخر، بحسب الحال، فتشريفه تشريف وجد، لأنه تشريف لمن عقل.

قوله: (ويكسرك) أي: يخيب ظنك فيه عند طلبك نصرته، ومساعدته على دفع صروف الزمان.

وقوله: (يجبرك) يقول إذا كشف لك غطاء العمى، فرأيت ما حصل لك من الفائدة في ذلك الانكسار، الذي كسرك، ولا سيما إن كان مشهودك في الخير لله، فإن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم، فيتطلع

(١) في (ب): فتقييده.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالجبر على عندية هذا الانكسار، فيفرح بذلك، وتعلم أن الشيخ ما أراد بك في ذلك الانكسار؛ إلا ما فيه السعادة لك والبشرى.

وقوله: (ويذلك) بما يعرفك به من عبوديتك.

قوله: (ويعزك) بما يطلعك عليه بأن الله من حيث هو جميع قواك، وظاهر في الوجود بذاتك، والعزة له فتكون عزيزًا، كما قال الله: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ بالله ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] بالله وبالرسول.

وقوله: (بإذن الله) أي: كل ذلك بإذن الله تعالى للشيخ في تصرفه فيك، على هذه الأمور المتضادة.

ثم قال: (فإن بلغ مبلغ الشيخ، سخر الله له السماوات والأرض [بناء] [١] على مقام الشيخوخة) لا أنها الغاية، فإن منزلة المسمى شيخًا في هذا الطريق حظه من ميراث النبوة الإرشاد والتنزيل، وما ذلك لغاية الرسل - صلوات الله عليهم - فلهذا يفضل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] مع التساوي في الرسالة والنبوة، فإنهم من حيث هم رسل حقيقة واحدة، ووقع التفاضل في أمر آخر، كالناس يجتمعون في الحد الإنساني بما هو إنسان، ويفضل بعضهم بعضًا بما هو زائد على الإنسان، فمنزلة الشيخ منزلة الرسول في الإرشاد، ومنزلة الطبيب من علماء الطبيعة، وإن كان الطبيب لم يبلغ الغاية في علم الطبيعة، وما يعلم منها إلا بما هي [مدبرة] [٢] لجسم الحيوان، أو الإنسان، إن كان دون ذلك، فإن زاد على هذا فقد فضل على غيره من الأطباء، ولكن بأمر لا يتعلق بالطب.

---

(١) في (ب): نبأ.

(٢) في (ب): مديرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله: (سخر الله السماوات والأرض) فهو بحكمه في أرواح المريدين وأجسامهم، بالرياضات والمجاهدات، وعلى هذا بايعوه، فمن نكس منهم، فإنما ينكس على نفسه، وليس للشيخ أن يرد بيعة المريد أن يسألها منه، ولكن يقول له: إن رجعت عما بايعتني عليه فذلك راجع إليك، وأما أنا فمن المحال أن أرد إليك بيعتك، فإني مأمور من الله بنصيحتك كما هو الرسول مأمور بالتبليغ، ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له: أقلني بيعتي، فأبى عليه رسول الله ﷺ وقال: «لا أفعل وإن ارتدت كفرًا» وما فعل فارتد ذلك الرجل[1]. والحديث مشهور.

وأما التسخير فالله تعالى يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وتسخير الشيء في حقك، إنما هو أن يوطئك ما في قوته من ما آمنه الله عليكفي حقك فما هو تسخير ذاتي.

قال أبو طالب المكي في الأفلاك: إنها تدور بأنفاس العالم، ومعنى ذلك أن علة دورانها وحركاتها، أنها تعطي التنفيس في النفس، فإنها أمينة على ذلك، فإذا فرغ ما ألقي فيها من هذا العطاء، ولم يبق في العالم متنفس، لأنه لم يبق عندها نفس تعطيه، هلك العالم، وانفطرت السماء، ومات الحيوان، وانتقل العمران إلى الدار الآخرة، فهذا من تسخير السماوات والأرض، فإن الله تعالى جعل الأرض ذلولاً، وقدر فيها أقواتها فيما يخرجه منها، وتسخيرها الخاص كطيها في حق بعض الناس، وكإخراجها أمرًا ما قبل أوانه المعتاد، في عادة الطبيعة لا في الطبيعة، فإنا ما نعرف من الطبيعة إلا على قدرها، وما أعطتنا من أنفاسها، وهذا الذي جاءنا منها قبل أوانه هو أيضًا، منها أعطتنا إياه

(١)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بإذن ربها، فلولا ما في قوتها إعطاء ذلك ما رأينا من ذلك شيئًا، وقد رأيناه.

حكاية: أخبرنا محمد بن عبد الكريم العدل بمدينة فاس، قال: قال أبو الحسن بن حرازم[١] - رحمه الله تعالى - كنت صغيرًا، فمُنع المطر عن الناس، وكان بجبل زيتون رجل مشهور بالصلاح، فخرج والدي إليه وأنا معه، فدخلنا عليه وبين يديه صاج حديد على النار يسخنه، ليخبز عليه عجينًا له، فذكر له والدي امتناع المطر، وسأله الدعاء للاستسقاء، فقال الرجل: ما هو الغلاء من امتناع المطر، ولا تنبت الأرض من كون المطر ينزل فيه، لو شاء الله أن [ينبت][٢] في هذا الحديد الذي على النار سنبلة أنبتها، قال ابن حرازم: فرأيت السنبلة قد نبتت في صاج الحديد وهو على النار، فأخذناها، وفركناها، وأكلناها، فقال الشيخ: إنما ضربتك مثلاً. ومع هذا فما خرج أن يكون هذا مما أذن الله فيه للطبيعة أن تعطيه، فأمرها مجهول، وما تحمله من القوى أجهل وأجهل.

قال ابن حرازم: وجئنا مدينة فاس، وما نزل مطر، فأوقع الله في القلوب الشبع والاستغناء، فجاء الرخاء والعيش، وارتفع الغلاء والسعر، وكثر الخير في اليد، ولم يروا سنة أشد رخاءً منها، مع امتناع المطر ووجود المحل، تصديقًا لما قاله ذلك الرجل الصالح، ولاشك أن الرجل الكامل الذي يظهر في العالم بصورة الحق، حتى يعرفه كل العالم ما عدا بعض الثقلين، فإن السماوات والأرض ومن فيهن، يسبح له ما عدا بعض الثقلين، مسخرات له كما أن السماوات والأرض ومن فيهن، فإذا رأت الصورة الإلهية كان من تسبيحها عين تسخيرها له، فإن

---

(١)

(٢) في (ب): تنبت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإنسان وإن كان على الصورة الإلهية، لا يزول عن حقيقة الافتقار [بهذه][1] الحقيقة يقع التسخير له، فإن الله تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: تنزيهه عن الافتقار، هذا معنى التسبيح هنا، ويكون في حق هذا الإنسان الكامل ذلك التسبيح تسخير لما يراه فيه، من شدة الافتقار إلى الله تعالى على قدر ما يقوم بالإنسان، من الاستغناء بالأسباب من الله، للغفلة التي تطرأ عليه على ذلك القدر يمنع من تسخير العالم، فيتعب في تحصيل أمر ما بنفسه وجسمه، فهذا قد [أثبت][2] لك ما أشار به هذا الرجل في قوله عن الشيخ: (إن الله سخر له السماوات والأرض).

ثم قال: (واحفظ أمرك في ذلك جميعه، فإن حضرت عند أحد ودعيت إلى دعوة، فكُل، وإن كنت صائمًا فلا تظهر أنك صائم، وإن قللت من الأكل فهو أولى).

هذه الوصية لا تصلح أن تكون لمريد بين يدي شيخ، فإنه بحكم الشيخ، وإنما هذه وصية لمن هو مع نفسه [يدبرها][3]، والذي دعاه إلى مثل هذا الخوف عليه من التزين عند الغير، بما هو عليه من العبادة، ورأى أن الصائم في التطوع أمير نفسه، فرأى أن الفطر له أولى من غير إعلام بصومه، وأخلص لعمله، وهذه حالة هذا الموصى، وأنه على نفسه تكلم، وأما الصحيح المعتمد عليه، أنه لا يفطر، ويبقى صائمًا ويدعو لصاحب الدعوى، فيجمع في ذلك بين الخبر وبين أمر آخر هو المطلوب، فأما الخبر قوله u «إذا دُعي أحدكم إلى وليمة

---

(١) في (ب): فهذه.

(٢) في (ب): أنبت.

(٣) في (ب): يديرها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيجب عليه الإجابة، فإن كان مفطراً فليأكل، وإن كان صائمًا فليصل»[١]، أي: يدعو لصاحب الطعام، وأما أمره بالأكل، ومراعاة ذلك في الوجه الذي يذكره، وذلك أن الإنسان إذا شرع في عبادة فإنما هو عقد وعهد يعقده مع الله، فلا ينقضه حتى يتم، فإن نقضه كان من الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، والله يقول أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، ولهذا يرى بعض العلماء أن عليه الإعادة إذا أفطر، وقد ورد [الخبر في ذلك] [٢]، فإذًا ولا من تمشيته أولى من تمشية وصية هذا الشيخ بالأكل لمن كان صائمًا، [فليتنفل] [٣] هذا الشخص بالإعادة، فإنه مأمور بها شرعًا، وإذا كان مأمورًا بها شرعًا فيكون في صومه الأول متطوعًا، ويكون له أجر من تطوع، ويكون في القضاء مؤديًا واجبًا، فيكون له أجر من أدى واجبًا وهو أتم، فلينوي ذلك إن أفطر ولابد، والأول أولى وهو أنه لا [يفطر] [٤]، والمشايخ y يتكلمون بما تقتضيه أحوالهم في أوقاتهم، خاصة المخصوصة بهم بخلاف الكمل منهم، فإنهم يتكلمون بما يقتضيه الوقت في حق السامع، لا في حق المتكلم.

وأما قوله: (وإن قللت من الأكل فهو أولى) هذا يقتضيه طريق القوم أعني التقليل، فإن في ذلك صفاء النفس وتنشيط الجوارح، واستدامة الصحة وقلة الفضول، وقد قال u : «حسب ابن آدم لقيمات

---

(١) رواه مسلم في صحيحه رقم (١٤٢٩) بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**ثم إذا دعي أحدكم إلى وليمة عرس فليجب**» كتاب: النكاح باب: زواج زينب بنت جحش رضي الله عنهما ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس، والإمام مالك في موطئه رقم (١١٣٧) كتاب: النكاح باب: ما جاء في الوليمة، والإمام أحمد في مسنده رقم (٤٧١٢) (٢/٢٠). والنسائي في السنن الكبرى رقم (١٠١٣٢) (٦/٨٢)، وأبو داود في سننه عن أبي هريرة t رقم (٢٤٦٠) كتاب: الصوم، باب: في الصائم يدعى إلى وليمة.

(٢) في (ب): في ذلك خبرًا.

(٣) في (أ): فليقل.

(٤) في (أ): يفعل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقمن صلبه»[1]، فحد الأكل في كل إنسان هو أن يأخذ من الغذاء على قدر ما يعلم أنه لا يضعف عن أداء ما أوجب الله عليه فيه الحركة البدنية، من صلاة وحرفة، وسعي إلى العائلة في كسب معيشة هذا لا غير.

وأما قوله: (واحفظ أمرك في ذلك جميعه) يقول: احفظ أمرك مع الله، يعني أن تقصد في ذلك جميعه القربى إلى الله، في جميع حركاتك وسكناتك، حتى في المباح الذي لا أجر فيه، ولا وزر يؤجر فيه من تكون حالته هذه، وذلك أنه يأتي المباح من حيث أنه مباح، واعتقاد ذلك واجب عليه، وإحضاره هذا الاعتقاد في زمان إتيان المباح، هو مأجور فيه أجر الوجوب، مع التصرف فيما هو مباح له التصرف فيه.

ثم قال (وينبغي لك يا مريد أن تسعى في قضاء حوائج المسلمين، وتأخذك رقة وتجعل نفسك أقل الناس وأفقرهم إلى الله تعالى، وتبتدئ بأهل بيتك ما استطعت، وتؤثرهم على نفسك، وتقدم حاجتهم على حاجتك جهد طاقتك، وتقدم مصالح شيخك على [مصالحك][2] إن رضي منك بالسعي في ذلك، وتؤثره على نفسك حتى بقاؤه على بقاء نفسك، وتكثر التذلل والتضرع بين يديه، حتى لو قدرت أن تكون التراب الذي يمشي عليه فافعل ذلك).

أما قوله: (بالسعي في قضاء حوائج المسلمين) فيريد بذلك أن تقدم حوائج المسلمين في سعيك، وإذا تعرض لك حاجة لمسلم ضرورية، ولغير مسلم، فينبغي لك أن تقدم حاجة المسلمين، كما قدمه

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى عن المقدام بن معد يكرب t رقم (٦٧٦٩) (١٧٧/٤) باب: النهي عن رفع الصحفة حتى تلعق، وابن حبان في صحيحه رقم (٥٢٣٦) (٤١/١٢) ذكر وصف أكل المسلمين، وابن ماجة في سننه رقم (٣٣٤٩) كتاب: الأطعمة، باب: الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع.

(٢) في (ب): مصلحتك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله بعنايته به في إعطائه الإسلام، وحرم غيره من ذلك، فإن الله تعالى قد جعل في ذلك مراتب عينها، فيما ينبغي أن يقدم، كالجار الأقرب على الجار الأبعد، وكالزوج على الولد، وهو قطعة من الكبد، وإنما مراد القوم السعي في قضاء حوائج الخلق كلهم على الإطلاق، تخلقًا بالله تعالى في ذلك، فإن الله تعالى كل يوم هو في شأن الخلق من أوله إلى آخره، من دخل الوجود منه ومن لم يدخل، فإن متعلق الشغل إيجاد المعدوم وهو الله تعالى.

والشغل بقضاء حوائج الخلق أتم تخلق يتخلق به [العبد] [(١)]، فإنه ساع في إيجاد المعدوم، لأن صاحب الحاجة ما عنده ما هو محتاج إليه، فيسعى هذا العبد في إيجاد ذلك عنده، ألا ترى البَغِي حين رأت كلبًا يلهث عطشًا، فنزعت خُفها وأخرجت به من البئر ماءً، وسقت الكلب، فشكر الله فعلها، فغفر لها بشربة كلب، فكيف لو كان إنسانًا؟ كيف لو كان مسلمًا؟ والله يقول: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، فما له شغل إلا بالعالَم لأنه ما له شئون إلا فيما سواه، فهو الموجد على الدوام بيده ملكوت كل شيء، فإذا سعيت في قضاء حوائج الخلق كنت بهذه المثابة، صاحب صفة إلهية، ومن اتصف بصفة إلهية وتحلى بها، أوصلته تلك الصفة إلى رتبتها ومنزلتها من الله.

وأما قوله: (وتأخذك رقة) فإن النبي ﷺ يقول: «في كل كبد رطبة حراء أجر»[(٢)]، وهذه البغي ما جعلها تسقي هذا الكلب العاطش؛ إلا رقة وشفقة قامت [لقلبها] [(٣)]، فشكر الله فعلها فغفر لها بالفعل، وأما ما

---

(١) في (ب): الغير.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة t مرفوعًا رقم (٢٢٣٤) ولم يذكر لفظة (حراء) كتاب: المساقاة باب: فضل سقي الماء، والإمام مسلم في صحيحه رقم (٢٢٤٤) كتاب: السلام باب: فضل ساقي البهائم، والإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده y رقم (٧٠٧٥) (٢/٢٢٢)

(٣) في (ب): بقلبها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعطيها [الرقة] (١) التي قامت بها، فما يقدر قدر ذلك إلا الله تعالى، ولقد حدثني الوجيه الحسن المدرس بـ (ملطية) من أولاد سليمان الفارسي، عن والي (بخاري) أنه كان سائرًا، فرأى كلبًا أجربًا في يوم شديد البرد، فأخذته عليه رقة، فأمره وزعته أن [يأخذ] (٢) الكلب إلى البيت، وأحسن إليه وجلله، وأضرم له نارًا، وجعله في موضع حتى دفيء، وأطعمه وسقاه، فرأى فيما يرى النائم هاتفًا يهتف به، وكان ظالمًا في ولايته: يا فلان كنت كلبًا فوهبناك لكلب، فبعد ثلاثة أيام [أدرج] (٣) إلى رحمة الله، وكان له مشهد عظيم مثل مشاهد المشهورين في العامة بالصلاح، وجعل الله له في النفوس القبول والثناء الجميل، كما هو أقبل على ذلك الكلب، فهذا ثمرة تلك الرقة التي اتصف بها.

وأما قوله: (وتجعل نفسك أقل الخلق وأفقرهم إلى الله تعالى) يشير بوصيته إلى التواضع، حتى تكون مثل الأرض الذلول، يطؤك البر والفاجر، وكالشمس مع علوها ونزاهتها، تطرح شعاعها على المزابل والقاذورات، وما تنزه نفسها عن ذلك، فهكذا ينبغي أن يكون المؤمن عليه مع الخلق، ولا ينظر إلى ما هو عليه من طاعة ومعصية، وكفر وإيمان، ولا تحجبه حقارتهم عن ذلك، فإن الله تعالى ما يدري هذا العبد، بما يختم لكل واحد على التعيين، ولهذا ذكر القشيري - رحمه الله تعالى - عن بعض السادات حين ذكر المشايخ أنه قال: من ظن أنه خير من فرعون فهو متكبر (٤).

---

(١) في (ب): بالرقة.

(٢) في (ب): تأخذ.

(٣) في (ب): درج.

(٤) الرسالة القشيرية (٧٦/١) وهذا القول من كلام الإمام أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار نيسابوري، منه انتشر مذهب الملامتية بنيسابور، صحب سلمان الباروسي، وأبا تراب النخشبي.مات: سنة إحدى وسبعين ومائتين. سئل حمدون: متى يجوز للرجل أن يتكلم على الناس؟ فقال: إن تعين عليه أداء فرض من فرائض الله تعالى في علمه، أو خاف هلاك إنسان في بدعة، وهو يرجو أن ينجيه الله تعالى منها.ومن أقواله أيضًا: إن استطعت ألا تغضب لشيء من الدنيا، فافعل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فينظر العبد نفسه مسخرًا لجميع الخلق، فمن حيث أنه مسخر لجميع الخلق بتسخير الله، يجعل في نفسه أنه أقل الخلق قدرًا، لأن مقدار المسخر بالنظر إلى من سخر له دونه، وهو مسخر لأقل الخلق قدرًا، فهو أقل عند نفسه من ذلك الأقل، يقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِياً﴾ [الزخرف: ٣٢]، فسخر الأرفع للأدنى لما هو مسخر فيه، فاجعل بالك لهذه المسألة، فإنها نافعة جدًا في باب المعرفة، وكون العامة والرعايا مسخرة بسلطانها في مهماتها مع علو السلطنة والإمامة.

وأما قوله: (وأفقرهم إلى الله تعالى) [فإن الخلق كله فقير إلى الله تعالى لا أنه] (١) ***يطرأ عليه عوارض نفسية من روائح العزة الإلهية، بقدر ما [حصله]*** (٢) ***من الصورة الإلهية التي فُطر عليها، فإن كل إنسان يجد في نفسه أوقاتًا عزة ورفعة، ولا يعرف سببها، وليس إلا كونه على الصورة الإلهية، ولا سيما وما يمشي عليه زمان؛ إلا وهو متخلق فيه باسم إلهي، وليست الرتبة الإلهية في الصورة إلا عين هذه الأسماء، فيشتغل العالم من غنائه بالله بفقره إلى الله تعالى، فهو أولى به فدله على الأولى والأوجب، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فيكون هذا العبد من أفقر الخلق إلى الله، أي: أقلهم مشاهدة لغناه بالله، وعزته بالله، في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فشرفه في ذلك، وفقره هو عين غناه عن العالَم، فإضافته واتصافه بالفقر إذ هذا الأصل أولى به من اتصافه، وإضافته إلى الغنى بالله، فإنه الفرع***

(١) سقط في: (أ).

(٢) في (ب): حصل له.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاعتماد على الأمور الذاتية الأصلية، لا على العوارض الطارئة الفرعية، فاعلم ذلك.

وأما قوله: (وتبتديء بأهل بيتك ما استطعت، وتؤثرهم على نفسك) فاعلم أن الله تعالى فيما شرع قد رتب لك وعين من تقدم، فهذا قوله: (ما استطعت) فإنه قد يجيء مواطن يقول لك الحق فيها بلسان الشرع: قدم نفسك، فما أنت مستطيع في ذلك الوقت بحكم الشرع وعليك، وإنما استطاعتك فيما أنت مخير فيه، فتقدم عند ذلك الأولى فالأولى، وتتصف عند ذلك بالإتيان، وأما إذا تساوت الحاجات في الكل، فلتقدم من قدمه الشرع، فإنه الأوجب، ثم الذي يليه حتى ينتهي إلى الآخر في الوجوب، وفي الأفضلية، فإن الإنسان بترك الواجب يكون عاصيًا، وبترك الأوجب يكون ناقص الحظ في الهمة.

وانظروا في قوله u «ما نهيتكم عنه فانتهوا» مطلقًا «وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم»[1]، فجعل الاستطاعة في الأمر، وأمر بامتثال النهي مطلقًا، وقد نهى عن الصلاة النافلة بعد العصر، وقد أمر بتحية المسجد للداخل فيه، فإذا دخل العالِم المسجد بعد العصر فالذي يترجح عنده أنه لا يصلي، للنهي الوارد الذي أمر باتباعه من غير تقييد، ويكون ممتثلاً لأمر الله تعالى أيضًا، فإنه قال فيه: «فاتوا منه ما استطعتم» فيقول: يا رب لم يتركني نهيك مستطيعًا للصلاة عند

---

(١) رواه البخاري في صحيحه رقم (٦٨٥٨) بنحوه عن أبي هريرة t عن النبي ﷺ قال: «**دعوني ما تركتكم إنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**» كتاب:الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم، ومسلم في صحيحه رقم (١٣٣٧) كتاب: الفضائل، باب: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، وابن حبان في صحيحه بنحوه رقم (١٨) ذكر البيان بأن المناهي ﷺ والأوامر فرض على حسب الطاقة على أمته لا يسعهم التخلف عنها، والإمام أحمد في مسنده رقم (٧٣٦١) (٢/٢٤٧)، والترمذي في سننه بنحوه رقم (٢٦٧٩) كتاب: العلم، باب: في الانتهاء عما نهى عنه رسول الله ﷺ وقال: حديث حسن صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دخول المسجد وهو الأولى، فهذا فائدة قوله: (ما استطعت وجهد طاقتك) فإن العالِم بحكم العلم فيمشي أحواله في نفسه على السداد، فإن الإنسان إذا مشى في أحوال غيره، فإنما هو ماشٍ في أحوال نفسه، فإن سعيه على الإطلاق إنما هو له إذا كان في الصلاح، كما هو عليه إذا كان في الإساءة، يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠]، فتكون مرتبته بحيث رتبة سعيه، بحيث رتبة من سعى في حقه يميز ذلك الشرع الحق، فهو [الميزان] (١) الموضوع في الأرض، الذي يتعامل به المستعملون له.

وأما قوله: (وتقدم مصالح شيخك على مصلحتك إن رضي منك بالسعي في ذلك) يقول النبي ﷺ «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله، و ماله، وولده، والناس أجمعين»(٢)، وهو من جملة الناس، فلابد أن يكون الرسول أحب إليه من نفسه، مع أنه لا يحبه إلا من أجل نفسه، فلنفسه أحبه، لأن ثمرة ذلك الحب إنما يحصل لنفسه لا يعود على ذلك المحبوب منه شيء، إلا إن دفع عنه في الوقت ما يضره خاصة، فمن المصالح في ذلك أن يقوم في الذب عن عِرضه، ويسعى في دفع الضرر عنه، ويتقي ذلك كله ويتلقاه بنفسه.

ولذلك قال: (وتؤثره على نفسك) فإن ذبك عن الرتبة التي أنزله الله فيها، والله قد أثنى عليها وعظمها، حيث جعلها خلافة عنه في حق من استخلفه عليها ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وأي شعائر أعظم من مراتب الدعاء إلى الله، الأدلاء عليه، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]،

(١) في (أ): الميراث.

(٢) سبق تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأي حرمات أعظم من حرمات الدعاة إلى الله، الأدلاء عليه، وهم الرسل والورثة، المعبر عنهم بالشيوخ.

حتى قال في وصيته هذا الشيخ: (وتقدم بقاءَه على بقاء نفسك إن قدرت على ذلك وقبل منك في موطن فافعله) وهو أن تفاديه بنفسك، فإن التقوى هي نسب الله، [والتقي] (١) هو الذي جعل نفسه وقاية لله، يتقي بها جميع ما ينسب إليه، ويرمي به من سهام الصفات المذمومة، فيكون العبد [محبًا] (٢) لها يتلقاها بنفسه، فلا تصل إلى الحق، فإن الله تعالى قد وصف نفسه بأنه يؤذى، فتسمى بالصبور على ذلك مع [ميل] (٣) هذا الموطن يفادى العبد المؤمن ربه بنفسه، والشيخ خليفة الله عليه، فيفعل في حق شيخه فيما يؤذى فيه ما يفعله في حق [الله] (٤)، وهذا يجب عليه في حق كل من له هذه المرتبة، سواء كان الشيخ معدومًا قد درج، أو موجودًا، أو كان شيخه الذي يسند إليه، أو شيخ من المشايخ ممن له رتبة الإمامة والخلافة والمقام.

وأما قوله في حق من هو بين يدي شيخه وفي حكمه:(أن يكثر التذلل بين يديه)، وذلك أنه لا يريد ألا يكون له تصرف في نفسه إلا ما يتصرف فيه به شيخه، فإنه يستجلب بذلك قلب الشيخ، وإذا كان قلبه معه عظمت المنفعة، فإن قرب المشايخ من المريدين الذين بين أيديهم، قرب الحق من المؤمنين، الذين يطلبون القرب إلى الله، وهو القرب المضاعف، فقرب الحق من المؤمن، إذا اقترب منه بما أمره به من التقرب إليه ضعفان من قرب المؤمن إليه، وإنما كان ضعفين لسر خفي

---

(١) في (ب): والمتقي.

(٢) في (ب): بمحنٍ.

(٣) في (ب): مثل.

(٤) في (ب): ربه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحرم كشفه، ولكن نومئ إليه، فإن القرب من الله يكون بالغنى بالله، وبالفقر إلى الله، وليس في وسع الكون أن يجمع في النفس الواحد بين القربين، فإنه واحد المشهد، فإذا كان شهوده بالغنى بالله، لم يسع الوقت أن يكون شهوده فيه الفقر إلى الله، وإذا كان شهوده الفقر إلى الله، لم يكن في قوته الغنى بالله مشهودًا له، وإن كان كِلا الأمرين صفة له، ولكن ليست هذه الصفة المستحقرة له، وهذا هو أضعف قرب إلى هذا العبد، فإنه الغني الحميد، فقربه إلى العبد قرب غنى عنه، فهو متفضل عليه بالقرب منه.

وثم أمور لا يمكن وجودها عن الله إلا به، فهو كآلة للصانع، فإذا ظهر من العبد فعلاً إلهيًا، يقتضي ألا يكون منه ذلك الفعل إلا بقرب الحق إليه، فذلك القرب هو الذي ضاعف القرب الأول، فصار ضعفين من قرب العبد إليه، ولذلك قال: «من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا» والذراع شبران فمن ذلك ذراعه، «ومن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا» فإن الباع ذراعان ممن ذلك باعه، «ومن أتاني يسعى أتيته هرولة»[1]، والهرولة ضعف السعي ممن ذلك سعيه، فذكر التضعيف بالمثلين، وهو عين القرب الذي أوردناه من قرب الغنى والفقر إن فهمت والله الغني الحميد، وفي هذه المسألة تفصيل طويل وهذا القدر فيه كفاية ومقنع لأصحاب الإشارات والله ولي التوفيق.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة t رقم (٦٩٧٠) كتاب: التوحيد باب: باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، ومسلم في صحيحه رقم (٢٦٧٥) كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب الحث على ذكر الله تعالى، والحاكم في المستدرك بنحوه رقم (٧٦٢٥)(٤/٢٧٥) وقال صحيح الإسناد، والترمذي في سننه عن عائشة رضي الله عنها رقم (٣٦٠٣) كتاب: الدعوات عن رسول الله □ باب: في حسن الظن بالله U وقال: حديث حسن صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال (فإن طردك، أو زجرك، أو نهرك،أو لطمك، أو ضربك، فازدد أنت له رقة وتواضعًا، وكلما كرر عليك ذلك فزد أنت فيه محبة، وتذللاً ورقة وانكسارًا بين يديه، فإنه يقصد تهذيبك وتربيتك، ويمتحنك بذلك، يفعل ذلك كله مصلحة لك يعلمها الشيخ، وتجهلها أنت).

أما قوله: (إن طردك) فلا يخلو في طرده إياك، أن يعين لك جهة تمشي إليها، أو لا يعين، فإن عين لك في الطرد بجهة تمشي إليها، فاقصد تلك الجهة امتثالاً [لأمره] [(١)]، ولا تبرح بها حتى يرضى عنك، وإن لم يعين لك فلا تبرح خلف الباب ليلاً ونهارًا، إلا في أوقات تحتاج فيها إلى الطهارة لأجل الصلاة، واتخذه مسجدًا حتى يرضى عنك، ويقربك، أو تموت على تلك الحالة.

حكى القشيري - رحمه الله - أن شيخًا أمر مريدًا بالخروج من عنده مطرودًا، فلما قفا امتثالاً لأمر الشيخ، استدعاه الشيخ، قال له: ما وقع في نفسك أن تفعل، فقال المريد: عزمت على أن أحتفر لنفسي حفرة على باب دارك، وأدخل فيها حتى أموت أو ترضى عني، فقال الشيخ: مثلك يصلح لخدمة الشيوخ، وأدناه وقربه، وقدمه على الجماعة[(٢)].

---

(١) في (ب): بأمره.

(٢) الرسالة القشيرية (٨١/١) هو من حكايات الشيخ أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الجبري المقيم بنيسابور. وكان من الري صحب شاه الكرماني، ويحيى بن معاذ الرازي ثم ورد نيسابور، مع شاه الكرماني؛ على أبي حفص الحداد وأقام عنده، وتخرَّج به، وزوجه أبو حفص ابنته. مات سنة ثمان وتسعين ومائتين، وعاش بعد أبي حفص نيفًا وثلاثين سنة.ومن أقواله سمعت أبا الحسين الوَّراق يقول: سمعت أبا عثمان يقول: الصحبة مع الله: بحسن الأدب؛ ودوام الهيبة، والمراقبة.والصحبة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باتِّباع سنَّته، ولزوم ظاهر العلم.والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة.والصحبة مع الأهل: بحسن الخلق.والصحبة مع الإخوان: بدوام البِشر ما لم يكن إثمًا. والصحبة مع الجهَّال: بالدعاء لهم والرحمة عليهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واتفق لشيخنا علي بن عبد الله بن جامع، أخبرني بنفسه يوم ألبسني الخرقة التي ألبسه الخضر إياها بنفسه، وبحضور قضيب البان، قال لي: كنت أخدم عليًا المتوكل، وكان من الرجال الكمل t قال: فغضب عليّ يومًا لأمر رآه، فأنزلني من حجرته، وفتح الباب وصفعني وأخرجني، فحصلت رجلي الواحدة في الأرض، والأخرى على درجة كانت خلف الباب، وفارقني الشيخ وأنا على تلك الحالة، وأغلق الباب في وجهي، ودخل منزله، فبقيت على تلك الحالة التي فارقني الشيخ عليها أيامًا ليلاً ونهارًا، لا أنزل رجلي من على تلك الدرجة، والأخرى على الأرض، إلا في أوقات الصلاة من أجل الصلاة، فإذا صليت عدت إلى حالتي، وإذا كان النوم نمت على تلك الحالة، لا أتغير عنها، فسأل الشيخ عني بعد أيام بعض أصحابه، فقال له: ما فعل علي؟ فقيل له: هو على الحالة التي فارقك عليها، وزال بصرك عنه، فقيل: كيف تقول؟ قال: هو بما قلت لسيدي، قال: ففتح الشيخ الباب، وخرج إليّ بنفسه وعانقني، وقبل بين عينيّ، وأدخلني منزله، وما زلت حظيًا عنده إلى أن دُرج.

فطرد الشيوخ ما هو طرد، وإنما هو تأديب، فلا ييأس المريد في ذلك الطرد من رحمة الشيخ، فإنها رحمة به، ولو مات في حال طرده، فإنه ما جرت عادة الشيوخ الداعين إلى الله أن يطردوا واحدًا من باب الله، وإنما ذلك أدب في حق المريد، فإن كان طرده إياه، لعلمه أنه ليس له عنده شيء فيعرفه، ويقول له: ما أنت لي، ومالك عندي شيء فلا تتعب نفسك، فانظر غيري، ويُعين له شيخًا آخر يعلم أنه له عنده شيئًا، فإن علم أنه لا يجيء منه بشيء لما يطلبه المريد، [وأنه] (١) وليس له في أهل الاختصاص اسم لا يُعرفه بذلك، فإنه من أضر شيء في الطريق

(١) زيادة في (ب).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عند الله، فليكرمه وليعامله معاملة الأجانب الذين يقصدون رؤية الشيخ على طريق البركة، لا على طريق التربية، ولا يأمره ولا ينهاه، ولا يتحرك في حقه بحركة مع المريدين الذين عنده، فإن كان المريد فطنًا يعلم أنه لا يجيء منه شيء لما يطلبه، ومع هذا فليوف ذلك الشخص خدمته واحترامه للشيخ، ولا يفارق خدمته، ولا الأدب معه، كما كان قبل ذلك، وإذا أغرض الشيخ في أمر ما يقدر هذا المريد على قضاء غرض الشيخ يفعله من نفسه ابتداءً، من غير أمر الشيخ له بذلك، فإن الشيخ لا يأمره أبدًا ولو أمر الأجنبي، فإن هذا لا يأمره أبدًا أصلاً، لئلا يقع في نفسه أنه كما كان من أصحابه.

ومهما زجر الشيخ المريد، أو نهره أو ضربه، أو لطمه، فليعلم أنه مقبول عند الشيخ، ولولا ذلك ما تحكم عليه، فإن الشيوخ لا يصدر منهم في حق المريدين مثل هذا التحكم في بشريته، أو في حاله وهو يراه أجنبي عنه، بل ما يفعل ذلك معه إلا لعلمه أنه يجيء منه ما يريده به ويقبله استعداده، [وهي][(١)] بشرى من الشيخ للمريد، فإنه يفلح، فإن الشيوخ لا يتحركون في بشرة المريد، ولا في حاله بحركة يمكن لو دعاه من أجلها إلى الشرع اقتص منه الشرع له، أو حكم عليه، كما يفعل مع الأجنبي، سواء هذا ما لا يقع من الشيخ أبدًا الذي هو شيخ حقيقة، وقد يقع من المتشيخين مثل هؤلاء، فهم [ليسوا شيوخًا، ولا من أهل الطريق][(٢)].

فالشيخ لا يتحرك بحركة يقوم عليه بها حجة عند الشرع، فتحكمه في المريد بمثل هذا التحكم دليل واضح عند أهل الله على سعادة هذا المريد، ولا يكون هذا أيضًا من الشيوخ ابتداءً؛ إلا عقوبة لزلة وقعت

(١) في (ب): وهو.

(٢) في (ب): ليسوا بشيوخ ولا هم من أهل الطريق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من المريد في ظاهره أو باطنه، ولا يجوز في هذا الطريق للشيخ أن يعفو عن زلات المريدين، إذا أطلعه الله عليها، وأي شيخ لم يعاقب المريد على زلته الباطنة والظاهرة فقد خانه في التربية، يقول رسول الله ﷺ «من أبدى لنا [صحيفة] (١)، أقمنا عليه الحد»(٢)، يعني في الجنايات التي تقام فيها الحدود، فحكم هؤلاء الشيوخ في البواطن، حكم الرسل في الظواهر، وإنما كانت مرتبة الرسل تقتضي الظاهر دون الباطن، ويقبلون المنافقين مثل ما يقبلون المؤمنين، لأنهم جاؤا بذلك من عند الله تعالى لجميع أمتهم عمومًا، والشيوخ ليسوا كذلك، ما جاؤا إلى الناس ولا أُرسِلوا إليهم، وإنما جاء الناس إليهم، وطلبوا منهم تطهير بواطنهم، والوقوف على عيوب أنفسهم، وبايعوهم على التحكم فيهم، لما يرون فيه المصلحة لهم ظاهرًا وباطنًا، فتعين على الشيوخ الأخذ بزلات البواطن، كما تعين على الرسل والحكام الأخذ بزلات الظواهر، ويحرم عليهم العفو عن ذلك، إذا طلبت الجناية إقامة الحد على الجاني.

وأما قوله: (إذا فعل معك ذلك الشيخ، فازدد له رقة) يعني بالرقة هنا المحبة، أي: ازدد فيه محبة حيث لم يسامحك، وكذا الإخوان في الله، والصحبة في الله لا يسامح بعضهم بعض في الله.

يقول أهل الله: لا زالت الصوفية بخير ما تنافروا، فإذا اجتمعوا فلا خير فيهم.

يقول ما عندهم شيء من المداهنة، بل هم بريئون منها، فلا يقبل الأخ من أخيه إلا ما يعلم أن الله يقبله منه، ويرد عليه ما يعلم أن الله يرده عليه، ويعامله في حق الله بكل ما أمر الله به أن يعامله، وأما ما يرجع

---

(١) في (ب):صحفة.

(٢) سبق تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منه إلى نفسه فيعفو عن ذلك ويصفح، ويصلح ويحسن، هكذا أهل الله، فكيف الشيوخ؟.

والفرق بين الشيخ مع المريد، والأخ مع أخيه في الله، أن الأخ يعفو عن زلة أخيه في حقه، وليس للشيخ أن يعفو عن زلة المريد في حقه، فإن حق الشيخ حق الله، ولا سبيل إلى العفو عن حق الله، كالحكم الظاهر المشروع في مثل الزان والسارق، لو تاب بين يدي الحاكم بعدما وصل أمره إلى الحاكم، ورد المال الذي سرقه كله لم ينجه ذلك، ولا دفع عنه الحاكم قطع يده، ولا جلد الزاني وإن كان عذبًا أو رجمه إن كان ثيبًا، فحقوق الله لا عفو فيها من [الحاكم] (١)، فإذا كان يوم القيامة لم يبق حاكم إلا الله تعالى، حينئذ لله في الجاني أن يعفو عن حقه أو يأخذه به.

فلما كانت حقوق الشيخ على المريد من حقوق الله، لذلك لم يجز للشيوخ العفو عنها، والزلات التي تقع من المريدين في حق الشيوخ مما يعفى عنهم حقها [في العامة، أي يجوز للعامة أن يعفو عنهم في ذلك به، فليس للشيوخ العفو عنها] (٢) فإن حرمتهم واجبة عليهم، ولا يقع زلة من المريد في حق الشيخ؛ إلا مع سقوط الحرمة، وإذا سقطت الحرمة من قلب المريد، لم ينتفع بذلك الشيخ أصلاً، فيتعين على الشيخ طرده عنه حتى ترجع إليه الحرمة، فإذا رجعت حرمة الشيخ لقلبه عاد إلى خدمته، ولا يعاقبه قط إلا بالمراد منه، ومهما لم يطرده فقد خان الله فيه، ويحسب المريد أنه على شيء وإن نزل عن الطرد عن بيته، فلا

---

(١) في (ب): الحكام.

(٢) سقط في (أ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أقل من الإعراض عنه وعدم الالتفات إليه، فيعلم أنه قد [جنى] (١) ***ما أوجب عليه مثل هذا من الشيخ.***

حكى القشيري - رحمة الله عليه - أن شخصًا خدم شيخًا، فرأى منه ما أنقصه في عينه، وذلك أنه رأى الشيخ يعجن العجين، وكان خبازًا بعريفات، فلما علم الشيخ منه ذلك طرده عنه، وقال: لا تصحبني، فإن الحرمة التي كنت تنتفع مني بها قد سقطت عنك، فإذا زال عنك ذلك حينئذ تنتفع، ففارقه، فلما زال عنه ذلك رجع إليه، فانتفع به (٢)***.***

فحرمة الشيوخ حرمة الله، فإنهم نواب الله عليهم وفيهم، وفرحة المريد بضرب الشيخ وانتهاره، أعظم من فرحته بإقباله عليه، فإن في ضربه إياه لا يحتاج إلى ميزان، وفي إقباله يحتاج إلى ميزان، وإن قبول الشيخ على المريد قد يكون لمصلحة المريد في ذلك، لعلمه بما هي عليه النفوس، فثم نفس لا تصلح إلا بالغنى، وثم نفس لا تصلح إلا بالفقر والضيق والمعيشة الضنك، ولو استغنت لبطرت وكفرت، وثم نفس لا تصلح إلا بالذل والهوان، وثم نفس لا تصلح إلا بالعز والإقبال، فقد يكون هذا المريد الذي يُقبل عليه الشيخ لا يصلح إلا بالإقبال عليه، فلابد للشيخ أن يُقبل عليه، لأنه لا يعامله إلا بما للمريد فيه المصلحة، وذلك واجب على الشيخ.

وقد يكون إقبال الشيخ على المريد مكرًا من الله به، واستدراجًا كما ذكرنا، ويكون إقباله عين البعد، فلهذا يحتاج إلى ميزان، وقد بينا فيما قبل وهو أن [يعلم حد] (٣) ***إقبال الشيوخ على الأجانب، فلا يفرح بذلك، ويعلم أنه مطرود، وإذا لم ير منه إقباله على العوام، فليبشر***

---

(١) في (أ): جلى.

(٢)

(٣) في (ب): تعلم جد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بخير، ويعلم أنه على منزلته من الإرادة، فاعلم ذلك، فلابد للمريد من هذا الميزان، وأن يكون فيه يقظة، ويتعين على الشيخ إذا رأى المريد قد استقل ونال الرتبة، وساواه أو زاد عليه، أن يتأدب معه إن ساواه بأدب الأكفاء، وإن زاد عليه تأدب للمرتبة التي زاد عليه بها، وقد فعل شيوخنا معنا ذلك، حتى جلسوا بين أيدينا، فإن الأدب إنما هو مع المرتبة، فاعلم ذلك، فإنا نعلم أن الرسول ﷺ قد ساويناه في الإنسانية، وقد أمرنا الله أن نعزره ونوقره، وما ذلك إلا للمرتبة التي أنزله الله فيها لا بعينه، وكذلك السلطان، وكذلك أولياء الله، وبالرتبة علا الناس بعضهم على بعض، فلا يفوتنك استحضار مثل هذا في خاطرك، والله الموفق لا رب غيره.

ثم قال: (يا مريد، فاقبل ذلك إن كنت محبًا صادقا، ومريدًا صافيًا، فإذا أنابك أمر في دنياك، أو دينك، والعياذ بالله من النائبة في أمر الدين، فاقصد شيخك، وشيخ شيخك، وإخوة الشيخ، وتوسل إلى الله بهم، فإنه ما ينقطع عنك نظر الشيخ حيًا وميتًا، لأنه فوض الله سبحانه إليه تربيتك، فما ينقطع نظره عنك، وكن في ذلك على يقين، وكذلك أيضًا، أُقصد مريدي الشيخ إخوانك، فإنهم يقصدون الشيخ في حقك، ويتوسلون إلى الله بالشيخ، والهمم تؤثر، ثم لا تكن عجولاً في أمرك، فإن المستعجل قريب من العطب).

أما قوله: (يا مريد) بحرف النداء، فلبعده في الوقت عما دعاه إليه فيما أوصاه به، وإن كان فيه ما أوصاه به، فللدوام عليه والثبات، فإن النداء قد يكون من مكان قريب مثل هذا المتصف، فناداه من قريب، وقد يكون مكان بعيد، وهو إذا كان فاقدًا لما أوصاه به، وأما النداء الذي يكون من الإنسان لنفسه، وهو الداعي الذي يدعوه إلى الخير من سره وباطنه، فإنه جمع بين القريب والبعيد معًا، فإن دعاه من نفسه لنفسه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالخير، خُير في نفس الأمر، فهو نداء قريب، وكونه يأمره وذلك النداء بفعل أمور ما هو عليها في الحال، فهو نداء من مكان بعيد، لأنه من المواطن الذي يدعوه إليه.

وهكذا كل نداء وقع في القرآن، وفي كلام الناس، ولهذا قيد بعض المشايخ في تفسير الإشارة أنها نداء على رأس البعد، إذ قد تكون نداء على رأس القرب، إذا وقعت من الشخص لجليسه، إذا كان ثم ثالث لا يريد المشير تعريفه بما يشير إلى جليسه الآخر.

وقوله: (فاقبل ذلك) يعني ما أوصاه به، فإن كان فيه فمعناه أثبت عليه ودُم، وإن لم يكن فيه فمعناه على ما تلفظ به.

ثم قوله بعد ذلك في شرطه في القبول: (إن كنت محبًا صادقا) فهو المراد (أو مريدًا صافيًا) وهو مريد، فإن المراد أول ما يرزقه الله الحب، فيكون محبًا فيلتذ بجميع ما يدعوه محبوبه إليه، إذا كان صادقا في حبه إياه، (أو مريدًا صافيًا) وهو الذي يجد المنع، فيتحمل ما يدعى إليه بالمجاهدة والمكابدة، لما شق عليه ذلك، وهذا يقع الشرط في مبايعة الإمام على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، أي: فيما تستحليه النفوس، فتنشط لعمله إذا أمرها به الإمام، أو فيما تمجه النفوس، ويثقل عليها وتكرهه، ومع الكراهة تفعله، والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [الرعد: ١٥] كما كان له تعالى، فهو بلا خلاف طوعًا وما كان من أجله فمنه ما يكون طوعًا، ومنه ما يكون كرهًا، ويحمله على فعله المكروه عنده، إما رغبة أو رهبة، دنيا وآخرة، فإن فعل ذلك تعظيمًا للأمر، فذلك محب عارف، فإنه لو لم يخف ولا يزجر لم يبادر إلى فعل [يشق] (١) عليه فعله.

---

(١) في (أ): سبق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما التعظيم فخارج عن الخوف والرجاء، وهو قول النبي ﷺ في حق صهيب لما أثنى عليه «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»[١]، وهو [غير ما ذهبت] [٢] إليه من الفعل الشاق لما يجده الإنسان في نفسه، من تعظيم ما أمره به مع ارتفاع الخوف عنه من جهة ما، والرجاء فيما عنده.

وأما قوله: (فإذا أنابك أمر في دنياك أو دينك، فاقصد شيخك، وشيخ شيخك، وإخوة شيخك، وتوسل إلى الله U بهم في ذلك) فهو قول أبي يزيد البسطامي أو غيره من المشايخ الكبار، قال يومًا لبعض مريديه: إذا كانت لك إلى الله حاجة، فاقسم عليه بي. وذلك لعلمه بذلك المريد فإنه يعتقد في شيخه هذه المكانة عند الله، مما لا يعتقده في غيره، وعرف الشيخ أن الهمم والصدق في الأمور، إذا كان قويًا أثر، وسواء كان ذلك المسئول به على المكانة التي يعتقدها فيه هذا السائل به، أو دون ذلك، فإن الإجابة لابد منها مما يعطيه الصدق ونفوذ الهمة من الأثر، ولهذا يفعل السحر الذي [تفعله] [٣] النساء في الأمور، ما لا ينفع من الرجال أكثرهم، وما ذاك إلا لأخذهم بالقبول، وتصديقهم بأن ذلك لا يكون ولابد، فيظهر الفعل عن صدقهن وهمتهن، وعزمهن وقطعهن به، لا عن العمل.

وقد قررنا اعتقاد المريد الصادق في الشيخ كيف هو، فصدقه يرفع عنه ما نابه إذا توسل بمن ذكره في ذكره، في ذلك الأمر الذي نابه، وقد يكون من المجموع أعني من همته، ومكانة الشيخ، فيكون بمنزلة

---

(١) بلغة الغواص

(٢) في (ب): عين ما ذهبنا.

(٣) في (ب): تعمله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شفعاء [كثرت] (١) في أمر واحد، [فقبل] (٢) المشفوع عنده شفاعة كل واحد فيه، ولو انفرد، وقد يصادف زائدًا على الهمة، والمتوسل به في ذلك عند ذكره ربه في دعائه، أن يدعو باسم يعطي [بالخاصة] (٣) الإجابة، فيما دعا فيه من حيث لا يشعر.

وأما قوله في حق الشيخ (حيًا كان أو ميتًا) فما قطع يعني نظره عنك، يقول: أن همة الأنبياء فيمن [بعث] (٤) إليهم أن يهتدوا بها، فلا يزال نظرهم إليهم، وكذلك الورثة وهم الشيوخ، لا يقطعون نظرهم عن المريدين الذين تحت تربيتهم، فإنهم له كالأمة للرسول المؤمنة، منها التي يشافهها رسولها بالخطاب فيأخذونه على غلبة ظن، كما يأخذه الشخص عن ناقل عن الشيخ، فإن المشافهة لا تقوم مقام النقل، وأنها تفيد العلم فيعمل على بصيرة، ولهذا متبعوا الرسول الذين أخذوا عنه، وإن كان ميتًا على الكشف، أو عن من أخذ عنه ذلك الرسول من الأرواح [الطاهرة] (٥)، أو عن الله وهو الأصل المرجوع إليه، فيدعو هذا الآخذ على بصيرة إلى الله، أي: على علم اقتضاه العين، وأعطاه ذلك الإتباع بما شافهه به، أو بما نقل إليه على وجه يصح عنده ذلك النقل، فيأخذه بالقبول ويقطع به، فذلك أيضًا من متبعيه، وهو قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وأما قوله: (فكذلك أيضًا) أقصد يعني في ذلك الأمر الذين نابك مريدي الشيخ إخوتك، (فإنهم يقصدون الشيخ في حقك، ويتوسلون إلى الله) يريد ذلك أمورًا منها: أن تعتقد في المريدين إخوتك أنهم صادقون،

(١) في (ب): كثيرة.
(٢) في (ب): تقبل.
(٣) في (ب): بالخاصية.
(٤) في (ب): بعثت.
(٥) في (أ): الظاهرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتزيل عن نفسك ما يخطر لك في حقهم من التهمة، حتى لا ترى لنفسك مزية عليهم، فتستعين بهم على ما تريد، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، فإن الإنسان إذا كان بهذه المثابة مع أقرانه، لم يكن بنفسه لهم احتقار، ولا نقص وهذه حسنة معجلة له إخوان على سرر متقابلين.

ومنها أيضًا: أنه قد يكون في المريدين من هو أعلى منه عند الله تعالى، أو عند الشيخ بحيث أن يكون قبوله من ذلك أسرع من قبوله من صاحب النائبة، فإن الله تعالى إذا سمع فيه سؤال هذا المريد المقرب عنده قضى حاجته فيه وزيادة، وإذا أراد الله له بصاحبه عناية، فيعصمه من أجله فيما يبقى من عمره.

ومنها أيضًا: أن يكون في علم الله أنه لا تقضى تلك الحاجة؛ إلا بهذا المجموع وسؤال شخص واحد منهم، فلا يكون إلا بما سبق به العلم، فأوصاه بذلك لعلمه أن تكون الإجابة من هذا القبيل، فما ترك شيئًا من المحتملات؛ إلا ودله على ما فيه المصلحة في حقه، لأنه أوصى عامًا قومًا مجهولين عنده.

وأما قوله: (لهذا الشخص، ثم لا تكن عجولاً في أمرك، فإن المستعجل قريب من العطب) يريد قوله u : «إن الله يستجيب للعبد، ما لم يقل العبد: لم يستجب لي»[1]، فهذا معنى العطب، فإنه إذا قال: «لم يستجب لي» فإن الله لا يستجيب له بعد ذلك، وذلك لأنه أساء الأدب، [وكذب] [2] الله تعالى في قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:

---

(١) بلغة الغواص رواه البخاري بلفظ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي» وأخرجه الترمذي في نوادر الأصول رقم (٢٨٣/٢) الإلحاح في الدعاء.

(٢) في (ب): وأكذب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٨٦]، فالإجابة لابد منها، وسأبين موضعها وحدها، [وبقضاء] [(١)] ما سأل فيه كيف هو، أما قوله ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فإن الداعي إذا دعاه لابد أن يدعوه باسم من أسمائه؛ فيقول - مثلاً - : (يا الله) أو ما كان من الأسماء أو الكلام، إما باللسان أو بالقلب، أعني كلام النفس، فلابد أن يقول الله: (لبيك) أي: إجابة لك دعاء من دعاه، ودعاه فيما دعاه، فلابد من هذه الإجابة، أي: قد سمعت دعائك فيما تريد وما تسأل فيه، فيذكر العبد عقيب هذا الدعاء ما يدعو فيه من الحوائج.

ولاشك أن علم الله بالمقادير والأوقات والأحوال لا يتبدل، فإن كان الله قد سبق في علمه قبوله وإجابته لما دعاه فيه، فلا يخلو إما أن يكون عن زمان قريب أو بعيد، أو موقوف على حال خاص من هذا الداعي، أو من أمر آخر لابد من ذلك، فتكون الإجابة من التعجيل والإبطاء بحسب ذلك، أي: بحسب وقوع ذلك، كما حُكي في قصة موسى u في قوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، وكان بين دعائه في ذلك، وظهور ما دعي فيه ووقوعه أربعون سنة، فكان ينتظر بذلك ما سبق به العلم من الزمان، أو من الحال، أو من المجموع، فإذا كان في حكم الله أن المسئول فيه لا يقع؛ فلابد مما يقوم مقامه من تكفير خطايا عنه، لو كشف له عن ذلك لآثر ذلك على قضاء حاجته، ورأى أنها أولى، وأن الله قد رفق به واعتنى، حيث عوضه هذا بدلاً فيما سأل فيه، أو رفع له بها درجات لم يكن يصل إليها لو قضى حاجته فيما سأل فيه، بحيث أيضًا لو كشف الله له عن ذلك لاختار هذه الدرجات على قضاء حاجته، فعلى كل حال لا يخيب سؤاله من الخير، هذا كله ما لم يقل: «لم يستجب لي» فإذا قال: لم يستجب لي، لم يحصل له شيء من هذا كله، فإن عمله قوله لم يستجب لي، والنبي يقول:

---

(١) في (ب): وبقي قضاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«إنما هي أعمالكم ترد عليكم»[١]، وليس له عمل هنا إلا سوء ظنه بربه، فهو الذي أرداه كما قال الله تعالى في حق قوم ظنوا أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون فقال لهم: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، نسأل الله العصمة من مثل هذا.

ثم قال: (ولا تلح على شيخك أصلاً في أمر من الأمور في حقك، فإنه أعرف بالمصلحة في حقك منك، ولا تقل له شيئًا بلسانك، ولا تشافهه فيه، بل إذا كان في نفسك أمر تريد أن تراجع الشيخ فيه، فاذكره للشيخ فيما بينك وبين نفسك، فإنه لا يخفى عليه شيء من حالك).

أما قوله: (ولا تلح على شيخك أصلاً في أمر من الأمور) إذا [ساءت][٢]، فإنه أعرف بالمصلحة منك (في حقك) يقول ذلك، كما وقع للفتى الذي رمى نفسه في التنور المسجر، وكان سببه الإلحاح على الشيء وقد تقدمت الحكاية، ولولا ما سبقت العناية بما كان قد دعا به الشيخ قبل ذلك ولا احترق،وكان من أهل النار، فإن بعض الصحابة قدمه رسول الله ﷺ [في][٣] سرية على قوم، فخرج عليهم فأضرم نارًا، وقال لهم: ألم يأمركم رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة لي؟ فقالوا: بلى، فقال لهم: ألقوا نفوسكم في هذه النار، فقالوا: إنا أسلمنا كي ننجوا من النار، فوالله لا نسمع، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «أما إنهم لو

---

(١) بلغة الغواص المناوي في فيض القدير (٢٦٥/١)، أبو نعيم في الحلية (٧٦/٦)، والعجلوني في كشف الخفا (٢٥٠/١).

(٢) في (ب): سألته.

(٣) في (أ): على.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ألقوا نفوسهم في النار ما خرجوا منها»[١]، وقال u : «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»[٢]، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، وقول الصحابة: نهينا أن نسأل رسول الله □ - يعني ابتداءً - فكيف أن نُلِح في السؤال طلبًا للجواب، فسكوت المسئول جواب لمن عقل، ولا سيما الشيوخ ورثة الأنبياء، فإنهم أعرف بالمصالح وبأوقات الكلام منك، فإياك أن تسأل الشيخ السؤال، ثم تطلب الجواب، فتكرر عليه ذلك، وإنما اِعرض عليه ما وقع لك في نفسك وفي خاطرك، وفي رؤيا تراها، فإذا فرغت من ذلك، ورأيت الشيخ يسكت عنك به، فلا ترد على ذلك، وقم إلى شغلك، هذا هو الأدب النافع، فإن الشيخ لو عرف أن إجابته إياك في ذلك لك خير فيه فعل، فسكوته هو عين المصلحة في حقك ذلك الوقت.

أما قوله: (ولا تقل له شيئًا بلسانك، ولا تشافهه بذلك) هذه طريقة التعليم إلى الوصول، لتأثر الهمم من المريدين في الشيوخ وغيرهم،

(١) رواه البخاري في صحيحه رقم (٤٠٨٥) كتاب: المغازي باب: سرية عبد الله بن حذافة رقم (٦٧٢٦) كتاب: الأحكام باب:الطاعة للإمام لم تكن معصية عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا فَأَوْقَدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»، ومسلم في صحيحه رقم (١٨٤٠) كتاب: الإمارة باب: وجوب طاعة الأمراء، والإمام أحمد في مسنده رقم (١٠١٨) (١/١٢٤)

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة t رقم (٦٨٥٨) كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي □ بعثت بجوامع الكلم، ومسلم في صحيحه واللفظ له رقم (١٣٣٧) كتاب: الفضائل باب: توقيره □ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، والترمذي في سننه رقم (٢٦٧٩) كتاب: العلم عن رسول الله □ باب: الإنتهاء عما نهى عنه رسول الله □ وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرى رقم (٣٥٩٨) كتاب: الحج، وابن ماجة في سننه رقم (٢) باب: إتباع سنة رسول الله □.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والصدق في ذلك، فإن المريد إذا صدق حرك الشيخ بصدقه، وهذا معروف في الطريق، ولقد كان لي صاحب في خدمة شيخ لنا نخدمه، وكان الشيخ غائبًا، فجاءني ذلك الأخ، وسألني في أمر وقع له في القرآن، فانتهرته وقلت له: فأي فرق بينك وبين العامة، إذا كنت في هذه المثابة تأخذ العلم عن الرجال، ألم يقل أبو يزيد: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، هلا صدقت مع ربك فاستندت إليه في هذه المسألة، حتى تأخذها ذوقًا من الله بلا واسطة، والله لو كان الشيخ حاضرًا لجعلته يؤدبك، ألا ترى الشيخ t ما يحيلنا إلا على الله في كل ما يخطر لنا من العلم، فقال المريد: صدقت، وتاب وانصرف عني، فلما كان من الغد جاءني، وقبل راحتي، وقال: جزاك الله عني خيرًا من صاحب، وأخ كريم، انفردت الليلة مع الله في تلك المسألة، فنفث في روعي الجواب عنها، وهو كذا وكذا، وذكر الجواب، وكان جوابًا حسنًا سادًا، فقلت: أليس هذا أحسن، فقال: بلى، ومع هذا فما سكت عنه لما حضر الشيخ ذكرت له ذلك، قال: نِعم ما فعلت، وهجره الشيخ [على ذلك] (١) مدة.

وأما قوله: (بل إذا كان في نفسك أمر تريد تراجع الشيخ فيه، فاذكره للشيخ فيما بينك وبين نفسك، فإنه لا يخفى عليه شيء من ذلك العلم).

اعلم أولاً أن المريد إذا صدق في الشيخ، جعل الله له في نفسه مثالاً للشيخ، ذلك المثال هو الذي يشهده، ويغلب عليه، حتى يقول: هذا هو الشيخ، ما يقول: كأنه هو، بل يقول: هو هو، وكذلك هو، فليذكر تلك المسألة للشيخ المتوهم الموجود الحاضر في خياله، كما يناجي

---

(١) زيادة في (ب).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المصلي [ربه] (١) في قبلته، فإن ألقى الله عند الشيخ الأصلي من خارج ما أنت عليه، عرف المسألة وحرك ذلك الشيخ المتوهم الذي تشاهده بالجواب عن تلك المسألة، فإن ذلك الشيخ الذي في نفسك لشيخك الخارج، كالظل مع الشخص سواء، فذلك ظل شيخك، فاعتكف عليه، ولا ينشئه عندك إلا نور صدقك فهو يمده في طبيعتك بالنور الإلهي، الذي عندك منه من الإيمان بشيخك، وكثيرًا ما يجري هذا للمريدين الصادقين.

وهذا للمريد أنفع في الجواب من الجواب، الذي يأخذه عن الله من غير واسطة هذا الشيخ المتوهم، فإن الحق تجليه في الشيوخ أعظم من تجليه في [المريدين] (٢)، فمسألة المريد الذي استغنى بالله عن أبي يزيد في زعمه، فلما قال له الناصح العارف: لأن ترى أبا يزيد مرة، خيرًا لك من أن ترى الله ألف مرة، لعلمه بأن الله تعالى ما يتجلى لكل أحد إلا على قدر صفاء مرآته وشكلها، وعَلِم أن مرآة أبي يزيد أكمل، وكذلك كان، فلما رآه ذلك المريد، مات هيبة، فلما دُفن قيل لأبي يزيد قصته، فقال: كان يراه على قدره، والآن رآه فينا على قدرنا، فلم يطق، فهلك.

كان رسول الله ﷺ يأخذ الوحي عن الله في مرآة جبريل u شيخه، وهو قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ [القيامة: ١٨، ١٩]، [فنسب] (٣) القراءة إليه تعالى، كما قال على لسان عبده المصلي (سمع الله لمن حمده) ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، كذلك ما قرأت حين قرأت، ولكن الله

(١) في (ب): الله.
(٢) في (ب): المريد.
(٣) في (أ): فليست.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قرأ، ورسول الله ﷺ يسمع التلاوة من جبريل، والقاريء هو الله، فإنه يقول ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ فأضاف القراءة إليه تعالى، وكذلك تجلي الحق في الشيوخ للمريدين، هو أتم في الأخذ عنه من تجليه للمريد وحده من حيث هو.

وأما قوله: (وتوسل إلى الشيخ) يريد ذلك الشيخ المتوهم الذي أنشأه صدقك، ولذلك قال بعد هذا: (فيما بينك وبين نفسك)، ثم قال لك في توسلك إليه: أن يكون بالله، ثم بسيدنا محمد ﷺ، ثم بالملائكة والأنبياء، ثم بشيخه، ثم بالصالح من عباد الله، يقول: توسل لذلك الشيخ الذي في خيالك، الذي هو ظل شيخك الخارج بالله، أي: اجعل الله واسطة بينك وبينه [فيما تطلبه منه] (١)، ثم إنه لما عرف أن الله تعالى يتجلى على قدر كل طائفة، ولهذا يرجع الأمر كله إليه، ويُصح العقائد كلها عليه، وإذا كان هذا توسل بالله تعالى يتوسل بالله الذي في علم سيدنا محمد ﷺ منه، فإنه الشخص الكامل من هذا النوع الإنساني، ثم بالملائكة، فإنه باسمه النور ظهر فيهم، وبالنور تظهر الأشياء للبصائر والأبصار، ويعني بالملائكة هنا، الأرواح المخلوقة من أنفاس سيدنا محمد ﷺ، فلهذا قدَم سيدنا محمدًا ﷺ في الذكر، ولو أراد العالِين من الملائكة المهيمين، لقدمهم على سيدنا محمد ﷺ هذا إن كان هذا الشيخ ممن يقول بذلك، وإن كان ممن يقول بفضل الكامل في هذا النوع الإنساني على المَلَك، ولا أكمل من سيدنا محمد ﷺ في هذا النوع البشري، ولهذا قدمه على الملائكة، والأولى بهذا الشيخ حمل كلامه على الوجه الأول، فإن الإنسان ينبغي له أن يحمل كلام صاحبه على أتم الوجوه، حتى يوفيه حقه، فإن كان ذلك كذلك فقد [أنصفه] (٢)، وإن كان

---

(١) زيادة في (ب).

(٢) في (أ): أيقظه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دون ذلك فقد أعطى المقام حقه في العبارة عنه، وهذه الطريقة أولى، ثم بالأنبياء بعد الملائكة، وهم أولو العلم فقدم الملائكة، وعلمنا أن قوله: ﴿وَأُوْلُوا العِلْمِ﴾ في قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، منا أن الملائكة كلهم أهل علم بالله، وإنما قال في حقنا أولو العلم منا، فإنه يريد أهل الكشف والتجلي، وأصحاب البراهين النظرية العقلية، لا يريد المقلدين، فإنهم وإن صادفوا العلم فما هم عالِمون، فكل صاحب نظر في الله فهو عالم بالله، وإن خالفه في ذلك عالم آخر، كان الأمر في نفسه أوسع من أن يتقيد بشخص دون شخص، وكذلك العلماء بالله من طريق التجلي، كالنظر العقلي بالعلم في الله سواء، فإن تجلى الحق لكل صاحب تجلي مخالف لتجليه الآخر، فإن الأمر أوسع من أن يتقيد، والكل علماء بالله.

ولهذا ينبغي للناصح نفسه، أن يبحث عن كل مقالة لصاحب نظر في الله، حتى يعلمها، فإنها صورة من صور الحق، وينبغي أن يعلم ما جاءت به الأنبياء في الله، فيعتقد ذلك، فيكون صاحب هذا الأمر يرى الحق في كل معتقد، وهذا هو النظر الكامل، والمقام الشامل، فلا يتصور من مثل هذا إنكاره للحق إذا تجلى في موطن الامكان، وإن سكت عن ذلك فسكوته عن معرفة بالله، اقتضى له الموطن والحال السكوت.

ويتوسل إلى ذلك الشيخ المتوهم أيضًا بشيخه الخارج، كذا ذكر، فإن هذا الشيخ المتوهم الذي هو ظل الشيخ الخارج من هذا الشيخ الخارج، تكون له المادة، ولكن لا يراه المريد إلامن هذا الشيخ المتوهم على ذلك المريد، أو لم يعلمه، ثم يتوسل أيضًا لذلك الشيخ الذي عنده بالصالح من عباد الله، يعني بالصالح المقام، الذي سألت الأنبياء أن تلحق بأهله بقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وشهد الله به لبعض أنبيائه كعيسى بن مريم وغيره، كما ذكر في القرآن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال هذا الموصي t بعد هذا التوسل بهؤلاء المذكورين: (انظر في نفسك، فإن وجدت عندك شوقا إلى الشيخ) يعني بذلك الشيخ الخارج تشتاق إليه، ولا يكون ذلك مع مشاهدته في باطنه؛ إلا بمن علم أن ذلك الذي في باطنه منه أنه مثاله وظله لا عينه، فاشتاق إلى الشيخ من خارج حتى يكون هذا المريد للشيخ بمنزلة ظله منه الذي هو الشيخ المتوهم، فإنه أقرب سندًا، فإنه إذا أخذ عن الشيخ المتوهم يقول: حدثني ظل شيخي عن شيخي، فإذا أخذ عن الشيخ من خارج عند المقابلة، إما بالفهم عنه في نظره إياه، وإما أن يشافهه الشيخ بالخطاب فيقول: حدثني شيخي.

ثم قال بعد ذلك: (وإن وجد باعثًا للوقوف بين يديه) والباعث هنا الذي يبعثه هو من ذلك الشيخ المتوهم، وهو بمنزلة داعي الحق الذي في قلب كل مؤمن، إذا أراد أن يتوب يسمعه الله في ذلك الداعي، فإن الداعي لا يزال أبدًا داعيًا إلى التوبة، ولكن في الآذان وقر، فمتى ما زال ذلك الوقر من أذن المدعو، سمع فأجاب، وبادر إلى ما دعي إليه، كذلك يبادر هذا المريد إذا وجد الباعث، فإن ذلك خاطر الشيخ من خارج، والشيخ المتوهم ترجمان، والباعث لسان الترجمان، فاعلم ذلك، ولذلك قال: (فبادر إلى ذلك) واعلم أن خاطر الشيخ أزعجك فلا تقف.

ثم قال: (وإن قال لك قائل: أن الشيخ يطلبك، أو ذكرك، ولم تجد ذلك الباعث متأكدًا عندك، فلا تسعَ إلى الشيخ) بناءً على ذلك من غير أن يكون ذلك في قلبك، هذا يحرضك على استدامة الحضور أبدًا مع الشيخ في قلبك، حتى يصير لك الحضور عادة، فتجد ذلك مع الله إذا فقدت الشيخ، أو استقللت بنفسك دونه، وإن كان لابد أن يبقى في المتقدم المقتدي به بقية عند المتأخر المقتدي، لابد من ذلك، وهو مثل قوله تعالى لما ذكر الأنبياء لسيدنا محمد □ قال له: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وإن كان هو السيد على الجماعة، ولو كانوا بالحياة لاتبعوه، ولكن لما تقدموا بالزمان، والطريق واحدة، كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتأخر مقتديًا بالمتقدم بلا شك، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، وهو ما يختص به دون الجماعة، ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فوقعت الوصية بإقامة الدين، وترك النزاع والاجتماع عليه، فلابد أن يكون المتأخر مقتديًا بالمتقدم بالزمان، فيما يقع فيه الاشتراك، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾هو ما يختص به أيضًا الشيخ الوارث، أو المريد إذا استقل وخرج عن تأثير الشيخ فيه، وساواه أو زاد عليه، فلينظر المريد فيما يقال له من خارج ما يجد في قلبه، فإن له كالمصحف يتلو الحق فيه عليه ما يريده منه، فلا معول للمريد إلا على ما يجد في قلبه، لا على ما يسمعه بأذنه، وقد ورد في الخبر ما يؤيد هذا، وهو خبر صحيح من طريق الكشف، «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ»(١)، وقال في الصحيح من الطريقين في هذا المعنى، في باب الورع، «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»(٢)، كل ذلك إشارة من الشارع إلى المكلف أن يتفقد قلبه في كل مسألة، حتى يرى فيه آثار ربه تعالى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بنحوه (٢٢٨/٤) عن وابصة الأسدي t قال عفان مرة و لم يقل حدثني جلساؤه قال: ثم أتيت رسول الله □ وأنا أريد ،ألا أدع شيئًا من البر والإثم إلا سألته عنه، وحوله عصابة من المسلمين يستفتونه فجعلت أتخطاهم، فقالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله □ فقلت: دعوني فأدنو منه فإنه أحب الناس إلي أن أدنو منه، قال: دعوا وابصة، ادن يا وابصة مرتين أو ثلاثًا، قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، فقال: يا وابصة أخبرك أو تسألني؟ قلت: لا، بل أخبرني، فقال: جئت تسألني عن البر والإثم، فقال: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري ويقول: «**يا وابصة استفت قلبك واستفت نفسك ثلاث مرات، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»، والدارمي في سننه رقم (٢٥٣٣) كتاب: البيوع باب: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، وأبويعلى في مسنده رقم (١٥٨٦) (١٦١/٣)، والمنذري في الترغيب والترهيب رقم (٢٦٣٨) (٣٥١/٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٧٢٤/٢) كتاب:البيوع باب: تفسير المشبهات، أخرجه الحاكم في المستدرك عن الحسن بن علي رضي الله عنهما رقم (٢١٦٩) كتاب: البيوع ورقم (٢١٧٠) ورقم (٧٠٤٦) وقال: صحيح الإسناد، والترمذي في سننه رقم (٢٥١٨) (٦٦٨/٤) كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع وقال: حديث حسن صحيح، والإمام أحمد في مسنده (١٧٢٣) (٢٠٠/١)، والبيهقي في السنن الكبرى رقم (١٠٦٠١) كتاب: البيوع باب كراهية مبايعة من أكثر ماله من الربا أو ثمن المحرم ، والدارمي في سننه عن وابصة بن معد الأسدي t رقم (٢٥٣٣) كتاب: البيوع باب: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال: (فإن الشيخ قد سلطه الله على قلبك ولو أراد إحضارك بين يديه لجذبك إليه). أما قوله في تسليط الشيخ على قلبه، فذلك أن المريد ما يجيء إلى الشيخ ابتداءً، حتى يجعل له سلطانًا علـــى نفـــسه، ممـــا سلطه على قلبه سواه، بما اعتقد فيه، ولذلك يعاقب إذا خالفه في شيء مما يدعوه إليه الشيخ، أو يتحقق به على شهود من المريد لذلك، فـــإن في اعتقاد المريد أن الشيخ بهمته، يفعل ما لا يحتاج إلى نطق في ذلك باللسان، بل نطقه بالباطن بلسان الغيب، ولابد من ذلك، وهـــو توجـــه الإرادة من الشيخ فيما يريده منه، فذاك حد أمره للمريد بذلك، فلابد من كلام النفس، وهو أمر معقول زائد على الإرادة، فإن توجه الإرادة على [الأمر] [(١)] حكم زائد على عين الإرادة، يعبر عن ذلك بـــالقول والأمـــر، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فما اكتفى بالإرادة حتى جاء بالقول بجهة الأمر، وإذا كان ذلك في الجناب الإلهي، بل ما يعطي الحقائق إلا ذلك، فأحرى أن يكون ذلك في المخلوق، وسبب ذلك تعلق همة المريد بالشيخ، فالشيخ أقـــرب إليه من نفسه عنده، وليس إلا الشيخ الذي في خاطره، وبين المريـــد، أعني قلب المريد، وبين الشيخ رقيقة ممتدة، وهو حبل أوصـــله بتلـــك الرقيقة يجذبه، وبها ينجذب له المريد، وهو مثال حبل الله، الذي أمرنا الله بالاعتصام به.

وأما قوله: (وكن بذلك متيقنًا أنه نبهـــك أن تكـــون صـــادقًا فـــي اعتقادك في الشيخ، أنه قادر على ما ذكر لك، نافذ الهمة فيـــك) أي: أن الله تعالى جعل له ذلك ولأمثاله، ولذلك قال بعد هذا: (كل ذلك بأمر مـــن الله) أي: أن الله تعالى أمره بذلك، إذ لا يفعل الشيخ شيئًا إلا عن أمـــر إلهي، كما أن مريد التربية لا يفعل شيئًا إلا عن أمر الشيخ، وفيه يتعلم

---

(١) في (ب): المراد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأخذ عن الله تعالى، وإذا لم يتحرك الشخص إلا عن أمر الله تعالى، على الطريقة الخاصة في سره، والطريقة المشروعة في ظاهره، فإنه تنفذ همته، ويمشي قصده، ويكون ما هَم به ولابد، فإن عقل وتحرك في أمر عن غير أمر إلهي، فقد يصيب ويخطيء، والشيخ لا يتحرك بحمد الله في كل ما يتحرك فيه إلا عن أمر إلهي، بخلاف الرسول - صلوات الله عليه - فقد يحركه الله في أمر من جهة نفسه، فلا يقع ما يريد، وقد لا يصيب في أمر من الأمور يأمر به من حيث نظره، وذلك ليس من نقص فيه ﷺ وإنما ذلك كما جعله الله أسوة يقتدي به الضعيف والقوي، فجعل جميع حركاته حجة للفريقين؛ لأنه بعثه الله رحمة لخلقه، فسأل في أبي طالب عمه ليكون من المهتدين، من غير تحقق بهدايته، فلم يجبه الله بما سأل فيه، وعوضه عن سؤاله ما شاء من الخير، ليكون العبد إذا سأل في معين، فلم يحصل له يجد رسول الله ﷺ عزاءً لنفسه في ذلك.

ثم إن الله تعالى وفق رسول الله ﷺ لأن ينهى الصحابة عن تأبير النخل من نفسه، لا عن أمر الله المعتاد، ففسد النخل واعتذر عن ذلك، فقال: «ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه عن الله، فخذوا به»[1]، فيجد الضعيف إذا وقع في مثل هذا حجة برسول الله ﷺ، وكذلك حكمه مع أبي بكر في أسارى بدر، وأمثال هذا، فيجد القوي به حجة، والضعيف به حجة، وما عدا الرسول ليس له هذا المنصب، وإن لم يكن له هذا المنصب في العموم كان حاله ألا يتحرك إلا عن أمر الله، ومهما تحرك عن خاطر نفسه، عرف به أصحابه لئلا يسقط من قلوبهم إذا رأوا ذلك،

---

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن رقم (١) (١/٣) بنحوه عن أبي هريرة t قال قال رسول الله ﷺ: «**ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا**» باب: اتباع سنة رسول الله ﷺ، وابن حبان في صحيحه رقم (١٨) باب الاعتصام بالسنة وما يتعلق بها نقلاً وأمرًا وزجرًا، والإمام أحمد في مسنده رقم (٧٣٦١) ورقم (٨٦٤٩)، والبيهقي في السنن الكبرى رقم (١٣٣٦٨) (٧/١٠٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيحرمون فائدته، فإذا عرفهم كانوا منه على بصيرة، ولم ينتظروا وقوع ذلك الأمر ولابد، أعني: الذي تحرك فيه الشيخ، فيتعين على الشيخ أن يبين للمريدين حركته النفسية خاصة.

وأما ما يسكت عنه ولم يُعلِم به مريديه، فهو على أمر إلهي، ولا يلزم النبي ذلك، أعني: التعريف للصحابة إلا بعد الوقوع، فمنزلة الرسول تخالف منزلة الشيخ للعموم، ولأنه محل للناس والإقتداء، والشيخ ليس كذلك لا في العموم ولا في أصحابه، فإنهم هم الذين يلزمون أنفسهم التأسي به [والرسول يلزمهم التأسي به وهذا لا خفاء فيه من فارق] (١) ***بقوله : «صلوا كما رأيتموني أصلي خذوا مناسككم عني »***(٢)***، يقول الله فيه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].***

ثم إن هذا الشيخ أكد قوله في الشيخ، أنه لا يكون ذلك كله إلا بأمر الله، فقال: (وإرادته) فيريد بلا شك الأمر الذي يكون به التكوين، لا يريد أنه يأمر فيحدث الأمر عنده، فيكون محلاً للحوادث وليس كذلك، وإن كان هنا نكتة أنبهك عليها، وذلك أن له التجلي في الصور، ويحكم عليه بحكم الصورة التي يتجلى فيها، كما يحكم عليه في العموم المعتاد في رؤيته تعالى في المنام في صورة ما، فإنه صورة ظهر فيها للنائم، تتبع تلك الصورة لوازمها، وهذا ما لا يُدرك والإدراك واحد من الفريقين الخاصة والعامة، غير أن الخاصة تشهد ذلك من الحق في تفطنها، ولكن في الموطن الذي تشهده العامة، لا بالحال الذي يشهده العامة، فإن حال العامة في ذلك النوم، والموطن واحد، وإذا كان الأمر كذا، فقد تكون الصورة مما يستلزمها قبول الحوادث، فيحدث الأمر عنده عن إرادته في نفسه، إذا كانت الصورة تطلب ذلك بحقيقتها، فالحق قد ظهر

(١) زيادة في (ب).

(٢) سبق تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيها، ولابد أن يحكم عليه بذلك، فافهم ما ذكرته، فهو نافع جدًا في التخليص، فإن الوهم سلطانه عظيم، وغوره بعيد، واحذر مما ترده بأدلتها، فالله أوسع أن يتقيد بدليل العقل دون غيره، بل له ما يدل عليه النظر العقلي، وغير ذلك هو المرجوع إليه، وبه جاءت الكتب من الله والرسل لأجمعهم، واحذر من التأويل، ورد ذلك إلى ما يطلبه العقل بدليله في الله فإنه مهلك.

ثم زاد هذا الشيخ مشيئته، والمشيئة من الحق بعض أحكام الإرادة، وهو ما يزيد في الوجود لا ما ينقص، كإظهار عين لا إعدامها، فالإرادة للعدم والوجود، والمشيئة بالوجود خاصة، فإن أعدم بالمشيئة فهو زيادة حكم في الوجود، وهو رجوعه إلى العدم الذي منه جاء، فيعبر ذلك فيطلق عليه اسم المشيئة.

ثم زاد أيضًا: (وقضائه في خلقه) يقول حكمه فيهم، فإن القضاء يحكم.

ثم قال: (واجتهد أن تخفي جميع ذلك إخفاءً بليغًا) وأكد الشيخ في الوصية بذلك تأكيدًا، يعني ما تقدم ذكره من أحوال الشيخ يقول يكون ذلك في نفسك، لا تُعرف به أحدًا حتى لا يتطرق الأذى منه لشيخك، فيعود الحرمان والخسران على المنكرين بذلك في حال الشيخ، والطريق رحمة، والرفق بالمحجوبين عن مثل هذا واجب على كل سالك، فإن إظهار مثل هذا في العموم من التغالي في الدين وقد قرر النهي في ذلك من الله تعالى بقوله: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ﴾ وأنت من أهل الكتاب لأنك من أهل القرآن ﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، ثم قال: ﴿إِلاَّ الحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] عند من يرى أن ذلك غير الحق وهو في العموم وعند من يراه الحق فما تغال فافهم ذلك.

ثم قال: (فإن حصل لك شيء مما كنت ترجوه من الله أن يأتيك به على يد شيخك، فلا تراجع الشيخ فيه) يقول لك: لا تشغل وقتك بذكر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحاصل فيفوتك خير الوقت، أي: وارد الوقت الذي هو من الشئون التي هو الله فيها في حق عباده، فإن الحاصل لا فائدة في ذكره؛ إلا أن يجلب بذكره زيادة لامتثال أمر إلهي، مثل قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، ليسمع الغير فيطمع، فإن النفوس مجبولة على حب النعم، والإنعام من القادر عليه، فيؤثر ذكر ذلك في السامعين التجاءً وهمة، وطلبًا وافتقارًا إلى الله في تحصيل ذلك وأمثاله.

ولذلك قال هذا الرجل: ([لا تراجع فيه شيخك فإن الشيخ هو الذي أتاك به من عند الله] [1] فلا فائدة لتعريفك به، فإنه أعلم بك منك) ولم يحجر عليك ذكر ذلك فيمن تعلم أنه يقبله ويستفيد به عند الله منزلة، ثم أكد في هذه الوصية فقال:(وإن تأخر عنك ذلك المرجو، فلا تراجع فيه أيضًا شيخك) يقول: فإنه إذا كان لا يأتيك إلا على يد شيخك؛ فلا فائدة لمراجعتك إياه في ذلك إذا تأخر عنك، فإنك تتهم الشيخ بذلك، إذ لا يخلو الشيخ فيه عن الله من أحد أمرين: إما أن يكون الله تعالى قد أعطاه ذلك، وما أمره بتبليغه إليك لمصلحة لك في التأخير، فإن الشيخ غير متهم في المريد ولا في الخلق أجمعين، فلا فائدة للمراجعة مع علمك أنه قد علم المطلوب.

والأمر الآخر: أن يكون الله لم يعطه بعد ذلك الأمر الشيخ أن يأتي به إليك، لتلح بالمراجعة فيه إلى الشيخ، وقد نهاك أن تلح على الشيخ في شيء فتستعجل أمرًا قد أراد الله تأخيره، وذلك لجهلك بالاستعداد الذي أنت عليه، فإن ما هناك منع ولا تقدم، ولا تأخر، بل وهب مطلق، والقبول منا على قدر ما نحن عليه في كل نفس من الاستعداد، فما تأخر القبول إلا لعدم الاستعداد، فكن عارفًا بما أنت عليه، تكن عارفًا بما هو الأمر عليه، ولا تسيء الظن بشيخك، فإن ذلك سوء ظن بربك، وإن الله

(١) سقط في (أ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عند ظن عبده به، فإذا ظن به أنه لم يستجب له [لم يستجب له] (١) بعد ذلك، فإن رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يستجيب للعبد ما لم يقل العبد لم يستجب لي»(٢)، فاحذر من مكر الله بك من حيث لا تشعر، ولا سيما وقد علمت أن لكل أمرٍ شرطًا في حصوله، وليس إلا الاستعداد الذي ذكرناه.

لذلك تمم هذا المتكلم فقال في وصيته: (فإن لكل شيء شروطًا، جرت عادة الله بوقوف ذلك على اجتماع تلك الشروط)، فقوله: (عادة) أدبًا مع الله، فإنه لا يشعر به حقيقة، فإنه في الأمر ما ثم نفسه عادة، بل هو مع الأنفاس خلق جديد، فتعرفه، فإن الأمثال تمنع من الوصول إلى ذلك التحديد، كما قال تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ [البقرة: ٢٥]، فيقولون هذا ذلك، وبالذوق يُعرف الفرقان، والوجود كله في عين الفرقان، فالقرآن من حيث تماثل الصور، والفرقان من حيث الأذواق، فالقرآن في العموم، والفرقان لا يحصل إلا للمتقين الله تعالى.

ثم قال: (بل احضر ذلك ببالك، ووجه خاطرك به إلى الشيخ، كأنك تسأل إنجاز ذلك وسبب تأخيره) إنما أوصى هذا الشيخ بهذا؛ لأنه علم أن الإنسان خلق عجولاً، وأنه لا يصبر، فأعطاه طريقًا لعجلته، والأولى ألا يفعل، فإن فعل فقد أبان له ما يقصده في ذلك الفعل، ولاسيما وقد سمع هذا الشيخ والمسلمون قول أبي بكر t للنبي في يوم بدر، ورسول الله ﷺ يناشد ربه في نصرة الدين، فإنه علم أن النصرة في ذلك اليوم مشروطة بمناشدته، ولا علم لغيره بذلك، فقال أبو بكر t: «يكفيك يا رسول الله مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك»(٣)،

---

(١) سقط في (أ).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم في صحيحه بنحوه عن عمر بن الخطاب t رقم (١٧٦٣)كتاب: الجهاد والسير باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، وابن حبان في صحيحه رقم (٤٧٩٣) (١١٤/١١) غزوة بدر، والترمذي في سننه رقم (٣٠٨١) كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ باب: ومن سورة الأنفال، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٨) =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ قوله، فجاز لنا أن نطلب من الله، أو من الشيخ إنجاز ما سألناه لما نعلم من فضله، فإن لم يحصل، علمنا أن ثم سببًا أخر ذلك فيزيد علم السبب، فإن اقتضت حقيقة ذلك السبب أن نقطعه قطعناه، وإن اقتضى الوقوف عنده حتى ينتهي وقفنا عنده، والسبب محصور في زمان أو مكان أو حال، ما ثم غير ذلك، والحال وحدها من هذه الشروط معلومة للعارفين، فإنهم أصحاب أذواق، فيعلمون أن الحال التي هم عليها لا يحصل معها ما طلبوه، وإن اقتضى حصول ذلك، فحينئذ يعلمون أن المانع الزمان أو المكان.

ثم قال: (فإن شيخك يلهمك ذلك، وينبهك على تلك الشروط بإذن الله تعالى) أي: إن أمره الله بذلك نبهك عليه، وإن لم يأذن سكت عنك، فاعلم ذلك، إلا أن هنا أمرًا أنبهك عليه، وذلك أن لك شيخًا من خارج، ومثاله الذي فيك منك لاتحاده به، وكونك أشربته ذاتك، وأن ترى شيخك الخارج عنك في مثاله الذي فيك، كما جاء: «اعبد الله كأنك تراه»[1]، فأمرك أن تمثله بين عينيك في عبادتك إياه، فقوله: (فإن الشيخ يلهمك ذلك وينبهك) فإن كان الشيخ الخارج عنك بجسمه، فيشترط في هذا الإلهام والتنبيه معرفة الشيخ بذلك، حتى أنه لو سُئل لقال عين ذلك الذي وجده المريد في نفسه من الشيخ، وإن كان الشيخ لا علم له بذلك، فالإلهام والتنبيه إنما وقع فيك من الشيخ المتوهم عندك، الذي قلنا أنه مثاله، ولولا أن الحق بكل شيء عليم، لقلنا فيه مثل هذا، إلا أن الفرق بينهما بَين، وذلك أن الشيخ من خارج، وإن كان لا علم له بما يجده المريد على التعيين والتمييز، ولكن يعلمه في التحميل وهمته متعلقة

=

(٣٠/١) ورقم (٢٢١)، وابن أبي شيبة في مصنفه رقم (٣٦٦٨٤) (٣٥٧/٧)، والطبري في تاريخه (٣٣/٢)، والسيرة النبوية لابن هشام (١٧٤/٣).

(١) سبق تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بكل ما يعطيه الطريق مما فيه سعادة السالك عليه، والإله الحاصل في اعتقاد المعتقد الذي وسعه القلب، هو الملهم المنبه لهذا العبد المعتنى به، والحق الذي هو متعلق كل اعتقاد منه تكون المادة لهذا المعتقد الخاص الذي وسعه القلب، ومنه يأخذ صاحبه والله الجامع عالم بذلك على التفصيل، فيقول العبد بما يجده الوجدان الخاص، قال لي الحق، وقلت له، مثل صاحب المواقف والمشاهد وغيرهما، هذا هو الذي يعول عليه في نفس الأمر، إلا أن الشيخ هنا من حيث جسمه هو خارج عنك، والحق الجامع لا يتصف بالدخول فيك ولا بالخروج عنك، ولا بأنه أنت، ولا بأنه ليس أنت، بخلاف تحكم جسمية الشيخ فإنه غيرك، ومميز عنك، ولا بأنه أنت، وعندك ما ليس عنده، والحق الجامع كل ما عندك عنده، وكل ما عنده ليس عندك مفصلاً وإن كان عندك مجملاً، ويظهر لك شيئًا بعد شيء، دنيا وآخرة إلى ما لا يتناهى.

فإذا نبهك الشيخ وألهمك الخارج، فهو على علم وبصيرة في ذلك، كان أنفع وأتم في حقك، وإذا نبهك وألهمك الشيخ المتوهم، فأنت المُلهِم نفسك، وأنت محل التهمة، فقد تصيب وتخطيء، فتحتاج إلى معرفة الفارق بين الشيخين، فإنك في إلهام الشيخ الخارج لا تحتاج إلى ميزان، بل تقبله مُسلِمًا إن لم تعرف معناه، ففي إلهام الشيخ المتوهم تحتاج إلى ميزان وتوقف في القبول، حتى يشهد له الميزان، فإنه عينك ما هو الشيخ الذي اتبعته، فهو كالإله المُعتقد سواء في هذه القضية، فإنك تحتاج في إله المعتقد إلى ميزان الشرع الذي شرع لك، ووضعه الإله الذي لا يتقيد بعقد دون عقد وهو الحق الجامع، وكذا الحق الذي في المعتقد هو الحق المخلوق به، الذي أسند إليه الخلق في خلقه، فخلقه الحق الجامع بهذا الحق المخلوق به فيه، فالحق الجامع هو الغني عن العالمين، والحق المخلوق به هو ذو الأسماء التي تطلبها الأكوان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهو الخالق الرب، القادر، الرازق، المحيي، المميت، المعز، المذل، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، كما أن الحق الجامع هو الغني، القدوس، السميع، البصير، العالم، وأمثال هذه الأسماء، فالسميع، البصير، العالم، مشترك بين الحق الجامع، والحق المخلوق به، وهو الحق الاعتقادي، والاسم المريد، والقادر، وأمثالهما مخصوص بالحق الاعتقادي، فافهم.

ولا يعرف ما قلنا إلا من عرف الفرق بين الشيخين، الشيخ الخارج والمتوهم، والشيخ الخارج وإن كان ليس عين المريد فهو عين المريد بوجه، فهو من جملة المريد، والمريد من جملة الشيخ، وكل واحد منهما عين الآخر، والحق الجامع في الخلق، وليس الخلق فيه، والحق الاعتقادي في الخلق، والخلق فيه كالشيخ الخارج، فهو [الخارج] (١) وإن كنت [منفيًا] (٢)، فقد أبنته لك، وإذا عرفته لم يلتبس عليك أمر، والله يرشدنا وإياك.

ثم قال هذا الموصي يوسف بن إبراهيم بعد هذا في هذه الوصية: (وإذا أصابك اضطراب في حالك وحسك، وتغير في ذهنك، وضعف في جسمك، وفتور في حواسك، فلا تجزع لذلك، واستند إلى الله في ذلك جميعه، واسأله الصبر والقوة عليه بقدرة الله تعالى، وإرادته ومشيئته، ولا تراجع شيخك في ذلك مشافهة، أو تذكر بلسانك، بل تخطر ذلك ببالك نحو الشيخ، واسأله بقلبك، وتوسل بما ذكرته لك من التقسيم عليه، فيما تقدم ذلك بقلبك، وإياك أن يصدر منك قلق، أو ضجر باختيارك).

---

(١) في (ب): الفارق.

(٢) في (ب): متفيًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنما وصاك بما أوصاك به، عندما يجد ما ذكر لك في نفسك، لعلمه بأنه قد يكون سبب ذلك كله من الطبع، وقد يكون من تجلٍ إلهي، من حيث لا يعلم المريد أنه من تجلٍ فإنه لا يعلم التجلي له، كما يتفق في الآخرة لبعض الخلق حين يتجلى لهم الحق، فينكرونه، لأنهم قيدوه، فلما دخل هذا الاحتمال في سبب هذه الأحوال الطارئة لذلك، قال: لا تجزع حتى تعرف السبب، فإذا عرفته حينئذ تكون بحسب ما يقتضيه أن تعامله به، فإن لكل سبب معاملة تخصه، فقد نصحك، وأما أمره إياك بالسؤال والتوسل في ذلك، فما هو لإزالة الأمر، وإنما هو لأن يتضح لك السبب الموجب هذا [الأمر] (١).

وأما قوله: (اضطراب في حالك) فيريد بالحال هنا ما ينقصك من ضرورات الدنيا، التي بحصولها يكون لك الفراغ مع الله، وهو ضعف يقين يطرأ على النفس، فهو اضطراب طبيعي لا يمكن دفعه، لما له في الجسم من [الأمر] (٢)***، لأن الآلام النفسية هي التي خوطب المؤمن أن يدفعها عن نفسه، وله القدرة عليها، فكيف المريد بخلاف الآلام الحسية، فإنه لا يقدر على دفعها، كأوجاع في الأعضاء، وكالجوع إذا أفرط، وعادت النفس تتغذى من أخلاط بدنها، لكون الطبيعة [تزيد]*** (٣) ***قوام بدنها، ولذلك كان رسول الله ﷺ يتعوذ بالله من الجوع يقول: «إنه بئس الضجيع»***(٤)***، ولا قدرة للإنسان على دفع الآلام الحسية، بخلاف***

---

(١) في (ب): الأثر.

(٢) في (ب): الأثر.

(٣) في (ب): تريد.

(٤) قطعة من الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه رقم (١٥٤٧) كتاب: باب: في الاستعاذة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْجُوعِ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ»، وابن ماجة في سننه رقم (٣٣٥٤) كتاب: الأطعمة باب: التعوذ من الجوع، ، والنسائي في سننه الكبرى رقم (٧٩٠٣) ورقم (٧٩٠٤) كتاب: الاستعاذة باب: الاستعاذة من الجوع، وأبويعلى في مسنده رقم (٦٤١٢) =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآلام النفسية، والآلام النفسية من ضعف اليقين، وآلام الجسم من الأمراض الطبيعية، التي تكون في الأعضاء، والمتألم بها الروح الحيواني، والآلام النفسية المتألم بها النفس الناطقة، فالاضطراب الذي يحصل للنفس الناطقة بالآلام الحسية، إنما هو لكون الروح الحساس الحيواني، من جملة آلات هذه النفس الناطقة، لما أمرت به من تتميم ذاتها بهذه الآلات، فإذا اشتغل الروح الحيواني بما يحسه من الآلام القائمة بالأعضاء، اشتغل عن النفس فيما يرده من مساعدته إياها فيما [كلفت] (١) به، فيقع لها الاضطراب الذي ذكر في حال هذا المريد، فلهذا قرن الاضطراب في الحال والحس.

وأما قوله: (وتغير في ذهنك) فهو مما يقوم بآلة الفكر من عارض يعرض لمحلها الطبيعي، والنفس قد تحتاج في بعض ما تدبر به هذا الهيكل إلى الفكر الصحيح من الاعتلال، فإذا طرأ على المحل فساد في المزاج من عارض يعرض له، من غذاء رديء، تغيرت آلة الفكر وهي الذهن على النفس، فيظهر له الفساد بصورة النظر الصحيح، فيتخيل له أنه صحيح فيفعله، فهذا معنى التغيير إذا أعقبه غير ذلك، فيفسد الأمر المعتاد للنفس في إصلاح شأن هذا الهيكل، وأسباب ذلك كله تختلف، وهي مع اختلافها لها أثر في المزاج لابد من ذلك.

وأما قوله: (وضعف جسمك) فذلك من قوة بعض [الأخلاط] (٢) على بعض [زيادة ونقصًا] (٣)، يضعف عن مقاومتهما ما بقي لأن الأمر

=

(٢٩٧/١١)، والحاكم في المستدرك عن عبد الله بن مسعود t رقم (١٩٥٧) (٧١٦/١) وقال: حديث صحيح الإسناد.

(١) في (أ): كانت.

(٢) في (ب): الاختلاط.

(٣) في (ب): بزيادة نقص.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يتم على السداد للنفس إلا باعتدال الأخلاط، فمتى ما زاد بعضها على بعض، أو نقص بعضها عن بعض، كان الضعف في الجسم، فأرادت النفس أن تقوم في أمر من الأمور الدينية التي كلفت به، فلم تستطع لما قام بالجسم من الضعف عن ذلك، فتبقى النفس معطلة عن تنفيذ إرادتها، إذ لا ينفذ إلا بما يكون بالجسم من القوة، وقد عدمت فيسمى عدمها ضعفًا.

وأما قوله: (وفتور في حواسك) فهو المسمى بالملل، ولذلك كثر الله أصناف الطاعات على المكلف، وأمرنا أن نريح هذه النفوس، وقد كان رسول الله □ يتخلل أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم، فإن الآلة إذا حفيت لا تحسن صنعة الصانع فيما يصنعه إلا بها، والقيام إلى عبادة الله بالنشاط أعظم بالحرمة، ورغبة النفس في ذلك أولى من إجبارها على ذلك كرهًا، فإذا رأيت نفسك قد فترت على فعل ما، فاعدل بها إلى فعل آخر من الطاعات ممكن تجد فيه النشاط وترغب فيه، فمن عرف هذا حصل على المطلوب من غير مجاهدة لنفسه ولا عناء، فتكون عبادته كلها في منشط عبادة المحبين، ولكن الطريق إلى ذلك يحتاج إلى علم عزيز بأنواع القرب، حتى يقلب من طاعة إلى طاعة بنشاط، فإن من أعظم الرزايا في الدين أن ينشط في فعل أغراض الطبيعة، ويتكاسل في فعل الأمور الدينية، فإن ذلك استهانة استهان بها ربه، كالذي يحسن صلاته عند رؤية الناس إياه، ولا يحسنها في خلوته، كما جاء في الخبر الصحيح[1]، فمن عرف مداخل هذه الأمور لم يغلب على دفعها، ولا تجزع في شيء من ذلك كله إذا قام به حتى

---

(١) يشير إلى الذي أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (٨٤٠٣) (٢/٢٢٧) باب: الرجل يحسن صلاته عن محمود بن لبيد t قال: قال رسول الله □: «**إياكم وشرك السرائر قالوا: وما شرك السرائر؟ قال: أن يقوم أحدكم يزين صلاته جاهدًا لينظر الناس إليه فذلك شرك السرائر**».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُعرف السبب، فإذا عُرف السبب الموجب لحصول شيء مما ذكــره أو كله، حينئذ يقابله بما ينبغي.

وأما قوله: (واسأله الصبر على ذلك والقوة) فهذا يدلك على أنــه ما أراد إلا الأمور الطبيعية لا الأمور الدينية، فإن الإنسان لا ينبغي لــه أن يقابل الأمور الدينية إذا عرض له أمر يفسد شيئًا منها بالصبر، بــل يتعمل بطريق الوجوب عليه في دفع ما يفسده الصبر، والصبر عن الله لا يكون إلا بمخالفة لأمر الله؛ لأنها السبب الموجــب للبعــد عــن الله، ونعني بذلك عما فيه سعادة هذا العبد في الدار الآخرة، هذا هو التحرير والانصاف لا البعد عن الله، فــإن المرجــع الكــل إلــى الله الــسعداء والأشقياء، وما زال الله معهم في كل حال، ألا ترى الشبلي [(١)] - رحمه

(١) هو أبو بكر دلف بن جعفر الشبلي قيل: اسمه جعفر بن يونس، حكاه السلمي وقيل غير ذلك، إمام اشتهر شرفه وسمت في جنان المعرفة غرفه، وأضاء كوكب زهده وديانته، ونما فرع ورعه وصيانته، وهو خراساني الأصل بغدادي المنشأ، كان وليًا بنهاوند وبالبصرة قال: لا يكمل فقير حتى تستوي حالاته سفرًا وحضرًا وغيبة ومشهدًا وقال: كل صديق ليس له كرامة فهو كذاب. وقال: إنما سميت الصوفية صوفية لبقية بقيت عليهم، ولولاها ما تعلقت بهم تسمية. وقال: سمعت الحق تعالى يقول: من نام غفل ومن غفل حجب، فلذلك اكتحلت بالملح لئلا أنام.

وقال: المحب إذا سكت هلك، والعارف إن لم يسكت هلك. وقال: يقول أحدهم: توكلت على الله وهو يكذب عليه، لو توكل عليه رضي بفعله. وقال: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار.

وقال: من خرج من ماله كله لله فإمامه أبو بكر، ومن خرج من بعضه وأمسك بعضه فإمامه عمر، ومن أخذ وأعطى وجمع لله فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكل علم لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم.

وقال: إذا أردت أن تنظر إلى الدنيا بحذافيرها فانظر إلى مزبلة، وأن تنظر إلى نفسك فخذ كفًّا من تراب فإنك منه خلقت وفيه تعود، وإن أردت أن تنظر ما أنت فانتظر ما يخرج منك ودخولك الخلاء، فمن كان هذا حاله فلا يتكبر. وقال: ليس لمريد فترة، ولا لعارف علاقة، ولا لمحب شكوى، ولا لصادق دعوى ولا لخائف قرار، ولا للخلق من الله فرار.وقال: ليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور، وسئل أي شيء أعجب؟ قال: من عرف الله ثم عصاه. وقال: لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن. وقال: من عرف الله لم يكن =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله – مع الشاب لما قال له: إن أشد الصبر الصبر عن الله، كيف غُشي عليه، فما غشي عليه إلا لتوهمه فقد حظ نفسه، فأقام الله هنا مقام حظ نفسه، وهو تلبيس من النفس على نفسها في العلم.

والصادق لا يفوته مثل هذا الشهود فينصف، فلهذا عجلنا في تفسير الصبر عن الله إلى طريق ما ذهبت إليه الجماعة منهم، لأجل هذا حتى تنصف ولا تلبس على النفس، فقلنا: إن الصبر عن الله أشد الصبر، إنما هو عبارة في أخذنا الصبر عن الله من اسمه الصبور؛ لأنه وصف نفسه بأنه يؤذى فيسمى بالصبور، فمن قام في صبر قيام الحق في اسمه الصبور، فقد أخذ [عن الله صبره] (١)، وهو على العالم بالله هين الخطب، ولكن ذلك العارف قليل، وقد تقدم تفسير ما بقي من كلامه في هذه الوصية قبل هذا.

=

له غم. وقال: إلهي، أحبك الخلق لنعمائك وأنا أحبك لبلائك.وقال: ليس للأعمى من رؤية الجوهرة إلا لمسها، ولا للجاهل من الله إلا ذكره باللسان.

وسئل هل تظهر صحة الوجد على الواجدين؟ فقال: نورًا مقارنًا لنيران الاشتياق، فيلوح على الهياكل آثارها. وقال: طرح الأمال قد خاب إلا إليك، وعلو الهمم قد تقطعت إلى عليك، ومذاهب المعارف قد استدت إلا إليك. وقال: الوفاء والإخلاص في النطق واستغراق السرائر بالصدق، مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. [انظر ترجمته الكواكب الدرية رقم (٣٣٥)، الحلية (٣٦٦/١٠)، سير أعلام النبلاء (٣٦٧/١٥)، وتاريخ بغداد (٣٨٩/١٤)، وصفة الصفوة (٤٢٦/٢)، والرسالة القشيرية (١١٦/١)، المختار (٢٩٢/٢)].

(١) في (ب): صبره عن الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما بقي من هذا الفصل إلا قوله في آخره: (وإياك أن يصدر منك قلق أو ضجر باختيارك) لا شك أن الإنسان إذا علم أنه مجبور في اختياره، لم يزل يتقلب في الجبر دائمًا، سواء كان مختارًا أو غير مختار، فمن غفل عن هذا الذي قلناه، وفرق بين الجبر والاختيار، رأى الجبر في الاختيار، فيقول: لا يغيب عنك حين الاختيار [كما يغيب عن بعض الناس، فإذا كان جبر الاختيار] [١] لك مشهودًا في الفعل، كأن حكمك حكم المجبور، والمجبور غير مؤاخذ ولا مطالب، ولكن السبيل إلى شهود هذا الجبر في الاختيار الذي يسقط المطالبة، عزيز المنال ذوقا، فإياك أن يخدعك علمك بأنك مجبور في اختيارك، فإن ذلك غير نافع إلا أن يكون ذلك عن شهود ذوقي، لا عن استحضار، وقد نصحتك، ولا يُعرف [الذوق في] [٢] ذلك إلا باستصحاب هذا في جميع تصرفاتك الاختيارية، فيكون فيها حالك حال المجبور الذي يعرف العامة إجباره، فإذا كان هذا حينئذ تنتفع بالجبر في الاختيار؛ لأن الاختيار هنا عند القوم يقوم مقام العقل المجبور عليه في العادة، فاعلم ذلك.

ثم قال (وإياك أن تُبدي شيئًا من ذلك عند أحد من خلقه، أو يصدر منك ذلك عند أحد باختيارك تحفظ من ذلك جهد طاقتك) الإشارة بقوله: (من ذلك) إلى ما تقدم ذكره آنفًا، فإن أهل هذا الطريق صغيرهم وكبيرهم، جميع العامة ناظرة إليهم بالاقتداء بهم، فإذا ظهر منهم شيء من ذلك ربما اقتدى بهم الضعيف الرأى، فيقول: هذا فلان الصالح من أهل الله قد فتر عن كذا، أو ترك من الأعمال، فلولا ما رأى في ذلك أنه لا يقدح في مقامه، ولا في حاله، ولا في الطريق إلى الله تعالى ما فعله ولا اتصف به، فيتركه هذا العاصي اقتداءً بذلك المنسوب إلى الله

---

(١) سقط في (أ).

(٢) في (أ): الذوقي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيخسر، فلهذا أوصاك أن لا تُبدي شيئًا من هذه الأمور التي طرأت عليك لأحد من خلق الله باختيارك، فإن اطلع عليك في ذلك أحد من العامة من حيث لا تشعر ولا يكون لك فيه اختيار، فذلك إلى الله ليس لك، ألا ترى في وصيتنا للشيخ أنه لا يترك المريد يطلع عليه في خلواته، ولا في أكله ولا في شربه، ولا في شيء من هذه الأمور الطبيعية، فإن الشيخ يتصرف في ذلك كله تصرفًا إلهيًا عن وجود إلهي محقق، والمريد لا يعرف ذلك إلا ما جرت العادة به في العموم من الخطأ البشري الطبيعي، فينقص الشيخ بذلك في عين هذا المريد الذي يكون بهذه المثابة، فإذا نقص حرم الانتفاع به، فمن نصح هذا الشيخ في تربيته ألا يطلع له مريد على شيء من الأمور الطبيعية، التي تشركه في الصورة العامة، وبينهما بالذوق ما لا يعلمه إلا أصحابه.

قال الجهلاء: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، فأنكروا عليه ما يفعلونه، ولهذا حُرموا الانتفاع به، ولهذا كان يقول لهم في أكثر حالاته مما أمره الله به أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فصلت: ٦]، ثم نبه على المقام الفارق بينه وبين العامة في التصرف، وإن وقع الشبه في الصورة، فقال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: ٩]، من ربي، فالعامي يمشي ويتصرف بالأمر العادي الطبيعي، والنبي والوارث يتصرف عين ذلك التصرف بالوحي الإلهي، وهو الذوق الذي قلناه، والحركة عين الحركة، والسبب مختلف غيبي يعرفه النبي والوارث من نفسه، ويجهله العامي منه ومن نفسه، فمن أراد الله حرمانه وخسرانه في تجارته؛ أطلعه من الشيخ على فعل طبيعي من غير اختيار من الشيخ لذلك الاطلاع، فالأولى من علم عن نفسه أنه ينظر إليه العامة بعين الخير والصلاح، ويُقتدى بفعله أن يستر نفسه عنه في تصرفه الطبيعي نصيحة لهم، فإنه مأمور بذلك من الله في قوله ﷺ «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قالُوا لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: لِلَّهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[١]، نعم فمن النصيحة تَسَتُّر هذا الشخص عن العامة بذلك، ولا يقال في هذا الموطن إنه مرائي، فإن الرياء وعدم الرياء مع أحدية الصورة يتغير بالقصد، فإذا كان القصد جميلاً حمده الله، وليس الغرض إلا أن يشكر الله فعلك، فإذا شكر فعلك لا تبال مَن ذمه أو حمده.

ثم قال (ولا تتعلق بشيء ترجوه من الله أن يكون من قسمك عند الله، فإن الله تعالى ينجز ذلك كرمًا منه، ولطفًا، وإحسانًا إلى من يشاء من عباده، فقدر هذا مع نفسك، وكن على ثقة ويقظة في ذكر) . قال رسول الله ﷺ يقول الله U: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرًا»[٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]، فظنهم أرداهم، فالظن بالخير بالله ينجي من الردى، فإذا رجوت الله في أمر فلابد من ذلك الأمر أن يكون لك أو مثله، فلا تستبطيء ذلك، فإن الأمور عند الله مؤقتة، فإذا جاء الوقت ظهر لك الأمر.

وأما قوله: (كن في ذلك على ثقة) أي: من الله أنه لابد لك من أن يحصل ما تعلقت بتحصيله همتك، أو مثله أو أعظم منه مما تحمده وتُسر به.

وقوله: (ويقظة) يحذرك من الغفلة أن تكون صفتك، فاليقظة هنا انتظار ما حسنت الظن فيه بربك أن يحصل لك.

وقوله: (في ذكر) أي: لا يحملك تأخير ذلك والاستبطاء عن العمل، والذكر وهو أن تذكر مع الله في الأنات، فإن الله يحب الملحين في

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدعاء، ولذلك كثرت من النبي ﷺ [مناشدته يوم بدر] (١) ربه في النصرة، لعلمه بذلك، ولما لم يعلم أبو بكر t ما علم، علمه رسول الله ﷺ قال له: يا رسول الله يكفيك مناشدتك ربك، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك، فلولا أن أبا بكر سمع رسول الله ﷺ أن الله قد وعده ما ذكر ذلك ولا تحكم على الله، لكن غاب عن أبي بكر ما علم رسول الله ﷺ من ربه، الذي جعله يكثر مناشدته في ذلك، فلم يكن أبو بكر t بأقوى نفسًا، ولا أحصى في علم من رسول الله ﷺ، وما حمل أبو بكر t على هذا إلا شفقة على رسول الله ﷺ، لما رأى ما هو فيه من الشدة والتضرع، حتى كان من قوله لربه: «إن تهلك هذه العصابة لن تعبد من بعد هذا اليوم»(٢)، فانظر ما تحت هذا الخبر من الفوائد لمن يفطن، وعلم كمال رسول الله ﷺ في ذلك.

ثم قال: (فاجتهد أيها المريد إذا سُلك بك هذا المسلك، أن تقف عند شيء يعرض لك من العوائق، فإنه أول ما يعرض عليك شيء خرجت منه، وبعته لله تعالى) فاعلم أولاً أن كلام هذا الرجل وإن كان فيه تخبط فالقصد مستقيم، ولو أذن في تحرير ألفاظه حررناها، لكن لابد أن [نحرك ما] (٣) شرحنا لكلامه حتى يستقيم الفهم فيها؛ لأنه لا يجوز لك أن يجعل الله مشتريًا إلا فيما جعل هو نفسه فيه ولا تتعدى، وليست إلا نفسك إن كنت مؤمنًا، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، لدعواهم في ملكها، فذكر وهو الصادق أنه اشتراها منهم، فتضمن شراؤه إياها بيعهم بقوله في بيعهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي﴾ أي: يبيع ﴿نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، وليس

---

(١) في (ب): تذكره يوم بدر مناشدته.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في (ب): نحررها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلا المؤمنون، فهذه الآية أخت الأخرى، فدلت هذه الآية على بيعهم، والأخرى على شراء الحق منهم، وبين الصنف الذي باع وهو المؤمنون، ولذا قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وما قال الناس فجاء بحرف التبعيض، فإن العلماء من الناس ولا يتمكن لهم بيع نفوسهم من الله، لعلمهم بأن [ملك] (١) الله ما زال عنها فما اشتراها من العلماء، ولكن تصرف في نفوس العلماء ابتداءً، تصرف الملاك، وتصرف في نفوس المؤمنين ثانيًا بعد الشراء منهم، فبَين العالم والمؤمن فرقان عظيم ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، والذين أوتوا العلم هم الذين من الأمور على بصيرة، والمؤمن مقلد مُسَلِم، فالمؤمن متبع، والعالم لا يكون بهذه المثابة، فإن يرجع برجوع من مقلده، والعالم لو ابتلاه صاحبه بأمر يوجب الرجوع ما رجع من علمه لرجوعه، ويعلم أن رجوع صاحبه، وعرض ذلك عليه ابتلاءً لعلمه، والمؤمن ليس كذلك، فإن الله تعالى وإن أضاف الملك إلى عباده؛ فإن العالم يقبل الإضافة ولا يقبل المُلك عباده، فإن العلم يمنعه من ذلك، والمؤمن يقبل الملك والإضافة، فوقع البُشرى من المؤمن لا من العالم، وما اشترى منهم إلا نفوسهم خاصة؛ لعلمه أن جميع ما يملكه المملوك تابع له، فإذا اشترى تبعه جميع ما يملكه، فكأنه اشترى الجميع لأن السيد له التصرف في عبده وفيما يملكه عبده، فملك العبد مزلزل، ومن الناس من يرى أن الأمور مستحقة فيأخذها بالاستحقاق لا بالمِلك، وهذا هو طلبه الأحوال كما يقول: باب الدار، فالدار تستحق الباب فيضاف إليه إضافة استحقاق؛ لأن الدار يملك الباب، كذلك الأمور كلها بالنظر إلى الحق سبحانه وتعالى، يستحق بعضها بعضًا، والمالك الله خاصة،

(١) سقط في (أ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن مالك الدار مالك لبابه، فلا نبيع من الحق؛ إلا ما قال فيه لنا أنه يشتريه ولا يزيد على ذلك.

وأما ذكره العوائق، فاعلم أن كل علاقة عائقة، وما كل عائقة علاقة، فالعلائق ما لك بها تعلق قلبي فتعوقك العلاقة لمحبتك فيها عن غيرها، فلا يكون لك مطلوب سوى ما تعلقت به، ما لك همة فيما وراء ذلك، وأما العوائق فهي الأعم في المنع، فإن العوالق ما تتعلق النفوس بها وهي العوائق الداخلة، ومن العوائق ما لا تتعلق النفوس بها وهي الموانع من خارج، التي نهاك الحق عن التعلق بها، وأما ما أمرك الحق بالنظر فيها وتدبيرها من أهل وولد وغير ذلك فما هي عوائق، فإن الحق تعالى قد شرع لك فيها طريقًا إليه، إذا سلكت عليه وصلت إلى مطلوبك، وهو الله فليس الأهل والولد، ولا كل ما أضيف إليك، وشرع فيه طريقًا إليه تعالى بعائقة، وإنما الغافل تعلق خاطره بأمر معين من عند الله لا بالله، فيكون ذلك الأمر الذي أضيف إليه عائقًا بينه وبين من يروم الوصول إليه مما هو من عند الله، ولو كان مطلوبه الله لا من عند الله؛ ليسلك على الطريقة التي شرعها الله في ذلك الأمر الذي سماه هذا عائقة، فوصل إلى الله، فهذا من جهل الناس بما يطلبون وبما يسلكون عليه، لا جرم أنهم ما يبرحون في التشويش ونكد الخاطر والأمراض النفسية، فإن سبب المرض إنما هو الغرض، فمن لا غرض له لا مرض له، أعني المرض النفسي.

وأما قوله: (أول ما يعرض عليك الدنيا في صورة إمرأة جميلة فائقة في الجمال، فالله الله لا تنظر إليها) هذا الرجل إنما يصف حاله، وربما أنه هكذا عرضت عليه لعلم الحق به أنه يحب المرأة الجميلة، وما هو الأمر مقيد بما قال، بل الحق إنما إذا أراد أن يبتلي عبده نظر بماذا هي النفس متعلقة وما المحبوب له، فتجلى له الدنيا وكل شيء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يختبره به في صورة ذلك المحبوب، ليرى هل يتعشق بـه ويقبلـه، أو ينفقه في ذات الله ويخرج عنه، فالله تعالى يقول ﴿لَن تَنَالُوا البرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فكان ابن عمر يحب (السكر) ويقول: إني أحبه فلا أتصدق إلا بما أحب.

فتقييده في الدنيا بصورة امرأة، إنما ذلك تفيد حالة فلا تطرد ذلك، فإن الأمر على ما قلنا، وإنما يعرض الله على هؤلاء القوم مملكته لكونهم ادعوا فيه، وأنهم طالبون إياه غير ملتفتين إلى ما يكون منهم، فابتلاهم الله بكل مستحسن ليفتتن ذلك الطالب، فإذا عرض عليه ما هو محبوب له فهنا يتفاضل الناس، والجاهل منهم بالأمور لا يلتفت إلى ما جاء ولا إلى ما عرض عليه، فهو الصادق في دعواه؛ إلا أنه لا يجيء منه مربي ولا شيخ أبدًا، والحاذق النحرير صاحب الفهم عن الله، إذا ابتلاه الله بعرض ما ذكرناه عليه، يقبله أدبًا مع الله لا تعشقًا به، ويعرف نور تلك الصورة ومصدره، و بماذا يكون حجابًا، وبماذا يُصرف حجابها، ويحيط علمًا بها كل ذلك في نفس التجلي، ثم يقول بعد تحصيل ما ذكرناه من العلم بتفاضل ذلك: رتب ما طلبك لهذا، أو أنت تعرف مطلبي، فيجلى له ملكه شيئًا بعد شيء عرضًا وهو يقابل كل ذلك بما ذكرناه، ولا يقف معه بعد تحصيل العلم بذلك إلى أن يترك له شيئًا مما هو موجود، فإذا لم يقف حينئذ عرف صدق دعواه، وقُرب ووهب مشاهدة الحق، فيعلم عند ذلك أنه عين كل ما جلي له في الابتلاء، فعرفه في كل شيء، ورآه صورة كل شيء، فهذا يجيء منه شيخ حقيقة للتربية، ولو كان في زمان نبوة شريعة لكان صاحب هذا الذوق رسولاً، ولكن أغلق هذا الباب وما بقي إلا الوارث خاصة، وهو شرع خفي لا يشعر به إلا صاحبه، وحجابه الوراثة، فلو قلت رسولاً كفرت، ولو قلت وارثًا صدقت، والعين واحدة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيقول هذا الرجل في وصيته: (فإياك، ثم إياك تنظر إليها) والله الله هذا جهل منه بالأمر، وخور في الطبيعة، وشفقة على نفسه لضعفه، بل العارف أو المريد المنبه ينظر إليها وإلى محاسنها لمواعظ فيها، وإلى ما تجملت به، [ويزن] (١) لها من نفسه ما يناسبها فتعشقه بها، أعني: ذلك المناسب، فالإنسان مجموع العالم فما يظهر الله صورة؛ إلا وعنده ما يطلب تلك الصورة، ولا يزال الأمر كذلك حتى يحصر له أجناس العالم، فإذا لم يبق [فيه] (٢) إلا السر الإلهي الذي لا يقبل إلا الكل، حينئذ يرفع الحجب، ويتجلى له فيراه الكل، فينظر في نفسه، فيرى نفسه من جملة الكل، فيراه به، فلا ينقده بعد ذلك في صورة مقيدة وغير مقيدة، فيكون هذا العبد مقيد في إطلاق، مطلقًا في نفسه كما هو الأمر في نفسه، غير ذلك ما يقتضيه العلم بالله، بل ما ثم ما يقال فيه غير ذلك، فهو عن الحجاب، والمحجوب، والمحجوب عنه، فما ثم إلا الله ليس سواه، فأنت به في الحالين تراه.

وأما قوله (فإن من نظر إليها قتلته) فذلك إن كان ذوقا له ما قال فقد هلك، وإن كان صاحب قياس فلا كلام معه، وإن كان لم يقله ذوقا فقد عرف الأمر على ما هو عليه، فلا يحذر منه وهو المطلوب، وما هو، والله أعلم إلا محجوب غير عارف بالأمر، فإنه قال عقيب هذا: (والعياذ بالله من ذلك) فدل على أنه ليس عالمًا بالأمر، إذ لو كان عالمًا بالأمر على ما هو عليه لقال في استعاذته: والعياذ بالله من الله، كما قال في هذا المقام رسول الله ﷺ صاحب الكشف الأتم «وأعوذ بك منك»، لما كان كشفه وعلمه ما ذكرناه فلم يحدد ممن يستعيذ إليه، وانظره في تعليمه ﷺ لحال المحجوب في قوله: «أعوذ برضاك من سخطك،

---

(١) في (ب):وتبرز.

(٢) زيادة في (ب).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبمعافاتك من عقوبتك»[١]، فاستعاذ من صفة لصفة، ومن فعل بفعل، فلما أراد أن يعرف الأمر على ما هو عليه، من أنه عين الرضا والسخط، والعافية والعقوبة، قال: «وأعوذ بك منك» فوقف بالله مع هذا القول الأخير، ووقف الراسخون في العلم بالله مع الكل، وأعطوا لكل موطن حقه، وهو الذي يعول عليه.

وأما قوله: (بل يا مريد الله الهرب من هذه الصورة) يعني صورة الدنيا الذي تقدم ذكرها.

ثم قال: (وقدر مع نفسك أنها سبع تأكلك) بل أبلغ من ذلك، فإن السبع يفوتك الحياة الدنيا، وهذه تفوتك حياة الدارين، فكن على يقظة من ذلك، ثم دعا بالتخليص من شرها، وشر [الشيطان][٢]، وشر نفسك، إما مبالغة في ذلك فشفقة عليك على قدر علمه، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ العِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]، ولم يكن [عالمًا][٣]، وهذه وصية في العموم لعامة الناس لا لأهل الطريق، ولا لمريد التربية، فإن مريد التربية شيخه يدبره، فهو يأمره بالإعراض عن تلك الصورة، والإقبال عليها هذا ما يلزمنا، فإن العلم يأخذ الأمور من صور الأحوال والمخلوقين، وعزيز جدًا قليل من العارفين من يعرف ذلك.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها رقم (٤٨٦) كتاب: الصلاة باب: ما يقال في الركوع والسجود، والترمذي في سننه رقم (٣٤٩٣) كتاب: الدعوات باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد، وقال حديث حسن، وأبو داود في سننه رقم (٨٧٩) كتاب: الصلاة، باب: في الدعاء في الركوع والسجود، وابن ماجة في سننه رقم (١١٧٩) كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في القنوت في الوتر، والحاكم في المستدرك عن علي بن أبي طالب t رقم (١١٥٠) كتاب: الوتر وقال صحيح الإسناد، والطبراني في معجمه الأوسط رقم (١٩٩٢) (٢/٢٨٣)، والإمام أحمد في مسنده رقم (٧٥١) (١/٩٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه رقم (٢٩٧١١) كتاب: الدعاء باب: ما يدعو به الرجل في آخر وتره.

(٢) في (ب): الشياطين.

(٣) في (ب): علمًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه الوصية تليق بالعُباد والزُهاد، لا بالمريدين، فإن سماهم مريدين لكونهم يريدون سلوك طريق السعادة ظواهرهم، لا سعادة بواطنهم، فإن سعادة البواطن والقلوب، في تعلم الأخذ من هذه الصورة الدنيوية والشيطانية، والنفسانية، فإن الله تعالى يقول: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ٢٠]، أي: ممنوعًا فما حجر عطاءه جعل الإمداد منه للفريقين، ليسعد من يشاء، فيعرف كيف يأخذ من الله في هذه الصور المذمومة، وكيف يتصرف فيما يأتيه به، وكيف يتعشق بها ويحبها الحب البليغ، وذلك لعلمه من أي حضرة يمدها الحق، فإن عطاءه ليس ممنوعًا، ويعلم مزاج تلك الصورة الجسدية، ويفرق بين مزاجها ومزاج الصورة الجسمية، وإذا كان الكل من عالم الطبيعة، كما أن جميع ما تأتي به تلك الصورة الجسدية الجسمية من الإمداد الإلهي.

ولا ينبغي أن يرد شيئًا مما يأتي من الله على الله، بل العارف من المريدين الصادقين، يعرف كيف يصل، وما يليق من الأدب مع الله في تلك الصورة، فيعامل الحق بذلك الأدب هذا هو الذي عليه أهل الله، فلهم لسان الحمد المطلق الذي لله على عباده، وما عدا هؤلاء فلهم لسان حمد، ولسان ذنب، فهم أهل تقييد، إما بشرع وإما بغرض، وإما ملائمة طبع، وإما بالنظر إلى كمال ونقص، فأحمد هذه كلها، من يذم ويحمد بلسان شرع، لأنه أخلص لكنه دون من ذكرناه من أهل الله أهل لسان الحمد المطلق، الذي لا ذم فيه، وكيف يذم أمرًا يكون من الله؟ فينبغي للعارف، والمريد الصادق أن يعرف سر الذم الإلهي للأشياء مع كونها منه، وفي ذمها من الأسماء الإلهية، وهل لها تخليص في هذا الذم إلى الحمد، فترجع محمودة بعد ما كانت مذمومة، أم لا؟ وهل التقسيم في الحضرة الإلهية يصح أم لا؟ فإن صح، فما سببه؟ وإن لم يصح، فما سببه؟ ومن عرف تقسيم الله الصلوات بينه وبين عبده نصفين، عرف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما قلناه، فإن الله ما قسم بينه وبين أحد من خلقه أمرًا هو له؛ إلا بينه وبيننا، لكون هذه النشأة مخلوقة على الصورة الإلهية فهي ظلها، فما خرج من التقسيم عن نفسه، فكأنه يقول: قسمت الصلاة بيني من وجه كذا، وبيني من وجه كذا، فلي حكم خاص من كل وجه في كل وجه، وإنما هو ذاتك لوجهان ليس غير، فهذا يوصي المريد الخاص الذي يطلق عليه من أهل الله وخاصته، وهم أهل القرآن الجامعون لحقائق الأمور، فما ثم صورة تفوتك حياة الدنيا ولا الآخرة.

فمبالغة هذا الموصي في هذا الأمر لأحد وجهين: إما لعدم علمه بما هو الأمر عليه، وإما لكون الأكثرين لا علم لهم بما هو الأمر عليه، فوصى بما جرت به العادة بين الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، وبين نفوسهم، والمريد، فمن أجل أن ينخرطوا في سلك هؤلاء بصورة مَن خرطوا فيه، فما شبه العالم مع الإمداد الإلهي إلا كما قال الله تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾، والناس من جملة الأشجار والنبات، فإن الله تعالى يقول في تركيبهم الطبيعي: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]، نبتم نباتًا، ثم قال بعد قوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات وبراهين ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد: ٤]، على ما يريد بذلك، فيعلمون الأمور على ما هي عليه، وصور الأحوال كالثمر لهذه الأشجار، وفيها يقع التفاضل في المطاعم، وقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ لا اختلاف فيه أنه واحد، ثم قال: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا﴾ أي: بعض هذه الأشجار ﴿عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ يعني من هذا الماء الذي هو غذاؤها وبه حياتها، فإنه جعل من الماء كل شيء حي فيكون قبول بعضها أفضل من قبول بعضها، وقبولها عين أكلها، وهو الغذاء الذي يتغذى به من ذلك الماء على حد مزاجها وحقيقتها، فترده إلى طبيعتها وحالها، فلا يظهر فيه صورة الحلاوة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمرارة، والماء واحد لا يتصف بشيء منها، كذلك الحمد والذم، للأحوال الظاهرة على شجرات الناس، المدد الإلهي واحد والذم والحمد [ينطق] (١) به منها، وأصل هذا كله التنبيه على أن تجلي الحق واحد، واختلاف الحكم عليه في صورة تجليه أنه راجع إلى أعيان العالم الذي هو مجالي الحق، فالوجود العيني له والحكم للعالم في ذلك الوجود، وهذا هو العلم الذي يُدندن عليه الكُمل من أهل الله، مثل الرسل والورثة، والكتب المنزلة الإلهية وردت به في كل ملة، ونطقت به التراجمة عن الله تعالى ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، فإذا تفاضل قبول الشجرات في الأكل مع الماء مع أحدية حقيقته؛ تفاضل أيضًا طعم ما تأتي به هذه الشجرة من الثمرات عند من يأكلها، فجاء تفضيل بعضها على بعض في الأكل لها ومنها، فهكذا فلتفهم حقائق الأمور.

وأما دعاء ربه بالتخليص من شر أمور الدنيا، فهو التخليص من تعلق الخاطر بها، فإنها حالة مفارقة للإنسان لأنه مراد للآخرة، فهو في الدنيا ظل زائل، وعرض مائل، وإن الإنسان إذا تعلق بما يزول عنه تعلق تعشق؛ صعب عليه مفارقته، فعظمت عند الموت حسراته لمفارقة المألوفات، وقد عرض هنا جهل آخر قائم بغير أهل الله، وذلك لمن كان في لبس من خلق جديد، ومن شهد أن العالم بأثره أعني: صورة ما ظهر يتجدد مع الأنفاس، وهو تقليب الحق في التجلي؛ لم يكن له حسرة عند فراق الدنيا بالموت، فإنه يعاين تجديد الخلق، فلا ألفة لمن لا بقاء له إلا في زمان واحد، والعلم بهذا أعز المطلوب وأفضل ما يكتب، وما رأيت عليه في زماننا أحد لعلو منصبه وسر عزه سببه.

---

(١) في (ب): يتعلق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما دعاؤه بالتخليص من شر الشياطين، فيريد الشياطين الذين لهم اللّمات في قلوب المخلوقين من البشر خاصة، وغير الخاصة إذا دعوت بمثل هذا الدعاء إنما تريد شر البعيد مما يكون معه العلم بالأمر على ما هو عليه، إذ الشيطان معناه البعيد من رحمة الله المقررة في ظاهر البشر، فإن الشيطان في الخلق المارجي الناري، كالكافر في الخلق البشري الطبيعي، فهي استفادة وطلب تخليص من هذا المقام.

وأما الدعاء بتخليصك من شر نفسك؛ فما هو إلا لكونها قابلة، فقد تقبل لجهلها ممن يقبله يقبلها وقد لا تقبل منه، فإنها على حقيقة لا يكون عنها شرًا ولا سوء إلا بالقبول من محل الشر والسوء، وليس إلا شياطين الجن خاصة، وأما شياطين الإنس فهم قابلون من شياطين الجن ما يأتونهم به من مخالفة الشرع، فيلقونه إلى أمثالهم من الإنسان، فسماهم الله شياطين الإنس، ولذلك قال في شياطين الإنس والجن: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾ [الأنعام: ١١٢]، فيوحي شيطان الجن والإنس ما يكون به إذا سمع منه، واتصف به على حد ما قصده به شيطان الجن شيطانًا، أي: بعيد عن سعادته لا عن الله، وإن جهل، والتخليص من الشر إنما هو التخليص من ظاهر الأمر إلى معناه وشره، ولهذا جاء في لغة العرب لفظة الشر فيه، وقد يدل على الظهور، كما قال إمرؤ القيس في قصيدته:

لو يسرون مقبلي

وفيه روايتان بالسين المهملة وهو الإخفاء، وبالشين المعجمة وهو الإظهار، فقال: (لو يشيرون) أي: يظهرون بالشين المعجمة، فما سمي الشر إلا لظهوره على الخير؛ إذ الخير باطن والشر هو ما ظهر للإنسان العالم في باطنه وظاهره، وما خفي عنه في ذلك من ذلك فهو الخير؛ لأنه العلم بالإمداد المجهول الإلهي هو خير مطلق، ويظهر في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صورة بالقبول، فسمي خيرًا بنسبة خاصة، وشراً بنسبة خاصة، وكل يتعلق بحسب ما يغلب عليه من ذلك.

فلا نأخذ وصية هذا الموصي لشخص خاص، بل ننظر في قوله ووصيته، فما يتعلق من ذلك بمريد التربية جعلته له، وما يتعلق بالمريدين مطلقًا من ذلك جعلته لهم، وما يتعلق بالعُباد والزهاد والخارجين عن هذه الطريقة الخاصة جعلته لهم، وما يتعلق من ذلك لعامة المؤمنين جعلته أيضًا لهم، وسواء قصد هذا الموصي ذلك وعلمه، أو لم يقصده وجهله، فاعتمد أنت على قوة الكلمة، وأين يظهر أثرها، ومن صاحبها؟ وكُل البقل ولا تسأل عن المبقلة تنتفع بذلك، فإن الله تعالى قد يُنطق بالحكمة من لا يعرف أنها حكمة، ولا يعرف قدر ما نطقه الله به ليسمعها طالبها، فإنها ضالة كل حكيم وهو ينشدها، فحيث ما وجدها ولا علم للناطق بها، فالحكمة ضالة كل حكيم، فإذا حصلت عند العالم بها فلا يخرج منها مخرجها ممن لا يعرفها، فإن رسول الله ﷺ قد عرف من يعلم ذلك، أعني بمن يعلم أنها حكمة يدل على سعادة، فقال: «لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها» يعني أنها تضيع عنده بجهله بمقدارها إذ ما وضعت إلا لتتقيد بها، وتقيد هي من يعلمها حكمة، ولهذا سميت حكمة وما سميت علمًا، فهي علم خاص، وقال: «لا تمنعوها أهلها فتظلموهم»[(١)]، فمن الحكمة إعطاؤها لأهلها ومنعها من ليست له أهلية، فأمرنا عليه الصلاة والسلام بمراعاة الحكمة مراعاتنا من يعقل، فأوجب للمعاني حكم ما أوجبه لأولي الألباب؛ لعلمه بأن كل شيء حي يسبح الله، والحكمة من جملة الأشياء، فنِعم ما نبه فإنه نبه عن علم عَمْي عنه أكثر الناس، فالحكيم مع الخلق على قدرهم، ومن

(١) بلغة الغواص أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٧٧٠٧) كتاب: الأدب وقال: حديث صحيح، والمناوي في فيض القدير رقم (٢٤٧/٥)، والعجلوني في كشف الخفا رقم (٣١٢٤) (٥٠٣/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان معهم على قدرهم كان على قدره إذ كان مجموعهم، والحكيم من أنزل الناس منازلهم.

ثم قال: (ثم يعرض عليك بعد ذلك أشياء، هي من بقايا الدنيا دون ما سبق ذكره، فتحفظ منها أيضًا) قد قدمنا أن هذا الرجل يصف حاله فقد يقع الأمر على ما قال، وقد يقع على غير ذلك، وأما وصيته بالتحفظ من ذلك، فهو خوفه عليه بالحجاب بالتعشق بما ظهر له، وذلك لحمله بوجه الحق فى جميع ما يظهر له، فلو علم أنه من أهل الوجه ما أوصاه بالتحفظ.

واعلم أن الدنيا نعمة مطية المؤمن العارف عليها يبلغ الخير كله، وبها ينجو من الشر كله، وهى من جملة ما اختبر الله بها عباده المدعين فيه، فمن تعشق بوجه الحق منها وقبلها على حد ما أعلمناه، فقد فاز فوزًا عظيمًا بما فاز به خاصة الله، ومن تعشق بها من غير رؤية ذلك الوجه خِيف عليه أن ينترك معها، وهو الذي خاف منه صاحب هذه الوصية، وكذلك الكون كله إذا عرض عليك في الدنيا وآخره، ومحموده ومذمومه، فما من صورة تظهر في العالم محسوسة أو متخيلة بالخيالين، المتصل والمنفصل، أو معلومة؛ إلا ولها روح هو حياة تلك الصورة، وذلك الروح هو المعبر عنه بوجه الحق منها، وليس الغرض إلا العالم بذلك الوجه دنيا وآخرة، وحسًا وعلمًا وخيالاً، والوصية به أولى من الوصية بالتحفظ من تلك الصور، فما من شيء إلا وهو يسبح بحمد ربه، ولكن لا يفقه كل أحد تسبيح ذلك، وكيف يتحفظ من ذاكرٍ لله، وهو محل الإقتداء به وهو المعين، فما ذلك إلا لعمى البصيرة، ولذلك قال: ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وفرضنا أنا لا نفقه ذلك فما يكفينا الإيمان والتصديق بقول الله تعالى الصادق والمتواتر، أن ذلك يسبح بحمد الله تعالى، فقد شهد الله تعالى بعدالته وزكاته، فالرغبة فيه أولى من الرغبة عنه، فإن الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جليس من ذكره[1]، وكل ما في العالم في الدنيا والآخرة ذاكر ومسبح فالله جليسه، فمن جالس ذاكر الله، فقد جالس الله من حيث أنه تعالى جليس لهذا الذاكر، فلا يكون بعد ما ذكرنا في هذا الأمر، ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً﴾ [النحل: ٩٢]، وما أظهره الله تعالى من أسمائه عند ذكر هؤلاء الذاكرين له بالتنزيه الذي لا يصل إلى فهم كل أحد إلا الحليم الغفور، فالغفور من حيث أن الله ستر عن بعض أعين عباده وأسماعهم، إدراك ذلك التسبيح، والحليم من حيث أنه ذكر لنا أن ذلك مسبح بحمده، وأنا لا نفقه ذلك، فما وفينا حق الإيمان بقول الله في ذلك، فعرضنا أنفسنا لله قربة، فوصف نفسه بالحلم عنا في ذلك، فلم يؤاخذنا في العاجلة ولا ندري ما يفعل بالآجل، فإن الحليم حلمه المهلة بالعقوبة لا غير، وإن أخذ بها في المستأنف فقد وفى الحليم حلمه، وإن لم يأخذ بذلك عنده، فمن حكم اسم آخر مثل الغفور الذي قرنه به وإخوته، فما أحكم صور القرآن وما أبدعها، لمن كشف الله عن بصيرته، ورزقه الفهم فيه، فما في العالم متكلم بأمر؛ إلا وذلك الكلام شرح للقرآن، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، إذ لا يخرج عن كتاب الله شيء وهو قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ثم قال: (ثم تُعرض عليك بعد ذلك صور أحوالك، وهي من أثار الدنيا، فكن في ذلك جميعه على حذر وحزم بالغ، قال قتادة من أصحاب النبي ﷺ وكان من أولي الفهم: ما أنصف أحد الدنيا، ذُمت بإساءة المسيء فيها، ولم تحمد بإحسان المحسن فيها) فيا أخي أعلم أنك لو تفطنت أنها محل القرب الإلهي، والقُرب العملية لهمت فيها عشقًا

---

(١) يشير إلى الحديث المروي عن كعب قال قال موسى u أي رب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ قال يا موسى: «**أنا جليس من ذكرني**» ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (١٢٢٤) كتاب: الطهارات باب: الرجل يذكر الله وهو على الخلاء أو وهو يجامع، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٦٨٠) (٤٥١/١)، والعجلوني في كشف الخفا رقم (٦١١) (٢٣٢/١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالأصالة، ولهذا سميت الدنيا بالدنيا، أي: القريبة فهي الأقرب من الأخرى، والحال الحال فيهما على السواء، ومن كان حاله القرب فنعته القرب، وليس الغرض إلا ذلك.

وأعظم الاحترام من العبد المحترم لمرتبة سيده القيام بحرمته على الستر والغيبة، فهو أتم من الاحترام على الشهود، فإنه في الشهود مضطر لما هو المقام عليه من الهيبة، فمن وجد ذلك مع الحجاب والستر فهو في أعلى المقام، وأكمل في الإيمان، وأتم في الحال، وليس محل هذا إلا الدنيا لأنها تقتضي القرب باسمها من السرائر والبصائر، والآخرة تقتضي القرب بالأبصار، وأين البصائر في الرتبة من الأبصار؟ البصائر تدرك التنزيه والتشبيه، والصور والمعاني، والأبصار لا تدرك غير الصور، والآثار الظاهرة مع كون الحق بصر العبد، ولكن لا يدركه ببصره سوى الصورة الظاهرة، فإنه ناظر بالآلة، والصانع بالآلة في الصنعة رتبته دون صنعه بالهمة، والصانع واحد فيهما، وبين الحالتين في الرتبة ما لا خفاء به، والآلة في البصائر أتم منه وجودًا في الأبصار، وقد نفى أن تدركه الأبصار، وما نفى أن يعلم وهو حد البصائر بل أمر فقال: ﴿فَاعْلَمُوا﴾ [التوبة: ٣]، ﴿وَلِيَعْلَمُوا﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وإنما جاء الإدراك بالأبصار في ثاني الحال المجمع، فلذلك شرف الجمع لا شرف الادراك، فاعلم فهذا من كمال الجمع والوجود، وهو في البصائر أعظم منه في الأبصار لما تعطيه الأبصار من الحصر والتقييد، فإذا عرض الله عليك أحوالك صورًا، كما قال هذا الشيخ، فذلك من آثار الدنيا، أي: من آثار القرب الإلهي.

وقوله: (فكن من ذلك على حذر وحزم بالغ) هو مثل قول بعضهم: أقعد على البساط وإياك والانبساط. وهذا قول من لا ذوق له بالحقائق، وإن كان ما قصد إلا خيرًا فإن القرب المفرط حجاب كالبعد، وقد علمنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنه تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وهذا قرب الالتباس، فهو المانع من إدراك الإنسان له، لقول صاحب "المواقف" النفري: القرب حجاب[1]، يريد ما ذكرناه، ولكنه حجاب على الأبصار لا على البصائر، فلو علم هذا المُوصي أن المؤمن بقرب الحق منه لا يحتاج إلى حذر، فإن القرب عاصم في نفسه ما قال ذلك، بل دلك في هذه الوصية على البعد عن الله، فإن اشتغال العبد بالحذر وقوف مع الحذر في الوقت، فهو خاسر في وقت الحذر غير رابح، والحق له غير مشهود حجبه عن ذلك حذره، وإن كان رفيع القدر، فالذي ذكرناه أرفع؛ لأنه ما ثم عندنا نازل بالأمر في نفسه، رفيع وأرفع، وعالٍ وأعلى، فلو علم الله القائل أن الحق من صور أحوال العبد، بل هو من عين صور أحوال العبد القريب إلى الله، ما أمره بالحذر من حال؛ لأنه لا يصح الحذر من الأحوال بحصولها، إذ لا يكون حال إلا بحصوله لمن هو له حال، وإنما يكون الحذر من أمر لم يحصل فيحذر حصوله.

يقول بعضهم: إنما أجزع مما أتقي، فإذا حل فمالي والجزع، وكذا أطمع فيما أبتغي فإذا فات فمالي والطمع.

---

(١) هو العالم بالله تعالى المحمدي المقام سيدي أبو عبد الله محمد بن عبد الله، أو ابن عبد الجبار، تشابه بينه وبين اسم حفيده الذي جمع مواقف جده النفري t نسبة إلى نِفّر، بلدٍ من نواحي بابل بأرض الكوفة، ويلقّب بالسكندري والمصري؛ لأنه عاش بمصر، صاحب كتاب "المواقف الإلهية"، المبهر لكل عارف من بحر الحقيقة المحمدية غارف، من أكابر القوم وساداتهم من أهل القرن الرابع، نقل عنه الشيخ الأكبر t وغيره، وكتابه "المواقف" يعتبر معجزةً لرسول الله ، حيث إن عباراته في غاية العلو، لا يشكُّ العاقل المؤمن في القطع بأن هذا الكتاب من وراء طور العقل، بحيث لو قام جميع العلماء والحكماء من غير أهل الكشف وقصدوا أن يألفوا على منواله ما استطاعوا أن يأتوا بجزء كمثاله، وكذا كتاب "المخاطبات"، ولا يقول بأن هذا صادرٌ عن العقل إلا مختل العقل، ونقول له: فأت بشيءٍ من مثله إن كنت من الصادقين، والله يعلم أنه لمن الكاذبين، وقال: التقطوا الحكمة من أفواه الغافلين عنها كما تلتقطونها من أفواه العامدين لها، فإنكم ترون الله وحده في حكمة الغافلين كما في حكمة العامدين. وتوفي نفعنا الله به سنة ٣٥٤هـ، ويقال: إنه ربما توفِّي بمصر. انظر ترجمته [الكواكب الدرية رقم (٣٧٥) وطبقات الشعراني (١/٢١١)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم أن أحوال الخلق عين آثار الأسماء الإلهية ولها الحكم، إذ لا يكون حال إلا بالحكم، والحاكم لا يحكم عليه في حال كونه حاكمًا بما هو حاكم، فما تكلم هذا الشيخ في هذا الفصل وأمثاله؛ إلا بلسان العامة لا بلسان المعرفة والعارفين، لكن قصد خيرًا، وجهل الطريق، فيعطيه الله أجر قصده وإن حُرم الثواب، كالمجتهد إذا أخطأ له أجر الاجتهاد، وإن مضى حكمه وعُمِل به في حال ما، فلا يدل ذلك على إصابته الحق المعين الذي حكم الله به في النازلة، فتقرير الحكم شيء، والحكم من الحق شيء آخر، وبينهما فرقان يعرفه المتقي.

ثم قال: (ثم يعرض عليك سؤاله قبل استقامتك على الدرب، فلا تلتفت إلى شيء من ذلك أصلاً) هذا الرجل يصف ما جرى له، فيقول لك: إن حصل لك الأمر كما حصل لي فاعمل فيه كما عملت، وهذا من قصوره، فإنه لا يلزم ذلك أن يكون في معاملته لما يظهر الحق له، مختبرًا أو مُكرمًا على حاله ما كان هذا عليه، بل يكون في ذلك مع الله بحسب مقامه من العلم بالله، فقد يكون مثله وقد لا يكون، فلا يقيده بحاله ولا بمعاملته، ولا سيما وما عين إلا سؤاله هذا الموصي، وقد رأينا من أكرم من عباد الله قبل استقامته على الدرب، كإبراهيم بن أدهم، وكصاحب السكرجتين، وكصاحب الجراد، لم يكن واحد من هؤلاء مستقيمًا على الدرب، كذلك هذه السُؤلة التي تأتيه قبل الاستقامة، لا ينبغي أن يهملها، فإن العلم في الطريق أبلغ من العمل، فإن العمل ينقطع وله حد فينتهي إليه، والعلم لا ينقطع أبدًا ولا يعقل له غاية يوقف عندها، فوصيته ألا تلتفت إلى شيء من تلك الأسئلة قبل الاستقامة منه على الدرب، وأراد بالدرب الطريق إلى الله تعالى التي يسلك عليها القاصدون إلى الله، وهو طريق بطلب العلم والعمل في موطن خاص وهو الدنيا، وحال خاص وهو التكليف، فقد يكون تلك الأسؤلة مما يعطيه الالتفات إليها الاستقامة على الدرب، فلو عين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأسؤلة في وصيته لكنا فيها بحسب ما تقتضية تلك الأسؤلة، وبينا ما يلتفت إليه منها وما لا يلتفت على أنه ليس في الطريق شيء لا يلتفت إليه منها، هذا لا يكون.

وإنما الأكابر يدلون المريدين على كيفية الأخذ عن الله في كل شيء يعرضه عليهم، لأنه حكيم، ولا يعرض أمرًا على عبد من عباده إلا في وقت حاجته إليه، فمن رأى ربه فقد عمي عن حاجته التي جاء من أجلها ذلك الأمر الذي عرضه الحق، فيأخذه المريد الصادق دواءً لداء قام به، بل يعرف أنه ما عرض الحق عليه ذلك في الدنيا إلا ليستعمله في إزالة مرض قام به، فإن كان لا علم له بذلك المرض، فهذا الذي عرض عليه ينبهه على أن ثم ما يحتاج إلى استعماله، فيحرضه على النظر في ذاته، فإذا نظر وجد ذلك ضرورة، فاستعمل فيه ذلك الدواء، فإذا لم يلتفت إليه فقد فوَت نفسه خيرًا كثيرًا وأساء الأدب مع الله، حيث رد في وجهه ما أتاه الله به، فإن الأحوال من الشخص تطلب العوض من الله، فالحق يعرض ذلك من أجل سؤال الحال والوقت، ولا ينظر إلى صاحبه هل يعلم ذلك أو يجهله، فإن الغرض هنا ذاتي أظهره الحال من هذا العبد ولو عقل، فكيف لا يلتفت لأمر حاله أظهره، هذا غاية الجهل بالأمر.

ثم قال: (ثم إذا دخلت الدرب، فاسلك فيها بأدب، ولا تلتفت إلى ما يعرض لك إلى يمين الطريق وشماله، بل امش فيه على الاستقامة من غير التفات أصلاً، وكن في هذه الأحوال كلها ملازمًا للذكر، متحققًا به، ملتجئًا إلى الله، قاصدًا وجهه الكريم، راجيًا منه ما يشرفك به كما شرف عباده الصالحين، ولا تنسى ما كنت عليه، وما صدر منك من المعاصي، بل تكن ذاكرًا لذلك في كل موطن تصل إليه، حتى تصغر عندك نفسك، وتعرف قدرها وقدر ما أنعم الله به عليك، وكن في هذا كله ذاكرًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لمعصيتك، مستغفرًا لذنبك، معترفًا بما أنت فيه من التقصير، وكن ذاكرًا في كل وقت ما وصيتك به، وطالع هذه الأوراق، فإنك ترى فيها غياثًا إن شاء الله تعالى) هذا الرجل ما يتكلم إلا بحاله وذوقه، ويتخيل أن المطلوب منه من الله ما ذكره، وما يعرف أن الأمر قد يكون حال غيره مثل حاله وقد لا يكون، فله الأجر على القصد خاصة لا على الإصابة، فإن جميع ما ذكره لا يتصور كونه، فإن النفس لا تقبل في الزمان الذي لا ينقسم سوى خاطر واحد، فلا يتمكن لها أن تجمع بين شهود معصيتها، وشهود نعمة الله عليها، فإنها مهما كانت في شيء مع الله لا تكون في شيء آخر، هذا باب معروف وعلم محقق، وأما ذكرهما في هذا الموطن، وهو موطن التوبة والإقبال على الله تعالى ما كان عليه من المعاصي، فذلك جفاء مع الله وعدم حياء.

فإن الأئمة قالوا في التوبة: أن تنسى ذنبك، فإنك في التوبة في حال صفاء مع الله، وذكر الذنب في حال الصفا جفاء، وكان سبب هذا القول من هذا الإمام قول واحد لشخص قد سأله عن التوبة، فقال له: ألا تنسى ذنبك، مثلما قال صاحب هذه الوصية، فيما بلغ لهذا الإمام قال: لا، بل التوبة أن تنسى ذنبك.

وأما قوله: بالاعتراف بما هو عليه من التقصير، فهذا قول بعضهم ممن لا حقيقة عنده، فإن الأئمة قالوا في هذا القول للسائل: إن هذا الشيخ أمرك بالمجوسية المحضة، هلا أمرك بالأعمال على شهود مجريها [وممضيها؟] (١) ***كما هو الأمر في نفسه، فإنه إن كشف لك على قول هذا الشيخ الأمر بالتقصير، فقد كشف لك الأمر على ما ليس عليه، ولُبس عليك، كما لبسَّت أنت على نفسك أولاً في ذلك، فإن كشف لك على قول الأئمة، ورأيت الحق حقًا وكنت صاحب علم.***

(١) في (ب): ومنشؤها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما نهيه ألا تلتفت إلى ما يعرض لك عن يمين الطريق وشماله، فهو حسن من وجه، وليس بحسن من وجه، فإنه لا يلزم الملتفت عن يمينه وشماله أن يكون ماشيًا على ما يلتفت إليه، بل يكون مستقيم المشي مع وجود هنا الالتفات، بل يفوته علم كثير إذا لم يلتفت، فإنه إذا لم يلتفت لم يعلم ما يحذر منه، فإن أراد بالالتفات هذا المشي على ما التفت إليه من يمين وشمال فهو حسن، فإن النبي ﷺ «خط خطًا مستقيمًا، وخط على جنبات الخط خطوطًا هكذا، ثم تلى قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ ووضع أصبعه على الخط المستقيم ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وأشار إلى الخطوط التي عن جنباته فتفرق بكم، يعني الطريق عن سبيله، ووضع أصبعه على الطريق المستقيم ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١] المشي في هذه السبل»[1].

فانظر ما أحسن قوله: «ولا تتبعوا» وما قال: ولا تلتفتوا، بل يجب الالتفات لتعرف قدر طريق النجاة؛ لأنه من لم يعرف حقيقة أمر يحذر منه، فهو يلتفت ولا يتبع، وما أراد إلا عين الشرع الذي جاء به، فإن الله تعالى أمرنا بالإيمان به والمشي عليه، وأمرنا بالإيمان بغيره من السُبل، وما أمرنا بالمشي عليها، وليست السبل سوى الشرائع المتقدمة، فكيف لا نلتفت إلى ما أمرنا بالإيمان به، ولا يلزم الاتباع لكل ما آمنت به، بل نحن واقفون مع قوله تعالى في كتابه، أو على لسان رسوله، فما أمرنا بالمشي فيه مشينا، وبالتأخير عنه تأخرنا، وما أبان

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن مسعود t رقم (٢٩٣٨) كتاب: التفسير وقال: صحيح الإسناد، وابن حبان في صحيحه رقم (٧) (١/١٨١) باب الاعتصام بالسنة وما يتعلق بها نقلا وأمرًا وزجرًا، ذكر ما يجب على المرء من ترك تتبع السبل دون لزوم الطريق الذي هو الصراط المستقيم، والنسائي في سننه بنحوه رقم (١١١٧٤) سورة الأنعام قوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾، والإمام أحمد في مسنده رقم (٤١٤٢) (١/٤٣٥)، وابن ماجة في سننه رقم (١١) (١/٦) باب: اتباع سنة رسول الله ﷺ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لنا ما خالف طريقهم المستقيم الخاص المعلوم شرع سيدنا محمد ﷺ؛ إلا لنعلمه ولا نعلمه؛ إلا بالنظر إليه لا بالمشي فيه.

وأما قولي لك: [يفوتك إن لم تلتفت علم كثير] لأنك إذا لم تلتفت لم تعلم ما أنت عليه في طريقك، مما يختص بالشرع المحمدي مما لم يختص به، وكان شرعًا لمن قبله، وقرره سيدنا محمد ﷺ فنقول عند ذلك أنك وارث سيدنا محمد ﷺ مطلقًا وليس كذلك فإنه ما يرث سيدنا محمد ﷺ إلا رجلان، الواحد منهما يرثه فيما يختص به مما لم يكن شرعًا لمن قبله، والرجل الثاني من يرثه في الجمعية لذلك كله من حيث ما هو جامع، لا من حيث التفصيل، فإذا ورثه السالك على طريقه في شرع قرره، قد كان شرعًا لمن قبله، فإن لم يلتفت لم يعلم لأي نبي كان، ولا يكون هذا الوارث وارثًا، إلا لذلك النبي الذي كان هذا شرعه، فيكون مثلاً عيسويًا، أو موسويًا، أو خليليًا، وهو يقول إنه محمدي، فيغلط في ذلك، نعم، وهذا يكون من جملة السُبل والشرائع الحكمية، التي لم يأت بها الرسل وابتدعها الحكماء في الفترات لمصالح العباد، وقد قرر الشرع المنزل من الله تعالى أمرها فقال: ﴿رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، فقد يكون هذا وارثًا لذلك الحكيم من شرع سيدنا محمد ﷺ فيفرق بين الشرائع الإلهية والشرائع الفكرية، ولا يختلط عليه الأمر، فيختلط عليه النسب، فلا يعرف نسبه فيكون متلُوفًا، فلو كان صاحب هذه الوصية صاحب إشراف على المقامات، والمراتب والمنازل، ما جرت وصيته على هذا، فهو رجل يتكلم مع نفسه في شهوده، لا من جهة ما هو الأمر عليه، وما كل سامع يكون على مزاجه وحاله، فإن الناس يتفاضلون في ذلك كما تفاضلت الرسل، فجعل الله لكل رسول شِرعة ومنهاجًا، فما اتحدت الشرائع، كذلك السامعون ما اتحدوا، ألا ترى كيف يرد الحديث الواحد عن رسول الله ﷺ ويختلف السامعون في تأويله، فيفهم منه الواحد ما لا يفهم منه الآخر، وهذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سامع، وهذا سامع، كما يتفق أيضًا أن السامعان فيه إذا كان فهمهما واحد يكون مزاجهما متقاربان، ولولا ذلك ما اختلفت الأئمة في الشرع الواحد، فأين مذهب الشافعي من مذهب الحنفي، فيما اختلفا والشارع واحد، ولابد أن يكون الشارع لو عرضت تلك المسألة المعينة، التي اختلف فيها أبوحنيفة والشافعي بقول أحد الإمامين، أو بأمر ثالث خارج عنهما، فإن الواحد لا يحكم بالشيء ونقيضه بنفسه في العين الواحد، وإن قرر حكم كل واحد منه، فهو لا يحكم إلا بأمر واحد خاصة فافهم ذلك.

فإذا اختلط الأمر على السالكين الذين لا يلتفتون عن يمين الطريق وشماله، يقول كل واحد منهم أنه محمدي، وليس كذلك، لأنه ما ورث من سيدنا محمد ما اختص به، وإنما ورث منه ما شُورك فيه واقتدى فيه بغيره، مثل قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهو ما قرره في شرعه من شرع غيره عملاً، والكل يلزم الإيمان به، سواء نسخ العمل به أو لم ينسخ، فلا يفرق في الوراثة من هذا حاله بين شخص وشخص، ويلتبس الأمر، فإذا انكشف الغطاء، ورأى نوره ممتزجًا للاشتراك، ونور المختص خالصًا من الامتزاج، يعلم عند ذلك من أين أتى عليه، فيسعى يوم القيامة في نور ممتزج، وهو كان يظنه نورًا خالصًا، فبدا له من الله ما لم يكن يحتسب، وما كان هذا إلا من عدم التفاته، فلو التفت [رأى] (١) الرقائق عنده من اليمين والشمال، إلى ما يناسبهما من الطريق المستقيم، فيعرف السالك ما وقع فيه الاشتراك، ويرى في طريقه ما لا رقيقة بينه وبين ما على يمينه وشماله، فيعلم أنه يمشي في طريق اختصاص، فينظر ما وقع فيه الاشتراك، من أي منبع من هذه السبل امتدت تلك الرقيقة؟ فيشاهد

(١) في (ب): لرأى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأصل، فيسمى له، أو يرزق العلم فيراه إن كان نبيًا أو رسولاً أو حكيمًا، فيقول: إني ورثت فلانًا الرسول، أو النبي، أو الحكيم، من طريق سيدنا محمد في عمل كذا وكذا، ويعلم ما اختص به سيدنا محمد دون ما شُورك فيه، ولهذا جاء: «العلماء ورثة الأنبياء»[1]، وما قال ورثة نبي واحد، فإن نبينا عليه الصلاة والسلام جامع لشرائع كانت قبله، ويختص بشرع خاص له، فورثته من العلماء ورثة الأنبياء، فينبغي أن ينسب الوارث في المشترك إلى صاحب تلك الشريعة، وإن كان محمديًا حتى لا يخلط.

وأقل ما في المسألة أنه وإن كان تابعًا سيدنا محمد من وجه، وهو وجه آخر وهو تعليمه إياه، فإنه عنه أخذه فقد ساواه من وجه آخر، وهو كونه اقتدى بالأول، كما اقتدى به رسول الله وهذا شرف له كما يساويه فيما تعبده به فيما شارك فيه، كالصلاة والصيام والحج، وما خاطبنا بالعمل به مما هو عامل به، ونفارقه فيما اختص به u دوننا، مثل نكاح الهبة وغيره، فقد ساويناه في أمر آخر، وله فضيلة التعليم علينا، وإنا ما استفدنا ذلك إلا منه، وهذا حكم آخر، فكما تعين علينا العلم بما يخصه مما لا نشاركه فيه لئلا نقع في محظور، كذلك تعين علينا أن نعرف من نرثه من الأنبياء في شرع سيدنا محمد ، لئلا نقع في جهل، والوقوع في الجهل أشد من الوقوع في المحظور، فإن الوقوع في المحظور دون الوقوع في الجهل وإن كان الجهل من

---

(١) رواه الترمذي في سننه عن أبي الدرداء t رقم (٢٦٨٢) في العلم باب: ما جاء في الحث على طلب العلم، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/١) باب: في فضل العلم ومجالستهم رواه البزار ورجاله موثقون، وابن حبان في صحيحه رقم (٨٨) (٢٨٩/١) ذكر وصف العلماء الذين لهم الفضل، وأبو داود في سننه رقم (٣٦٤١) كتاب: العلم باب: الحث على طلب العلم، وابن ماجة في سننه رقم (٢٢٣) (٨١/١) كتاب: باب: فضل العلماء والحث على العلم، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (١٦٩٦) (٢٦٢/٢) فصل في فضل العلم وشرف مقداره، والمنذري في الترغيب والترهيب رقم (١٠٦) كتاب: العلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحظور، فإن الله تعالى أمرنا أن نطلب العلم بالنظر والسؤال فيما لا نعلم مَن يعلم.

وأما قوله: (فكن ذاكرًا في كل موطن لما وصيتك به) فهذا لا يصح، فإن الموطن حاكم بلا شك على كل من حصل فيه، يقول النبي ﷺ في موطن: «سحقًا سحقًا»[١] وفي موطن آخر: يشفع ويتراضى ربه في أمته[٢].

وأما قوله: (حتى تصغر عندك نفسك) فما أدري مع من يتكلم في ذلك من أهل الطريق؟ إن كان مع المريد الثابت فلا يصح، فإن توبته وإنابته تصغر نفسه عنده بلا شك، وهذا شهود التائبين، وإن كان يخاطب من أهل الله من هو أعلى من المريد، فعلمه منعه من أن تكبر نفسه عنده، وإن كبرت عند العارف فليس ذلك الكبر بمذموم، وإنما هو بمشاهدة حقيقة كونها على صورة منشيها، فالكبرياء بالله لا لها، فإن صغرت في هذه الحالة عنده أو صغرها بنظره عند نفسها، فقد صغر

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد t رقم (٦٢١٢) كتاب: الرقاق باب: في الحوض ورقم (٦٦٤٣) كتاب: الفتن، ومسلم في صحيحه عن أبي هريرة t (٢٤٩) كتاب: الطهارة باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء ورقم (٢٢٩٠) عن سهل بن سعد t ، وابن ماجة في سننه عن أبي هريرة t رقم (٤٣٠٦) كتاب: الزهد باب: ذكر الحوض، والإمام أحمد في مسنده رقم (٧٩٨٠) (٣٠٠/٢)، والطبراني في معجمه الكبير عن أم سلمة رضي الله عنها رقم (٩٧٧) (٤١٣/٢٣).

(٢) يشير إلى قول النبي ﷺ المروي عن عن عبد الله بن عمرو بن العاص t أن النبي ﷺ أصحهما قول الله U في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقال عيسى u ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى فقال الله U: يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل ﷺ فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» رواه مسلم في صحيحه رقم (٢٠٢) كتاب: الإيمان باب: باب في قول النبي ﷺ أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعًا، والطبراني في معجمه الأوسط رقم (٨٨٩٤) (٣٦٧/٨)والبخاري في صحيحه عن أنس بن مالك t رقم (٧٠٧٢) كتاب: التوحيد، باب قول الله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله، والحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما رقم (٢٢٠) (١٣٥/١)، والنسائي في السنن الكبرى رقم (١١١٦٠) (٦٣٠/٦)،.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحق وألقاها في بحر الجهل بنفسها، وأخرجها عن معرفتها بها، ومن خرج عن معرفة نفسه، فقد خرج عن معرفة ربه، فالعلماء تشهد نفوسهم ذات كبرياء وعظمة، والمريد يشهدها صاغرة ذليلة، فإن صغرت عند العالم كان نقصًا في حقه ولم يكن عالمًا، وعاد ذلك الصغر على ربه، فأساء الأدب، فاستوجب الطرد.

وإن كبرت عند المريد نفسه فليس بمريد، بل هو من العوام، وكلام هذا الرجل إنما هو مع من يطلب طريق الله، أقلهم المسمى مريدًا خاصة، فبكل وجه أمره بما يصغر عنده نفسه حشو كلام في حق المريد، وجهل منه في حق العارف، أوغفلة لشغله بحاله، لأنه ذكر لي t أنه ما قيد شيئًا من هذه الوصية باختيار منه، ولا روية، بل وجد في نفسه ما ذكره وقيده على حد ما وجده، وكانت له مادة في ذلك الوقت من صاحبه (علي الكردي) الذي كان يعتقد فيه، فمنه كانت تسري المادة إليه في كل ما يجد في نفسه، سواء كان ذلك عالى الشأن، أو منحطًا، ولهذا لما فاوضته فيما خرج عنه لم نجد عنده علم ما يقتضيه ما نطق به، فسألني في شرح ما قيده في هذا الوارد، فأجبته إلى ذلك.

واعلم أن كلامنا أبدًا [فيما] (١) ***نتكلم به ابتداءً وجوابًا عن سؤال، إنما نتكلم على ما يقتضيه المقام والحال فأوفيه حقه، ولا أتعرض للناطق به الذي خرج عنه، فإنه لا يثبت الإنسان على حالة واحدة، فقد يرتقي عن ذلك وقد ينزل عنه في الزمان الآخر، فكلام المصنف إنما يكون على الأحوال لا على الرجال، ولهذا هم بُراء من الغيبة، فمن فهم ما قلناه وعلم مقصدنا لم يفرح لحمد، ولا يحزن لذم، إذا لم يتعرض إليه في شيء من ذلك، وهذا أعرف بنفسه، ولاسيما إن كان من أهل***

(١) في (ب): في كل ما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البصائر، فلا يقول مثل هذا إذا سمع كلامي فيما جاء به من دني الحال، إن كان هذا الشخص قد جهلني وجهل مقامي، فإني ما تعرضت إليه في شيء من ذلك، ولينظر المنصف في الحال وكلامنا عليه، [فيجدني أعطيته حقه] (١) ***كما أعطى الحق خلقه، وبه تعالى اقتديت، حيث بينت لك [مقصودي]*** (٢)***، فإن الله تعالى يقول: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، أي بين للسامعين أنه أعطى كل شيء خلقه، كذلك فعلت لما أعطيت كل حال ومقام حقه، بينت أني أعطيت كل ذي حق حقه، والله الموفق، والهادي للصواب.***

وأما قول هذا الرجل: (أن تكون في هذه الأحوال التي ذكرها ملازمًا للذكر) فإن أهل الطريق أجمعوا على أن ذكر الله U في ذلك، أنه قرع باب المنح الإلهية في المعرفة بالله، [ومنعوا](٣) ***من الفكر في ذلك، وبهذا زادت الصوفية وانفردت في العقائد في الله على أصحاب النظر، فإن النظر الفكري ما يعطي من المعرفة بالله إلا وجوه المستند إليه خاصة، ومن النسب المعبر عنها بالصفات، كما تعطيه الآثار في الأكوان، غير ذلك لا يكون، والذكر يعطي معرفة الأمر على ما هو عليه في نفسه، ولا ينقال أصلاً إلا بمثال، وهو أعلى من المثال، وقد نُهينا أن نضرب الأمثال لله، وقد ضرب هو المثل لنفسه، فيفتح لصاحب الذكر في ذلك المثل الإلهي ما يتكلم به، فيتخيل الأجنبي فيه أنه قد ضرب المثل لله، وهو ما فعل؛ وإنما ذكر ما فتح الله به عليه في المثل الذي ضربه الحق لنفسه، فأهل الله مجهولون عند الخلق، كما هو مَن هم أهل له مجهول عندهم، فلا تُدْرَك مرتبة أهل الله في الدنيا أبدًا؛ لأن الله تعالى***

---

(١) في (أ): فيجد ما أعطيته حقه.

(٢) في (ب): مقصدي.

(٣) في (أ): وصفوا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما ظهر ولا تجلى لأهل الدنيا، وكما أن رؤيته في الآخرة محققة، فهناك يظهر أهل الله، فيتحقق قدرهم ومنزلتهم في العلم بالله.

وأما قوله: بعد قوله ملازمًا للذكر (أن تكون متحققًا بـه) فيريد بالتحقيق أن يكون الحق لسانه في ذلك الذكر لا هو، بخلاف التخلق بالذكر، فإن التخلق بالذكر أو باسم ما من الأسماء، هو أن تقوم فيه بنفسك قيام الحق فيه بنفسه، والتحقق أن يقوم الحق فيك في ذلك لا أنت، فإنه سمعك، وبصرك، ولسانك، ويدك، ورجلك في حال بطشها وسعيها لا غيره، فلذلك قال: (أن تكون متحققًا به) فتكون على بصيرة فيمن هو الذاكر بلسانك، ولا تكون آلة الصانع أعلم بصانعها منك، فإن الحق قد جعل لسانك وقواك وأعضاءك آلات له، يفعل ما يظهر عنها من التصرف، ولهذا أضافها إليك فقال: سمعك وبصرك ولسانك، ما قال: سمعي ولا بصري ولا لساني، وجعل هويته عين ما ذكره، فافهم إن كنت منور الذات، واعرف أنت واعرف هو، تكن منصفًا فإنه تعالى ما زال عنك بالكلية، ولا أثبتك بالكلية، بل أعطاك ما أنت، وأخذ منك ما هو هو، فكذلك فلتكن أنت حتى تكن متحققًا بالأمر على ما هو عليه.

ولهذا نطق هذا الشيخ بعد قوله متحققًا به: (أن يكون ملتجئًا إلى الله تعالى) فأثبتك على قدرك لئلا تزهو في التحقيق، فتقول أنا هو، وأنا ما يكون هو أبدًا، ولا أنت، ولا يكون أنا أبدًا، فأثبتك بالالتجاء، كما قال الحق في نصف الفاتحة الثاني لما قسم الصلاة بينه وبين عبده نصفين، فنصفها له ونصفها لعبده، وهذا عين ما ذكرناه، فمنها ما انفرد الحق به، ومنها ما انفرد العبد به، ومنها ما وقع به الاشتراك، فتعلم ما لله من هذا الاشتراك فتُخلص له، وما للعبد في هذا الاشتراك فتخلص له، فتتميز الحقائق وتتبين الأعيان ومثل هذا لا يُهمل، فإنه ما أهمله إلا عن وَجْلّ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال: (قاصدًا وجهه الكريم) إذ لا يُقصد إلا الكريم، فإنه لا يُقصد إلا ليسأل منه ما هو السائل مفتقر إليه، فجاء بالاسم الكريم؛ لأن الكريم هو الذي يعطي عند السؤال، والجواد يعطي قبل السؤال، ولهذا كان وجود العالم من حضرة الجود؛ لأن السؤال من المعدوم لا يكون، والسخي المعطي قدر الحاجة من غير زيادة، والمؤثر المعطي ما هو محتاج إليه في الوقت، أو يوهم الحاجة إلى ما أعطى، والواهب المعطي لينعم، والمجازي المعطي ليشكر، فلما كان الشخص طالبًا أمره طلب أن يقصد من الحق وجهه الكريم لا غيره، على حسب ما أعطاه حاله في الوقت.

ثم أمرك أن تترجى منه ما يكون لك به التشريف على أبناء جنسك، لتتميز عن مثلك بما [تشرفت] (١) ***به عليه، وهنا أمر ينبغي أن ننبه عليه، وذلك أن الإيمان يعطي أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك***(٢)***، فإذا سألت ما تشرف به على أخيك فقد أردت لنفسك ما لم ترده لأخيك، فمثل ذلك طعن في إيمانك أم لا؟.***

فاعلم أن الإنسان لا يخلوا إما أن يسأل عن غفلة مثل هذا، أو عن حضور، فإن كان عن غفلة فما هو طعن في إيمانه، فإنه يقول كما يقول: اغفر لي وللمسلمين فتعم، وكذلك يطلب أن يشرفه الحق بما شرف به عباده الصالحين، فكما طلب أن يشرف على غيره طلب أن يشرف عليه غيره، وإن كان عن حضور فرأس المؤمنين وهو سيدنا محمد ﷺ قد طلب منا أن نسأل الله U في حقه أن يعطيه الوسيلة،

---

(١) في (ب): تشرف.

(٢) يشير إلى قول النبي ﷺ المروي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» رواه البخاري في صحيحه رقم (١٣) كتاب: الإيمان باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومسلم في صحيحه رقم (٤٥) كتاب: الإيمان باب: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، والترمذي في سننه رقم (٢٥١٥) (٦٦٧/٤) وقال حديث صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهي منزلة في الجنة ولا ينالها إلا شخص واحد، قال عليه الصلاة والسلام: «وأرجو أن أكون أنا»[(١)]، فقد سأل ما يشرف به على جميع الخلق، إذ قد علم أن تلك المنزلة لا ينالها إلا واحد، فإن حضر في مثل هذا، فقد سأل ما يشرف به على غيره، فإن الله تعالى قال لنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فهذا [مما تبعته] [(٢)] فيه هذا حضور أول.

والحضور الثاني: إذا كان في سؤالك مثل هذا أن الحق تعالى لسانك الذي تسأل به، فهو السائل بلسانك لا أنت، وهو في أسمائه على مراتب متماثلة ومتقاربة، ومتقابلة ومختلفة، فإذا كانت هذه الأحكام قد ظهرت بها الهوية الإلهية، فإن الإنسان أولى بذلك، أعني: لهذه المفاضلات، فأين الغفور من الغفار، من المنتقم من الخلاق، من العفو من الغفار، فالغفور والغفار مثلان، وهما مع الغافر والعفو متقاربان، وهما مع المنتقم على التقابل، وهما مع الخلاق على الخلاف، وإذا كان الأمر على ما ذكرناه، فللإنسان أن يسأل فيما يختص، وفيما يَعُم، والأحوال تقتضي، فإن السائل يحب حكم الحال، والحال يحب حكم الاسم الإلهي، والاسم الإلهي بعينه القابل، والقبول يعطيه الاستعداد، والاستعداد يطلب بذاته، والمستعد يطلب به، أعني: بالاستعداد، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان الدور، ولو كان الدور لوقع التوقف، فلا يظهر الكون، وقد ظهر [ثم] [(٣)] ثم دور، وثم دور من وجه آخر لا يحتاج إليه،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما رقم (٣٨٤) كتاب: الصلاة باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة، والبيهقي في السنن الكبرى رقم (١٧٨٩) كتاب: الحيض باب: ما يقول إذا فرغ من ذلك، وابن حبان في صحيحه رقم (١٦٩٠) (٥٨٨/٤).

(٢) في (أ): ما اتبعته.

(٣) في (ب): فما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالعطاء الإلهي لا منع فيه؛ لأنه فيض ذاتي، فلا تلم إلا نفسك، ولا تحمد إلا الله، فإن المنع منك، والعطاء منه.

فلهذا أمرتك بذم نفسك وبحمد الله، فتفطن لهذه الدقيقة، فإن كثيرًا من المنتمين إلى الله U لا يفرقون بين الحمد والذم، ويجعلهما سواء بالنظر إلى الأصل، كإبراهيم بن أدهم - رحمة الله تعالى عليه - وغيره، والأمر ليس كذلك في نفسه، فإن عطاء الحق لا منع فيه، فالنعمة منه، والمنع من القابل، فإنه ما هو علي استعداد ليقبل أمرًا ما معينًا، هو محبوب له ومطلوب، فيقول الحق: لم يعطني ما سألت، وهو يكذب، وإنما الصحيح لو أنصف أن يقول: لم أكن على استعداد يقتضي في قبول ما سألته فيه، فلهذا يلوم نفسه ويحمد الله، ولا يجعل هذين الأمرين راجعان إلى غير واحدة، فيحرم الصواب.

ثم قال: (واعلم أن المشايخ إذا عبروا من عالم الدنيا لم يغيبوا عن علمائهم وأصحابهم، بل نظرهم باق بحاله، إذا قصده المريد وجده عاجلاً سريعًا) يقول رحمه الله: إن المشايخ إذا ماتوا تركوا همتهم متعلقة بقلوب من [أسند] (١) إليهم، كما أنهم يتركون بزواياهم التي كانوا يعمرونها، أرواحًا من أذكارهم وعباداتهم يعمرون ذلك الموضع، ولهذا يجد كل من يدخل مكان رجل كبير في الدين قد مات، يجد هذا الداخل في منزله خشوعًا ورقة، وإنابة إلى الله تعالى لا يجدها في غير ذلك المكان، ولقد كانت زاوية أبي يزيد - رحمه الله تعالى - بعد موته إذا دخلها أحد، وعمل فيها ما لا يقتضيه حال أبي يزيد من المخالفة، احترق ثوبه من غير نار تكون في الموضع، وصار هذا مجربًا عندهم بـ (بسطام) وقد عاينا مثل هذا في أماكن الصالحين، فإنهم ما ماتوا وما دُرجوا؛ إلا وهمتهم متعلقة بمصالح الخلق، وخصوصًا بتلامذتهم

(١) في (ب): استند.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأصحابهم، وقد تقدم ذلك أن للمريد في قلبه مثالاً من شيخه، يسمى الشيخ المتوهم، وهو الذى يلازمه ويبقى له دائمًا، انتقل الشيخ إلى الآخرة أو لم ينتقل ذلك الشيخ القائم فى خياله لا يزول ولا يموت، فلهذا قال نظرهم باق.

وأما قوله: (إذا قصده المريد جاءه عاجلاً سريعًا) وكيف لا يكون ذلك وهو أقرب إليه منه، وهو عين ذلك المثال، فإن ذلك المثال لابد منه، وهو مثل قوله □ في حق الحق: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»[١]، فأدخله فى حضرة الخيال بقوله: «كأنك تراه» فجاء بكاف التشبيه، أي: تخيل وقوفك بين يديه فى عبادتك إياه، وكأنك ناظر إليه، أي: مَثِّلْهُ نصب عينيك، فإن عين تمثيلك إياه عينه، فقد جاء بالقصد عاجلاً سريعًا، فان الله تعالى يقول فى ذلك: «مَن تقرب منى شبرًا تقربت منه ذراعًا» أي: قربي إليه أسرع بالتضاعف من قربه، حتى قال: «وإن أتاني يسعى أتيته هرولة» [٢]، هذا حظ السعى، فكيف من يسارع إلى الخيرات؟ يكون الحق أشد إسراعًا بما يطلبونه منه فيهم، والمشايخ نواب الله وخلفاؤه، ولابد أن يظهروا فى الخلق بما هو الحق عليه من النسب المنسوبة إليه، والصفات والأسماء، قل: أي ذلك شئت والأسماء أولى من غيرها من الألقاب، فإن الله تعالى ما عين لنا إلا الأسماء، ما تعرض للفظ الصفات ولا النسب، وإنما ذلك أمر أحدثه العلماء، ولا ينبغي أن يُطلق على الحق في الأدب؛ إلا ما أطلقه على نفسه، هذا هو الحق، وإن كنا نعلم أنه عين كل شيء، كما نعلم أنه بحكم كل شيء كما قد تقدم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال: (فإذا وفقك الله وصبرت على ما هالك في الطريق، رُفعت عن هذا العالم، وصيرت إلى العالم الأخرى) هذا الذي ذكره هذا الرجل ما هو على ظاهره، وإن كان قال ذلك عن دراية وحقيقة، وإن كان نطق به ولا يعرف معناه، فهو أعرف بنفسه.

قلنا: أن نبين صورة الحق في ذلك، وذلك أن الإنسان السالك ما يصبر على ما يناله من الأمور الشاقة في سلوكه؛ إلا وهو في حجاب بشري، فلا يكلمه الله إلا من وراء حجاب البشرية، كما قال تعالى، فإن الله في نفس الأمر جميع قواه وأعضائه، فإذا صبر من اسمه تعالى الصبور، حينئذٍ يكون متحققًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وليس الصبر إلا حبس النفس على الحال الذي ابتلاه الله به، فمعنى قوله: (رفعت عن هذا العالم) أي: كشف الله لك عنك أنك ما أنت أنت، فإنك تقول في حال صبرك: أنا أنا، والحق من وراء هذا الحجاب يقول: لا بل أنا أنا، وأنت لا تسمع، فإذا لم تبرح من موطنك، رفع الله عنك حجاب أنانيتك بأنانيته، فشهدت ما لم تكن تشهد، فتخيلت أنك انتقلت إلى عالم آخر وما انتقلت، وإنما كشف لك عنك، فرأيت ما لم تكن تراه قبل ذلك، وإنما عبر عنه هذا الشيخ بعالم آخر؛ لأن الحق أخذ العالم محلاً له، وقد تنوع التجلي في حق هذا العبد، ورأى صورة لم يكن يراها قبل ذلك، فعبر عن ذلك بتحول في الصورة الأخرى بعالم الأخرى، مع كونه في موطن الدنيا، والحكم في الحق للصور التي يتجلى فيها، ويستلزم من النعوت والأسماء ما يلزمها، فإن قلت: بانتقالك صدقت من حيث أن هذه الصفة ما هي تلك الصورة، مثل اختلاف الأحوال على الشخص الواحد، فالقائم ما هو القاعد، فإن القيام ما هو القعود، وزيد القائم ما هو زيد القاعد، فالعين واحدة من وجه، ما هي واحدة من وجه، والحق وإن كان هو المتجلي في الصورة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأولى، فهو عينه في الصورة الأخرى، لكن الصورة ما هي هذه الصورة.

وقد أمرك هذا الشيخ في وصيته بالصبر، وهو حبس النفس على ما نالت حتى ترى ما يفتح لك فيه، فإن لم تصبر حرمت فائدة العلم بما ذكرناه، ووقعت في الجهل الذي لا خروج منه.

ثم أوصاك: (ألا يغيب عن خاطرك شيخك) يريد لا تغفل عن الرقيقة التي بين مثال الشيخ الذي عندك، وبين الشيخ حيًا كان أو ميتًا ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، لأنه من نسي الله فقد نسي نفسه، إذ قد أخبر الله أنه قوى العبد وأعضاؤه، فمن نسى الله فقد نسى نفسه، أي: أن الله تعالى قد أنساهم أنفسهم في نسيانهم الله تعالى، فما أعجب قول الله لمن دبره وفصله تفصيلاً.

وأما قوله: (فإنك من إيجاده إلى هذا العالم) يقول أنه منشؤك في هذه الصورة التي أنت عليها، أو كان هو المبين لك من أنت، فأوقفك منك عليك، وقد كنت غافلاً عنك، فلهذا نسب الإيجاد إلى الشيخ لتشكره على ذلك، فيزيدك الله من جهته خيرًا، فهذه أبوة الحال كما كانت في الوالد الطيني أبو الصلب، وقد أمرك الله أن تشكر الله ولوالديك، وما عين والد الدين من والد الطين، فاشكر والديك، فهما اللّذان أوجداك، فوالد الطين أوجدك في عالم الدنيا، ووالد الدين أوقفك وأشهدك على وجود الحق فيك، فكأنه أوجدك حقًا، وقد كنت عند نفسك خلقًا، فانظر في هذه الولاية الشيخية ما أكملها، وما [أهمها] (١) وما أحسنها، فليكن شكرك لشيخك أتم من شكرك لوالدك العرفي، فإن والدك العرفي قد لا يقصد إيجادك، بل يأتي لقضاء شهوته، وتكون أنت بحكم التبعية، وولادة الشيخ في المريد مقصودة له ولابد، ما هي بحكم التبعية ولا

(١) في (ب): أتمها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاتفاق بحكم الشيخ، وحقه أعظم من حق الوالد، ولذلك كان حق رسول الله ﷺ أعظم من حق الوالدين، فأبوة الدين أعظم وأتم.

ثم قال في وصيته: (كن ذاكرًا لأحوالك منذ خلقت، ولما صدر منك، وانظر فيما أنعم الله به عليك، وعظم ذلك في قلبك تعظيمًا) يقول لك: يكون وارد وقتك ذكر ما مضى من أحوالك وتقلباتها، إذا علمت أنك تجبر بذلك الذكر ما انكسر فيما مضى من حالك، فتنظر فيما خلقت بالاعتبار، وتنظر فيما صدر منك بالإجبار، ومعنى بالاعتبار: أن تجوز بنظرك في ذلك إلى من هو حي بعلمه، وما هو إلا الحق لا غير، إذ لا غير.

وقوله: (منذ خُلقت) أي: منذ ظهرت إذ كنت أنت عين الصورة التي تجلى فيها، فتعلم ما أنت، وما حكمت به عليك لتعلم الأمر على ما عليه، فيزول عنك اللبس الذي على غيرك، فما صدر عنك؛ إلا ما هو لك، فلا تضف إلى الحق ما ليس له فتكون من الجاهلين، وهذا المدرك مدرك صعب يحتاج إلى أدب كبير، وصاحب الأدب فيه عزيز، فإنه مزلة الأقدام، ولهذا استدرك صاحب الوصية سواءً علم ذلك أو لم يعلمه، بقوله: (وانظر فيما أنعم الله عليك وعظمه تعظيمًا) فإن ذلك من شعائر الله وحرماته، فيشغلك بالنظر في نعم الله لئلا تعثر على حقيقة الأمر، فتترك الأدب بأن تنسب إلى الله ما هو لك فيما لا يرضى ولا يُحمد، فأعطاك هنا الدواء لأجل هذه العلة والمرض، فإنه مهلك وصاحبه صاحب زمانة، فإن كل طائفة ما عدا هذه الطائفة التي يثني عليها كلهم زَمْنَى، لا ينجح فيهم دواء، فلهذه الطائفة الصحة التي لا تقبل المرض من جهة، وتلك الزمانة التي في الباقين لا ينجع فيها دواء، ثم قال بعد تأكيده بألفاظ يحتاج الخوض فيها إلى طول.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(فالزم الباب بأدب ولا تخل بشيء من آداب الشرع أصلاً، فإن أخللت بشيء من الآداب أنت أو غيرك كانت العقوبة إليه سريعًا، فالزم حلقة الباب، وزن حركاتك بميزان الشرع) يقول لك في وصيته بلزوم الباب وحلقته، ما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهو من حلقة الباب، وذلك هو الإيمان، والباب الإسلام، وبالباب وحلقته تكون السعادة للعبد، وإنما قيد الإيمان بالله والكفر بالطاغوت فإنه يقول في حق قوم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، فسماهم مؤمنين كما قال: ﴿ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ فسماهم بالكافرين، كما سمى الكافر بالله كافرًا، فلما وقع الاشتراك في الاسم لذلك قيد بيان [لغاية] [1] الإطلاق.

واعلم أن الآداب جماع الخير، والشرع ما شرع الله، ففي الشرع جماع الخير، فإن الطريق إليه لا يُعرف؛ إلا منه، فإنه ليس لمخلوق أن يحكم فيما يقرب إلى الله؛ إلا روائح مكارم الأخلاق، فإن الصورة الإلهية تعطي ذلك، ولهذا يجني ثمرتها المؤمن صاحب الجنة، والمخلد في النار لابد من ذلك، ولما كان الأمر كما قلنا، لذلك أمرك بالآداب الشرعية لتكون بها في الدار المسمى جنة، وأما صورة الوزن بين الحكم المشروع وبين أفعال المكلفين، فالعلم بذلك موقوف على العلم بالشرع، والشرع على قسمين: شرع ثابت يناقده شرع ثابت، وهو ما وقع فيه الاختلاف بين المجتهدين، وشرع جامع، وهو ما أجمعوا عليه، فالإنسان الحازم يحتاط ولا يزال أبدًا يميل إلى ما وقع فيه الاجماع، كالقصر في الصلاة للمسافر، والفطر للمسافر في رمضان، ودخول مكة لمن لا هَدي له بعمرة دون الحج، وترك نكاح الربيبة التي ليست في الحجر، وترك شرب النبيذ، وأمثال ذلك، وهذا هو طريق العزائم، فأمرك ألا تجنح إلى

---

(١) في (ب): لغائلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تأويل مع قدرتك على مثل هذا، أي: لا تكون في عمل مشروع ينقده عليك شرع آخر، والشارع واحد، وأكثر من هذه النصيحة من هذا الرجل في مثل هذا الأمر لا يكون والله أعلم.

ثم قال: (لا تلتفت إلى صفاء باطنك مع الله تعالى إلى استرسال ظاهرك مع الناس فيما أُبيح لهم) لابد من ذلك أعني هذا التقييد، فإن هذا الشيخ ما قيده اتكالاً منه على عناية الله بمن هذه حالته في إصلاح ظاهره وباطنه، وغفل هذا الشيخ عن قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وغفل عن كون الحق مع الشخص على قدر ما هو الشخص عليه مع الله تعالى، أي: على قدر ما يكون علمه بالله، فإنه ما أعطى الله فإنه يعطي على قدر الله عنده، ولهذا خرج أبو بكر t عن كل ما يملكه، وما ترك لأهله؛ إلا الله ورسوله[(١)]، أي: السمع لرسوله فيما يأمره به، فلو رد عليه جميع ماله قبله مع كونه خرج عنه [لله] [(٢)]، فلهذا قرن الرسول مع الله فيما تركه لأهله، لأنه □ أعرف بالمصالح، وكذلك الوارث الذي هو الشيخ، فأي مريد خبأ عن الشيخ شيئًا من ماله نقصه من الشيخ على قدر ما خبأ من ذلك، لأنه اعتمد على ما خبأه واستند إليه فوكله الله إلى ذلك، وحرمه

---

(١) يشير إلى الحديث المروي عن زيد بن أسلم عن أبيه رضي الله عنهما قال سمعت عمر بن الخطاب t يقول ثم أمرنا رسول الله □ يومًا أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي فقال رسول الله □: ما أبقيت لأهلك؟ فقلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا، أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (١٥١٠) (١/٥٧٤) حديث صحيح على شرط مسلم، والترمذي في سننه رقم (٣٦٧٥) كتاب: المناقب عن رسول الله □ باب: في مناقب أبي بكر وعمر وقال حسن صحيح، وأبو داود في سننه رقم (١٦٧٨) كتاب: الزكاة باب: في الرخصة في ذلك، والبيهقي في السنن الكبرى رقم (٧٥٦٣) كتاب: الزكاة باب: ما يستدل به على أن قوله □ خير الصدقة ما كان عن ظهر غني.

(٢) في (ب): إلى الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خيرًا كثيرًا، ولهذا فضُل أبو بكر الصديق t على غيره من الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - وإن كانوا [الصادقين] (١).

ثم قال: (وكن ذاكرًا لله تعالى، ومثنيًا عليه، واطلب منه ما تثني به عليه، فإنه كريم، وتصلي على رسول الله) أما قوله: (وتطلب منه ما تثني به عليه) مع أن القرآن قد علمنا فيه ما نثني به عليه، فإنه حرضه على تعلق الهمة بالله تعالى، في أن يكشف له عن الحضرة التي منها أخذ الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ما جاءت به في حق الحق من الثناء عليه في الكتب والصحف، فيكون له الأمر ذوقا لا نقلاً، حتى يمتاز عن أبناء جنسه، ويتعين في أصحاب الوحي المنزل باتباع ما شرع له الرسول عليه الصلاة والسلام، لا بشرع جديد بزيادة حكم أو نسخ حكم، ولهذا قيد فقال: (بما يثني به عليه) ما قال بما تحكم به في نفسك وفيمن اتبعك، فإن ذلك لا يكون إذا كان وحي التشريع قد انقطع، فأراد أن تذوق مذاق الأنبياء فيما بقى لنا الذوق فيه، فمالنا لا نرفع الهمة في تحصيل ذلك من الله، والذي بقي من ذلك ما يرجع إليه من الأسماء التي يثني بها عليه، والإخبار بحوادث الأكوان وبما ثم، أو بما قرره من الأحكام على لسان الشرع، حتى تكون علي بصيرة من أمر في الدعاء إليه.

ولا ترو عن رجل غير معصوم من الوهم والخطأ والكذب، إذ في الرواية عن الرسل من ذلك كثير، ولهذا ورد الضعف في الحديث بأنواع ضروب الضعف ورد منه كثير، فإذا أخذته من المعدن الذي أخذته الرسل كنت على بصيرة، ولذلك قال الله تعالى لنبيه u أن يقول في هذا المقام ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، يقول: من اتبعني فيما شرعت كشف الله U له حتى يرى صدق

(١) في (ب): الصديقين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما جئت به كما رأيت، فيخبر عن عين اليقين، وقد ورد خبر صحته الكشف وإن كان غير ثابت من طريق النقل، وتُكُلِم فيه أن رسول الله ﷺ قال: «لولا تمريج في قلوبكم، وتزيد في حديثكم، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع»(١)، يشير إلى أن ندرك الأمور ذوقا كما أدركتها الرسل، الذين أمرنا بالإقتداء بهم ليكون الناس مع الحق ما كان لهم فيما يجوز لنا أن نكون فيه، مما أبقاه علينا من ذلك واستثناه لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، فهذا هو التمريج الذي ذكر وأمثاله، وأما التزيد في الحديث فهو: أن الإنسان مجبول على الإفشاء، ولذلك كان في الكشف دون الحيوان لما قام بهم من الخرس، وقام به من التمكن في التوصيل لما يراه وإذاعته، ولما عُرف منه أنه ينم ستر عنه ما أراد الحق ألا يظهره؛ إلا لأهل الكتمان من عباده، إما بالحال كالبهائم، ومن لا يعط آلة الإفصاح أوفى لمن تحقق بالأمانة، ولا شك أن من نقل أمرًا رآه أو سمعه؛ فإن نقله على المعنى، فقد يزيد فيه أو ينقص منه، فالنقص من الشيء زيادة في الخبر ما لم يكن فيه، وإن نقل عن لفظ سمعه بلغته سواء فهم معناه أو لم يفهم؛ فذلك هو المُبرأ من الزيادة في الحديث وهو قليل، وهذا القليل هو الذي يكشف له ما كشف للرسل فدعا إلى الله علي بصيرة؛ إلا أنه من أمانته لا يقول: أوحى إلّي، ولكن يقول: وقع في سري، أو رأيت في الواقعة، أو خاطبني الحق في قلبي بكذا وكذا، فما يشهد له أصول الشرع قبله.

وهؤلاء السادة يرون ما رأته الرسل، ويسمعون ما سمعت الرسل، ويكونون في ذلك مع الرسول u كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام فيما شرع له، وما تعبد به من شرع من كان قبله، فيكون قد

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده بنحوه بلفظة (تمريغ) عن أبي أمامة t رقم (٢٢٣٤٦) (٥/٢٦٦)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٣٢)، والطبري في صريح السنة رقم (٤٠) القول في الإيمان زيادته ونقصانه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورث الرسول في هذه الحقيقة، فمثل هذا يثني على الله بما يُعلمه الله من أسمائه، إذ لا يثني عليه تعالى إلا بأسمائه، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في إجماله فقال: «اللهم أسألك بأسمائك التي استأثرت بها في علم غيبك، أو علمتها أحدًا من خلقك»[(١)]، فنكر ولم يخص صنفًا بعينه، لعلمه عليه الصلاة والسلام بأن الله تعالى قد يختص من شاء من عباده باسم من أسمائه - جعلنا الله ممن أخذ أسماءه منه حالاً - فتكون صفته لا نقلاً، فلا يكون عنده منها؛ إلا ما هو على لسانه، والإنسان متى أثنى على الله بما أثنى به عليه من أسمائه فقد ذكره، والله تعالى يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فإن الله تعالى يذكره بتلك الأسماء عينها فيعود عليه ذلك الثناء فيسميه بما سمى به نفسه، وهو صادق فيما يذكر به عبده فلا يثني عليه بإعادة ذلك الثناء عليه، حتى يتحقق العبد من الله بتلك الأسماء في نفسه، فيكون عينها إذا كان مسمى بها، فيصدق الله في ذكره إياه بها، فإن قيل: نعم ذكر أنه يذكر من ذكره، فمَن قال أنه يذكره بما ذكره؟.

قلنا: الجواب من وجهين على هذا الوجه يسلم لنا، فإنه دعوى وهو أن تقول: كذا وجدنا الأمر في الكشف وسمعناه، والجواب الثاني: أن نقول ثبت قوله: «إنما هي أعمالكم ترد عليكم»[(٢)]، فرد علينا نفس

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (١٨٧٧) (٦٩٠/١) بنحوه عن عبد الله بن مسعود t قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب مسلمًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن أمتك، ناصيتي في يدك ماض في حكمك عدل في قضاءك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه، وأبدله مكان حزنه فرحًا، قالوا: يا رسول الله ألا نتعلم هذه الكلمات؟ قال: بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن» هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وابن حبان في صحيحه رقم (٩٧٢) ذكر الأمر لمن أصابه حزن أن يسأل الله ذهابه عنه وإبداله إياه فرحًا، وابن أبي شيبة في مسنده رقم (٢٩٣١٨) كتاب: الدعاء باب: ما قالوا في الرجل إذا أصابه هم أو حزن، والإمام أحمد في مسنده رقم (٣٧١٢) (٣٩١/١)، والطبراني في معجمه الكبير رقم (١٠٣٥٢) (١٦٩/١٠)، وأبو يعلى في مسنده رقم (٥٢٩٧) (١٩٩/٩).

(٢) سبق تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عملنا، وما كان عملنا إلا الثناء عليه بهذه الأسماء المعينة، فإذا ردها علينا هو عين ثنائه علينا بها.

وأما وصيته بالصلاة على نبيه ، فإنه ثبت أنه من صلى على رسول الله مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا [١]، فإنه أتى حسنة فله عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، بحسب المقام الذي منه صلى عليه، فمن دعا للنبي بأمر فإن الله تعالى يعطيه أضعاف ذلك الأمر.

فإن قلت: فيفضل بهذا على ما حصل للنبي من قِبله بالصلاة عليه؟.

قلنا: كذلك لا يلزم لولا أن المجال ما يقبل ما يكون من الحق؛ إلا على قدر استعدادها، ومعلوم أن استعداد الرسل أكمل [استعدادًا] [٢]؛ لأنهم قبلوا وحي التشريع وما قبلناه [وقبلوا ما قبلناه] [٣]، فعلمنا أن عندهم من الاستعداد ما ليس عندنا، فنوازن الأمر الواحد الذي يكون لهم ألفًا مما يكون لنا من ذلك فكيف عشرًا، فالجود الإلهي مطلق الإفاضة لا منع هناك، والقبول يزيد وينقص بعضه عن بعض، فإذا صليت على النبي وإن كان الله تعالى قد صلى عليك بما رحمك به لكن من مقامك، والآن إنما يصلي عليك من مقام الرسول الذي صليت

---

(١) يشير إلى الحيث المروي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا**» رواه مسلم في صحيحه رقم (٤٠٨) كتاب: الصلاة باب: الصلاة على النبي بعد التشهد، والترمذي في سننه رقم (٤٨٥) كتاب: أبوب الطهارة باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي وقال حديث حسن صحيح، وأبو داود في سننه رقم (١٥٠٥) (٨٨/٢) باب: ما يقول الرجل إذا سلم، والإمام أحمد في مسنده رقم (١٠٢٩٢) (٤٥٨/٢)، وابن حبان في صحيحه بنحوه عن أنس بن مالك رقم (٩٠٤) (١٨٥/٣)، والحاكم في المستدرك رقم (٢٠١٨) (٣٧٥/١) وقال صحيح الإسناد والبيهقي في السنن الكبرى رقم (١٢٢٠) (٣٨٥/١)، وأبو يعلى في مسنده رقم (٤٠٠٢) (٧٥/٧).

(٢) في (ب): من استعدادنا.

(٣) سقط في (أ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه، فتكون صلاته تعالى عليك، إذا كانت جزاءً عن صلاتك على الرسول ﷺ أتم من صلاته عليك إذا لم يكن جزاء، فلهذا أمرك بالصلاة على النبي ﷺ، وكذلك إن عممت في تلك الصلاة (آله وجميع النبيين، وعباد الله الصالحين) [أصابت كل عبد صالح لله][١]، كما قال ﷺ في التشهد: «أن العبد إذا قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض، فلا يبقى عبد صالح سمع سلامك؛ إلا رد عليك، فإن لم يسمع رد الحق عليك ذلك نيابة عنه»[٢]، حتى يود الإنسان أنه إذا شاهد ذلك أن لو ناب الحق عن الجميع لما يَرى من الخير، ولا يعرف قدر ذلك إلا أهل الذوق، ومن عناية الله بهذه الأمة أن تولى الله تعالى بنفسه صلاة الجزاء عليها.

ثم قال: (وأسألك الزيادة على ذلك) يقول: من العلم بالله، فإن الله تعالى ما أمر نبيه ﷺ من طلب الزيادة في شيء من الأشياء لا عملاً ولا غيره؛ إلا من العلم، فقال له: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]، فلو كان ثم رتبة فوق العلم لأمره بطلب الزيادة منها، ولم يقل: رب زدني عملاً، ولا حالاً، فإن العمل مشقة، ولا سيما أعمال الطبيعة، والحال أمر عارض فالعارض لا بقاء له، والعلم صفة إحاطية إلهية، فطلب الزيادة منها لشرفها.

واعلم أن طلب الزيادة من العلم، إنما هو إشارة إلى التعلق لا إلى العلم، فإن العلم إن كان صفة فهو واحد لا يقبل الزيادة، فلا تكون الزيادة إلا من المعلوم، ولا يكون المعلوم معلومًا؛ إلا بالتعلق، فثم

---

(١) زيادة في (أ).

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود t رقم (٧٩٧) كتاب: صفة الصلاة باب: التشهد في الآخرة، ومسلم في صحيحه رقم (٤٠٢) كتاب: الصلاة باب: التشهد في الصلاة، وأبو داود في سننه رقم (٩٦٨) كتاب: الصلاة باب: التشهد، والبيهقي في السنن الصغرى رقم (٤٠٦) كتاب: الصلاة باب: التشهد في الصلاة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأصل وهو العلم، إذ لا يكون علمًا؛ إلا بالتعلق، حتى لو فرضنا أنه لم يتعلق لا بنفسه ولا بمعلوم غيره لم يكن علمًا أصلاً [فما زال متعلقًا] (١)، فما زال علمًا، ولما كانت المعلومات تتفاضل وتشرف بعضها على بعض، وكان أعلى معلوم العلم بالله، جعلنا طلب الزيادة من العلم إنما ذلك من العلم بالله لا بغيره، إذ لا يعرف الأمور والمسماة عالمًا واعتبارًا إلا بالله، فإنا لا نعرف ما ثم حتى يتجلى الحق، وفي أي صورة أدركناها من العلم فحينئذ نعرف من العالم قدر ذلك، فنعرف نسبة الحق من تلك الصورة التي هي [مجلى له] (٢)، ولهذا ظهر بها، فيكون علمنا بالله غير علمنا بالعالم، فنزيد في كل تجلٍ علمًا بالله لم نكن نعرفه، وسواء كان ذلك في الأشكال المعتادة أو الغريبة لابد من الزيادة، وإذ هو الأمر كما قررناه، فتسأل الزيادة من حيث أن الله تعالى أمرنا بالزيادة، فنأتي واجبًا أوجبه علينا أمره، فيحصل لنا من الحق جزاء محبة الفرائض وقدرها عظيم.

وكذلك ينبغي لأهل الله أن يكونوا في الأوامر الإلهية لا يأخذونها؛ إلا على طريق الوجوب على ندب وإباحة، فإنهم إما أهل حضور، أو أهل استحضار، والأوامر على المشافهة لا تقوم مقام الأوامر بالواسطة، فإن الله تعالى ما أمرك حق رجح جانب الوقوع لما أمرك به، فلا أقل من الموافقة، فاعلم ذلك.

فإن قلت: يظهر الترجيح في أمر الندب، فكيف الترجيح في أمر الإباحة؟.

قلنا: إذا خيرك في المباح بين أن تفعل وألا تفعل، فلا تفعل، هو حالك في الوقت، لأنك غير فاعل، فترجح أن تفعل على ألا تفعل حتى

---

(١) زيادة في (ب).

(٢) في (ب): مجلاه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأمره أثر عليك، فتأتي من المباح ما هو فعل، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، فإذا قعدت في المسجد بعد صلاة الجمعة، فما زدت حالة ولا ظهر عليك أثر لم يكن، وإذا قمت من مجلس مصلاك إلى موضع آخر من المسجد أيضًا، فقد انتشرت في الأرض لأن المسجد من الأرض، وقد ظهر عنك فعل أخرجك عن موضع مصلاك، فإذا فعلت هذا بهذا القصد أجرت في المباح، الذي قالت الفقهاء: أنه لا أجر فيه ولا وزر، وكذلك في النواهي، أما المحرم فلا كلام فيه، وأما المكروه فما رجح النهي عنه؛ إلا وتركه خير للعبد، وأما نهي المباح المساوي لفعله فقد أريناك ترجيح الفعل في وصية معينة، فترجحه فيها وفي أمثالها، لأنه ما ورد في مثل ذلك إن شئت وإن شئت، فيرجح في مثل هذا الأمر على النهي، فإذا جاء في المباح إن شئت وإن شئت، فانظر إن كان قدَم الأمر على مشيئة النهي فاعمل بالأمر، وإن قدم النهي فاعمل بالنهي، فإن الله تعالى مدح الذين يسارعون في الخيرات فما قدمه حتى رجحه فسارع إلى ما قدم كما يسارع هو في التقديم، وإذا ورد مثل «اعمل ما شئت فقد غفرت لك»[1]، فكل ما عملت مما كان محجورًا عليك عمله، فلست مؤاخذًا به مما تكون فيه عاملاً، وينطلق عليك حقيقة اسم العامل، فإن

---

(١) طرف من الحديث المروي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ» رواه مسلم في صحيحه رقم (٢٧٥٨) كتاب: التوبة باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، والحاكم في المستدرك رقم (٧٦٠٨) كتاب: التوبة والإنابة وقال صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان في صحيحه رقم (٦٢٥) باب: التوبة ذكر تفضل الله جل وعلا على التائب المعاود لذنبه بمغفرة كلما تاب وعاد يغفر، والإمام أحمد في مسنده رقم (١٠٣٨٤) (٤٩٢/٢)، وأبو يعلى في مسنده رقم (٦٥٣٤) (٤٠٩/١١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تركت الصلاة بهذا الخبر كنت عاصيًا، فإنك ما عملت وأخذت بذلك إن شاء الله تعالى، والعمل الذي يكون عليه عوضًا من الصلاة مثلاً من مكروه أو غيره، فإن ذلك العمل مباح لك وأنت غير مؤاخذ به، فإن الله تعالى قد غفره لك، فإن ترك المأمور به ليس بعمل وهو ما قال لا أعمل ما شئت، وكل عمل مغفور لك وإن الله لا يأمر بالفحشاء، فلذلك أباحه لك، فانظر ما نبهك عليه تنتفع بذلك إن شاء الله تعالى.

ثم قال: (لا تنس يا مريد، شيخك [وإخوانك][1]، فإن شيخك رأسك، وإخوانك أجنحتك).

لما كان الأمر يعطي الترقي والعلو والرفعة، وجعل محل ذلك السموات، جعل الملائكة أولي أجنحة من أجل النزول لا الصعود، كما جعل الأجنحة للأجسام العنصرية في المسمى طيرًا للصعود لا للنزول، فهو ينزل طبعًا وإلى جهة خاصة قصدًا، فينتفع في ذلك القصد بالأجنحة التي [سبح][2] بها، التي هي كالأرجل لغير ذوات الجناح، فلذلك يترقى طبعًا ويحتاج في النزول إلى الأجنحة، وهذه الأجسام البشرية العنصرية، فيحتاج إلى أدوات الترقي إلى الأجنحة لتستعين بها، وقال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، فلذلك جعل الإخوان أجنحة يستعين بهم العبد على أفعال البر، وجعل الشيخ رأس الأمر، لأن الرأس إذا قطع بطلت حركة الجسد، وكذلك المرشد إذا لم يكن يقي المريد يخبط في عشواء مظلمة، فلابد من مطرق، وأولهم الرسل، ثم الورثة، ثم الورثة في الصنف الأدنى، ولما كان الرأس محل القوى كلها استحق اسم الرأس لرياسته على جميع الأعضاء، ولما كان يدبر هذا الجسم لهذه القوى التي يجمعها الرأس، وكان الشيخ هو الذي

---

(١) في (ب): وإخوتك.

(٢) في (ب): يسبح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يدبر المريد في جميع تصرفاته، لذلك جعله هذا الرجل بمنزلة الرأس والإخوان بمنزلة الأجنحة للتعاون.

وقوله: (لا تنس شيخك وإخوانك) يريد في مواقف الحق إذا أوقفه يذكر عند ذلك شيخه لربه وإخوانه بخير، فيعطيهم الله تعالى من الخير على قدر ما قصدوه، إن كان قصدهم أعلى من موقف هذا المريد، فإن كان موقف المريد أعلى من قصدهم أعطاهم الله تعالى على قدر موقف المريد، وإن قصر قصدهم عن ذلك، وذلك لكرم الله الشامل، فإن المريد في ميزان شيخه فيما كان منه وسببه.

ولقد كنا نحضر بمجلس الشيخ عبد العزيز بن الكره، وهو يتكلم في المعرفة والناس بين يديه، وكان يحضر مجلسه شيخه جراح - رحمه الله - فيفرح به الشيخ جراح، وبما فتح الله تعالى عليه به، ثم يرد برأسه إليّ وإلى الجماعة، ويقول: هذا عبد العزيز رويحانة - ويصغرها - في ميزاني، وكان عبد العزيز - رحمه الله - إذا سمعه يذكر ذلك يتهلل وجهه ويتبسم، وكان هذا الشيخ جراح t عالي المقام، مجهول بين أصحابه لم يظهر قط للشيخ عبد العزيز تلميذه من حاله بارقة، وكذا قال لي وسألته عن ذلك؟ فقال: لا يطيق، وكان هذا الشيخ جراح باب في مجلس الشيخ أبي مدين - رضي الله عنهما - إذ كان بـ (تونس)، وجاء منه ما جاء، وكان الشيخ أبو مدين يقول بـ (بجاية) إذا ذكر عنده جراح: لو كان لي جناح لطرت به إلى جراح، ثناءً عليه لكونه يقصده مع كونه من مريديه، وكان يحفظ المدونة لسحنون في مذهب مالك t عن ظهر قلبه، وكان قد اشتغل بالفقه قبل توبته، وكان من العمال الأمناء، مات ودفن بـ (مرسى عبدون) بمحرسة على البحر على إثنى عشر من تونس، ولما مات الشيخ عبد العزيز تلميذه أمر أصحابه أن يدفن إلى جانبه، فقيل لي: إنه دفن إلى جانبه بالمرسى المذكور، وما رأيت فيمن رأيت أحفظ منه على السنة؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلا ما سمعته عن الشيخ الحداد باليمن، شيخ ربيع بن محمود الماردِيني الحطاب، فإنه بلغني: أنه ما بلغه قط خبر من رسول الله ﷺ يقتضي العمل؛ إلا وعمل به.

ثم قال في وصيته: (إذا حضرت في جمع فلا تجلس؛ إلا في أخفض موضع، يكون ذلك بذل وانكسار، وليكن عندك من الهيبة لهم، والاحترام لصغيرهم وكبيرهم، حظ وافر، ولتكن مطرقا بينهم حياءً منهم) يقول: انظر نفسك أقل الجماعة، فإنك أعرف بنفسك منك بهم.

قال بعضهم: هذا الطريق لا يصلح؛ إلا لقوم كنسوا المزابل بأرواحهم، فإنه من تواضع لله رفعه [الله][1]، وإنما أوصى بمثل هذا إذا كان الأمر في نفسه أن الله تعالى لا يتجلى في صورة واحدة لشخصين، فما يدريه لعل الله قد تجلى لكل واحد من الجماعة في صورة، هي أعلى من صورة ما تجلى له الحق، فإن كان الأمر كذلك فقد وَفى المقام حقه، وإن كان هو في نفس الأمر أكبر من الجماعة في هذا التجلي، فهو نزول فيه إليهم لأنه بحكم ما تجلى له، والله تعالى قد وصف نفسه بالنزول لعباده كل ليلة إلى السماء الدنيا[2]، فنزوله بهذا التجلي في نزول هذا المريد أقرب نسبة في النزول من نزوله تعالى إلى السماء الدنيا.

---

(١) زيادة في (ب).

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٥٩٦٢) كتاب: الدعوات باب: الدعاء نصف الليل، ولفظه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، وبرقم (١٠٩٤) كتاب: أبواب التهجد باب: الدعاء في الصلاة من آخر الليل، وبرقم (٧٠٥٦) كتاب: التوحيد باب: يريدون أن يبدلوا كلام الله، ومسلم في صحيحه رقم (٧٥٨) كتاب: صلاة المسافرين باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والترمذي في سننه رقم (٤٤٦) باب: ما جاء في نزول الرب إلى السماء الدنيا كل ليلة، وقال حديث حسن صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما وصيته: في جلوسه بين الجماعة بذل وإنكسار، ليطلب بذلك عزة الله، وجبره لما انكسر منه، وليس الكسرة؛ إلا دعواه في عبوديته حالة ربانية، وذلك ثلم في عبوديته فيجبر الله تعالى ذلك الكسر له، وسد تلك الثلمة، ويعطيه العزة التي أعدها للمؤمنين بذله، فإن لم يكن انكسر فلا تثلم عبوديته، وكان قعوده قعود المنكسرين من غير كسر في نفس الأمر، فيكون حاله حال ظهور الحق في أدنى الصور، فافهم ذلك.

وأما وصيته: بالقعود في أحقر الأماكن، وهو الذي زهدت الجماعة في القعود فيه نفاسة للرتبة المكانية، فإن الله تعالى يقول في إدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً﴾ [مريم: ٥٧]، فوصف المكان بالعلو على غيره، يقول هذا الشيخ: لا تبرح في هذه الجماعة مشاهدًا لعبوديتك بقعودك مكان العبيد من الموالي، وإن الله ما تجلى لك من عزه؛ إلا على قدر ذلك، ولا من ربوبيته؛ إلا على قدر عبوديتك، فكلما تحققت في أمر إعطائك يقتضيه على قدره، ولا تفرق في التعظيم بين صغيرهم بالسن، وكبيرهم، فإن الصغير بالسن قد يكون كبير بالمرتبة، قيل في يحيى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِياً﴾ [مريم: ١٢]، فهذا كبير في صغير.

وأما وصيته: بلزوم الحياء من الجميع، ولم يقل من واحد واحد على التفصيل، فاعلم أنه أراد ألا يفرق هذا المريد، وأن يجمعه على أمر واحد، ولاشك أن جماعة إذا اجتمعت أنها لا تجتمع إلا لمناسبة، فلابد من أمر جامع واحد، ليس لك ذلك؛ إلا من عند واحد على انفراده، فيكون مشهود هذا المريد ذلك الأمر الواحد الذي جمعه، فيستحي منه فلا يتبدد هذا المريد، ويكون له من الإمداد الإلهي من ذلك الأمر الواحد ما لا يكون لأحد من الجماعة، ولا للجماعة؛ إلا أن يكون مشهد غيره من الجماعة مشهده.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال: (ولا تبدأ احدًا منهم بكلام، بل إن أشار إليك أحد منهم فرد إشارته بأدب، فإذا كلمك أحد منهم فتأدب برد الجواب عليه، منكسر الهمة، متواطي الرأس بعبارة لطيفة) كأنه t يحرض على استعمال البشاشة، واستجلاب القلوب، والتحبب للناس، وألا تكون مبتدئًا بشيء من ذلك؛ إلا حتى يكون الطلب منهم، فإنهم لا يكون الابتداء منهم إلا عن قبول عليك، وإذا كنت أنت المبتدي، كنت أنت المكلف لهم في الإجابة، فقد يجيب المجيب حبًا وغيرحب، إما حبًا وكراهة، وإذا كنت أنت المجيب كنت بحسب ما كلمت مع ملازمة الأدب.

وكأنه والله أعلم في هذا الفصل يدل على السماع من الحق لا من نفسك، بل من خارج، فإن هذه أحوال السامعين من الحق، ولذلك وصاك بالأدب في رد الجواب، والذلة والسكون، لكون المتكلم معك الحق تعالى على ألسنة عباده، وهو مقام ابتلاء كله، والناجي منه قليل، وقد فردنا له بابًا أعني فصلاً من كتاب "مواقع النجوم" يحوي على التخليص من غوائل هذا المقام مع التحقيق به.

وإنما قلنا: أراد السماع من الحق في هذا الكلام، لما تمم به، فقال: (ولا يشير إليك أحد منهم، فتغفل عن إشارته) الله الله فأثبتك، وإنما أثبتك فصفة الغفلة من جملة صفاتك، ولو جعلك في هذا المقام مهما جعل الغير ما قال لك: لا تغفل عن إشارة المشير، وهذه حالة السامع من الحق، غير ذلك من المقامات لا يكون، أعني: من مقامات الطريق.

وأما أمره: (بانكسار الهمة، وتواطي الرأس، والجواب بالعبارة اللطيفة) فهو يؤكد ما ذكرناه في قصد المتكلم بهذا الكلام، أنه يريد السماع من الحق، لأن الهمة ما لها متعلق إلا الحق، فإذا وقفت عند هذا فلم يقف، وقدر أنه عين الحق المطلوب، فإنه ليس وراء الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مرمى، لهمتها وانكسارها عن النفوذ فيمن يكلمها عين رجوعها إليه، (وتواطي الرأس) في هذا المقام حياءً من المشاهدة، إذا رأى أن المتكلم معه الطالب [بجواب] (١) منه، إنما هو الحق في هذا المجلى المخلوق، (والعبارة اللطيفة) بعد الإنصات لكلامه عند سؤاله هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣]، ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[الحجرات: ٢]، وذلك أن الرسول ﷺ مجلى الحق، فهو الحق يكلم عباده في هذا المجلى، وكلام الحق كله قرآن، وقد أمرنا بالإنصات عند القراءة والاستماع، فإن طلب منا الجواب في ذلك، أجبنا بألطف عبارة وأحسنها، كما فعلت الجن حين أسمعها رسول الله ﷺ سورة الرحمن، فكلما قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] قالوا في الجواب: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فما خاطبوا إلا الحق في الجواب، وحذفوا الرسول ﷺ من الوسط، فما سمعوه؛ إلا من الحق، فما أجابوا بهذا الجواب إلا للحق، ولذلك جاءوا بحرف الخطاب في قولهم: من آلائك، وأثنى عليهم رسول الله ﷺ حيث أجابوا بذلك، وجعل ذلك من حسن الاستماع، وفضلهم على الصحابة من الإنس إذ كانوا دونهم في الاستماع.

ومعلوم أن رسول لله ﷺ كان التالي، وإنما سُمي قارئ القرآن تاليًا؛ لأنه تالي الحق في ذلك، إذ الكلام الذي يتلوه هذا التالي هو لله، وهذا تالٍ له، فإنه ما سمعه السامع إلا منه ولا ينسبه التالي، أعني ما جاء به من الكلام لنفسه، ولا سمعه السامع؛ إلا من الله تعالى بسمعه، ومن ألفاظ الرسول بإذنه، الذي هو محل السمع في وقت حجاب السامع عن الله، أنه سمعه وبصره، فإذا كان من أهل هذا المقام الآخر يكون

(١) في (ب): بالجواب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السامع والمستمع واحد العين في صورتين مختلفتين، بحالتين مختلفتين، خارجتين عن هذا الباب الذي أشار إليه هذا الشيخ - رحمه الله - في وصيته، والله أعلم.

ثم قال: (وإن كان في الجمع من يُشار إليه، ورأيت الجماعة تخدمه وتتأدب معه بين يديه، فاعلم أنه سيدك محمد ﷺ) هذا قد نبهك على حالة لباس الأرواح الهياكل، كما حدثني أوحد الدين بن حامد بن أبي الفخر الكرماني t [١] قال: خدمت شيخًا في رجوعي من الحج، فأصابه إسهال - يعني إطلاق البطن - فشق عليّ ما يقاسيه، فسألته أن يتركني أكلم صاحب بـ (يمارستان) لبعض السبيل، فمنعني من ذلك، فلما رأى أن منعه إياي من ذلك [شق] [٢] عليّ، قال لي ليلة: رُح إلى بيمارستان السبيل، وجئني بدواء ففرحت، وجئت إلى سبيل دانٍ بيمارستان صاحب سنجار، وشمعة توقد بين يديه في خيمة له، وجماعته واقفون على رأسه في خدمته، وكان خادمًا، فعندما أبصرني بين الجماعة قربني، وأقبل عليّ، وسألني عن حاجتي، ولم يكن قبل ذلك يعرفني، ولا بيني وبينه اجتماع، فقضى حاجتي وأعطاني الدواء، وخرجت من عنده فارحًا نحو الشيخ، فخرج في خدمتي، وأنا أقول له: لا تفعل خوفًا من الشيخ، وهو يأبى إلا المشي في خدمتي إلى بعض الطريق، فحلفت عليه، فرجع، وجئت إلى الشيخ وذكرت له الخبر، وجميع ما جرى لي، فقال: صدقت، وأخذ الدواء وما استعمله، ثم قال: يا ولدي مالي حاجة بهذا الدواء، وإنما أمرتك بذلك لما رأيت من توجع قلبك عليّ، فرحمتك، فلما وجهت خفت عليك أن يطردوك وينكسر قلبك، فانسلخت من هيكلي ولبست هيكل صاحب السبيل ذلك الخادم، فكنت أنا

---

(١)

(٢) في (ب): يشق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي أقبلت عليك، وقضيت حاجتك لا هو، جبرًا لقلبك، وأنت إن كنت تشك في ذلك، فتعرف صدقي في رجوعك إليه دون أن أتلبس أنا بصورته، وتنظر، قال: فتعرضت له في اليوم الثاني فطردني، وما أقبل عليّ، وفعل بي نقيض ما رأيت منه البارحة، فرجعت إلى الشيخ وأخبرته الخبر.

ولا شك أن الورثة إنما هم هياكل لروحانية النبي ، فهو رسول أبدًا حيًا وميتًا، فمن يطع الشيخ؛ فقد أطاع رسول الله ، فإنه روح هيكله، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فإنه مجلاه، وحينئذ الرسول موضع ظهور الحق، ثم يفنى عن الرسول بقوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فيكون نظرك في الرسول فيغيب الرسول، فكما يبقى في مغيب الرسول بالنص، كذلك يبقى الحق في مغيب الشيخ عن بصيرتك، ويبقى الحق إذ هو المتكلم من الرسول، فإنما قال لك: (فاعلم أنه سيدك محمد) لكونك في سلوكك على شريعته، وسنته وطريقه، والمكلف من هذه الأمة لا يخلو في حركته وسكونه، وجميع أحواله، أن يكون على حال المشرع فيه، حكم بأحد أحكامه، فحكم الشرع قاضٍ فيه لا يفارقه، فلهذا قال لك: إنه سيدك محمد إذ لا يشار إلى الشيخ؛ إلا لتحقق اتباعه، وإذا رأينا من يدعي في هذه الأمة مقام الدعاء إلى الله على بصيرة، ويخلّ بأدب من آداب الشريعة، ولو ظهر عليه من خرق العوائد ما يُبهر العقول، ويقول: إن ذلك أدب يخصه، ولا يلتفت إليه، فليس بشيخ ولا محق، فإنه لا يُؤمَن على أسرار الله تعالى؛ إلا من يحفظ عليه آداب الشريعة، ولكن شرطه أن يبقى معه عقل التكليف، فإن طرأ ما يخرجه عن عقل التكليف، فيسلم إليه حاله ولا يقتدي به، وهو سعيد، وهو في الوقت الذي سلب عنه عقل التكليف، بمنزلة الشيخ عندما يموت فيما يقبض روحه على ما كان عليه، كذلك يؤخذ عن هذا المولى عقله على ما كان عليه، فيبقى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سعادته سعادة الميت، ولا يُدبر لنفسه الناطقة في هيكله لفقد آلامها، فيبقى مثل سائر الحيوانات تدبره روحه الحيواني، ولا يعترض، فإن الله ما كلفه، كما أنه لم يكلف الموتي وإن كانوا سعداء.

فافهم ما ذكرناه لك لكي تسعد، فإن هذه الحالة جهلها أكثر أهل الطريق، فكيف عامة الفقهاء؟ فإذا عرفوا ما قلناه لم يقدروا على إنكاره، وإنما يحجبهم عن ذلك ما يرونه منه من حركاته الطبيعية، في أكل وشرب ونكاح وشبه ذلك، فيقولون كما أنه ينكح ويأكل ويشرب، فليصل، وتحجبهم الصورة الإنسانية الظاهرة، وما يعلمون أنه حيوان في صورة إنسان، وأن نفسه الناطقة انقلبت إلى البرزخ انتقال الموتى، وإن كان لها التفات إلى هذا الهيكل، فمن أجل بلوغ الأجل المسمى، الذي للروح الحيواني في كل حيوان يموت، فإن الموت إنما هو للحيوان لا للإنسان، إلا من كونه حيوانًا فافهم، فتعتقد في مجانين أهل الله، ولا تقتدي بهم، بخلاف عقلائهم.

ثم قال بعد دعاء دعا به لنفسه وللمسلمين: (واعلم أنه بهمة شيخك، وشيخ شيخك، وإخوة شيخك، وغلمان شيخك) يقول: واعلم أن إشهاد الحق إياك سيدنا محمدًا ﷺ في هذا المقام من أكبر الاعتناء الإلهي بك، إنما كان بهمة من ذُكر، إن كان من ذكره له همة متعلقة بالله في حق [السالك][(١)]، واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا أشهد من شاء من عباده نفسه تعالى، فإن ذلك لا يدل على علو مقامه ولا حاله، ولابد أن الحق في عقد كل ذي عقد صغير وكبير، وهو المتبوع في الاعتقادات بحسب ما تعلقت به تلك الاعتقادات، فلا يعرف العالي من الأعلى من ذلك، ولا المعصوم من غير المعصوم من ذلك، فإن الله تعالى عند لسان كل قائل - يعني بما يقول - فلذلك هو عند اعتقاد كل

(١) في (ب): أمثالك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معتقد، وأثنى الاعتقادات وأعلاها، كل اعتقاد في الله تعالى U، أخذه صاحبه من كتاب إلهي منزل، أو من أخبار رسول الله □ أو رسول من الرسل، ودل ذلك ما دلت عليه العقول، وبينهما ما صورته الأوهام من بين العقول والأخبار.

وما ثم إلا هذه المراتب الثلاثة: إما إله دل علي ما ينسب إليه عقل سليم، وإما شرع ثابت مقرر، وإما وهم مصور في دليل نظري أو خبري، وليس ثم غير هذا. النفس مصرفة تحت سلطان الوهم، أكبر من تصرفها لسلطان العقل، فإن الوهم أقوى وأقرب نسبة إليه من العقل، فإن ميدان الوهم واسع، فجولانه في الأمور أطلق من جولان العقول، وجُل الأخبار الإلهية جريها مع [الأفهام] (١) أعظم من جريها مع العقول؛ لأنها تعم بالدعوة إلى الله U الصغير والكبير، والعالم والمقلد، والوهم له التصرف في الجميع الخاص والعام، والعقل ما له تصرف؛ إلا في خصوص قوم، مع كون الوهم لا يفارق قط موطن حكم العقل.

ولاشك أن أخذ العلم بالله من خبره تعالى، أحق به من العلم به من حيث النظر العقلي بكثير، فإنه تعالى في نفسه أعلم، والعقل لا يدرك ما يدرك من ذلك؛ إلا بضرب مثال وهمي، وقياس غائب على شاهد فإن الأمر غيب، ولا تقيس عليه مشهود له، وطرد العقل مما شهده غائبًا وشاهدًا من الحكمة، ولولا أن الأمر أوسع من ذلك، فإن التوسع الإلهي يقبل كل قول قيل فيه، لكان بعض النظار يخيب، وبعضهم يصيب، والكل مصيب فيما ذهب إليه، بدليل أن الله تعالى ما يتجلى له فيعرفه عبده إلا في اعتقاده، وفيما عقد عليه مع نفسه، عقد عقل، أو وهم، أو وقوف عند خبر إلهي، ولكن لابد من وهم يصور ما جاء به هذا الخبر، حتى ينضبط له، ولولا ذلك ما كان عقدًا، فإن ما لا ينضبط لا ينعقد، فإذا

---

(١) في (ب): الأوهام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أشهد الله من شاء من عباده ما شاء من العلم به، بحضور رسول من رسله، أو بحضور سيدنا محمد وهو التامة الأتم، وهم طائفة لا يتصور سلطان الأوهام على صورهم، بخلاف رؤية الإله في مثل هذه المشاهدة، يعلم المريد بحضور ذلك السيد المصطفى، أنه محفوظ الكشف والشهود لعدم إنكار حضور السيد له في الواقعة، وترك النُكر لذلك، فيكون على بصيرة فيما رآه، وأنه رآه بالأفق الأعلى، لا بالأفق العالي، فإن قوله تعالى: ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ [النجم: ٧]، هي رؤية الشهود، وقوله U: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، أي: رؤية قبل ذلك، وهي الرؤية الوهمية، فإن كان ذا نظر عقلي فهي الرؤية النظرية الفكرية، وشهود ما أدركه النظر الفكري أعلى من حال النظر في ذلك، فلذلك جعله أعلى، فدل حضور النبي في الوقائع على مرتبة صاحب الواقعة، وعصمته وعلوه فيما رآه، فإنه من مرآة الحاضر ببصره لا من مرآته، مثل مسألة الشاب الذي أغنته رؤية الله U عن رؤية أبي يزيد في زعمه، فلما حضر أبو يزيد - رحمه الله - هذا الشاب، لم يطق حمل عظيم ما رآه، فمات من حينه، فأين هذا الادراك بحضور أبي يزيد من ذلك الإدراك، الذي انفرد به؟ وأين أبو يزيد من سيدنا محمد ؟.

ولقد روينا عن أبي موسى الديبلي[1] عن أبي يزيد البسطامي: أنه سأل الله تعالى رؤية مقام رسول الله من ربه؟ فقيل له: إنك لا تطيق، أي: نورك الذي ترى به يضعف عن إدراك ما تطلبه من ذلك، مع كون الحق في هذه الحال بصره، فكيف به لو لم يكن بصره، فألح في السؤال، قال أبو يزيد: فُفتح لي من ذلك قدر خرم إبرة، فلم أطق الثبوت عند ذلك، وأُحْرِقت، هذا قوله عن نفسه: فلولا مشاهدته في

(١)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصور المعتادة؛ لما ثبت أحد عن رؤية شيء من ذلك، فإنا لا نشك في قوة رسول الله وثباته، وعلو رتبته ومقامه، في معرفة ربه U، ومع هذا قيل له في حق ما أعطيه أصحاب الكهف: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾ يعني خوفًا على نفسك أن تذهب ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾[الكهف: ١٨]، أي: في قلبك، فإنهم جماعة ولكل واحد منهم حال مع الله تعالى في إيمانه به، ما هو للآخر، فلو اطلعت عليهم بالجملة؛ لرأيت اختلاطًا في الأمر، واختلافًا في النظرة الواحدة، فكنت تخاف على نفسك من الحيرة فيما رأيته في النظرة الواحدة، فكنت تولي فرارًا، وتملأ قلبك رعبًا من هول الأمر، لأنك ترى ما لا تقدر على دفعه؛ لعلمك بأن الله جعل ذلك كله حقًا، ولا ينضبط لك منه شيء دون شيء، فتحار وتُملأ رعبًا من الخوف. شعر:

تفرقت الضباب على خداش فما يدري خداش ما يصيد

وليس في قوة هذا الصائد أخذ الكل، ولا يدري ما هو الأولى من ذلك فيقصد إليه ويترك ما سواه، فإنه يرى العين واحدة في صور كثيرة، كما يرى الإنسانية واحدة في أشخاص كثيرة، بأحكام مختلفة يريد ضبطها فلا تنضبط، فإن الأمر فيما لا يتناهى لا ينضبط، إذ لو انضبط لتناهى، فلو أن صاحب الواقعة يرى الحق في واقعة بحضور جميع الرسل؛ لكان حاله حال النبي لو اطلع على أصحاب الكهف، فلذلك لم يشهد الله تعالى صاحب الواقعة ما أشهده من العلم به؛ إلا بحضور الرسول وحده فإن الله تعالى قد جعل لكل رسول فيه شرعة ومنهاجًا، أي: ما رأى إلا ما أعطته حقيقة نشأته الروحية، الصادرة عن مزاج طبيعته، وكما لا يتكرر مزاج، لا يتعدد بين اثنين معراج، ولكل معراج غاية، فلا تتوحد بين اثنين غاية، بل لكل مزاج معراج، ولكل معراج غاية، بل للإنسان الواحد معارج كثيرة، وغايات كثيرة بعدد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معارجه، بل لا يكون له في كل مزاجه إلا معراج واحد، لأن مزاجه لا يدوم زمانين، وإن كان ذلك في عين جوهر واحد، فلا خفاء باختلاف الصور على ذلك الجوهر الواحد، ولا معنى لاختلاف الصور؛ إلا وجود المزاج، فهذا المزاج غير هذا، فلما نظرنا الجوهر القابل الذي لا وجود له، إلا بالصورة كذلك تجوزنا بقولنا: بل للمزاج الواحد معارج كثيرة، وليس هو في نفسه إلا على ما قلناه، فالخلق جديد مع الأنفاس كثير بالصور، والحق ليس بجديد، بل هو مستمر ثابت، واحد العين والقبول، فاعلم ذلك.

وقال هذا الرجل لهذا المريد: فما اعتنى الله بك بحضورك بين يدي هذا السيد محمد في واقعتك؛ إلا بهمة من ذكره من الشيخ، وشيخ الشيخ، وإخوان الشيخ، وغلمان الشيخ.

ثم قال له بعد ذلك: (فبادر إلى الوقوف بين يديه، واجعل التراب على رأسك، والصق رأسك و خدك بالتراب، وقليل ذلك، فلو أهلكت نفسك شكرًا لله U على ذلك لما سبق لك في الأزل، وجعل شيخك سببًا لإظهار ذلك على يديه) يقول t : إذا رأيت في المشهد سيدك محمد فبادر إلى الوقوف بين يديه، يقول ذلك لترى ما يأمرك به، فإنه ما جاء سُدى، فإنه إما بشير، وإما نذير، وهو السراج المنير، فيعطيك بإنارته بحسب حالك الذي أنت عليه، وإن كنت على حالة بشر كان بشير خير في حقك، وإن كنت على حالة غير مرضية كان نذير في حقك، أي: معلمًا لك لترجع عن ذلك ما دمت في موطن قبول التربية، وهو الحياة الدنيا، فما تعرف حالك في وقوفك بين يديه؛ إلا بما يأمرك به، فتعلم أنه ما أعطاك ما فهمت عنه في وقوفك بين يديه؛ إلا حالك، فمن حالك خاطبك، فكن بحسب ما يقتضيه ذلك الخطاب فهو الذي اقتضاه الحال.

وأما قوله: (واجعل التراب على رأسك) فإن الأرض أمك، فمن التراب خلق الله جسدك، ومن مزاجه ظهرت صورة روحك ولطيفتك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

،وواجب على الولد بره بأمه، فإن الشارع قد أكد ذلك لك، فقال رجل لرسول الله مَن أبر؟ قال: «أمك، ثم عاد عليه، مَن أبر؟ قال: أمك، ثم عاد عليه الثالث، فقال: مَن أبر؟ قال: أمك، ثم قال في الرابعة: ثم أباك»[١]، وهو الروح الكلي الذي أعطى هذا الروح الجزئي الخارج على صورة مزاج البدن، كما يتكون الجنين في رحم الأم، وهو من الأب ما لا صورة له سوى عينيه، فلا يكسب الصورة إلا في الأم، فهي أظهرته، فكان بره بها أعظم، وإن أردت تعظيم شيء جعلته على رأسك أي أعطيته مرتبة العلو منك عليك تعطي لا تشك، فإنها بارة بك، كذا قال رسول الله حين أمر بإكرامها، أعني الأرض، فقال: «إنها بارة بك»[٢].

ويتخيل من يسمع كلام هذا الشيخ في جعل التراب على الرأس، أنه بمنزلة ما يفعله الذي أصيب، فإنه جرت العادة في المصاب، إذ يجعل التراب على رأسه، ليس هذا مراد الناطق بهذا الكلام في هذا الموطن؛ لأنه لا يعطيه الطريق، فما هو إلا ما ذكرناه، فإنه جاء به على تعظيم المقام والعناية، فإن الله تعالى جعل الأرض ذلولاً، وأنت ما نلت هذه العزة الإلهية؛ إلا بذُلِك وسكينتك، فما نلت ذلك إلا بصفة أمك الذلول، فاعرف قدرها، وارفعها على رأسك تعظيمًا لها.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٥٦٢٦) كتاب: الأدب باب: من أحق الناس بحسن الصحبة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ »، ومسلم في صحيحه رقم (٢٥٤٨) كتاب: البر والصلة باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، وابن ماجة في سننه رقم (٣٦٥٨) كتاب: الأدب باب: بر الوالدين والحاكم في المستدرك عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده y رقم (٧٢٤٢) (١٦٦/٤) وقال صحيح الإسناد، والترمذي في سننه رقم (١٨٩٧) كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في بر الوالدين، وقال حديث حسن.

(٢)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله: (والصق خدك بالتراب) فهو قوله عليه الصلاة والسلام: «الجنة تحت أقدام الأمهات»[(١)]، فإذا جعلت خدك مقام أقدام أمك، وقدم أمك ملصق بالتراب، فقد أنزل التراب منزلة الجنة، فإن الجنة تحت أقدام الأمهات، وهو إما مقام الغنى بالله، فيكون من أترب الرجل: إذا استغنى، وأما مقام الفقر إلى الله، فهو من: ترب الرجل إذا افتقر، فلذلك أمرك أن تلصق خدك بالتراب، أي: تجعل صفتك الغنى بالله، أو الفقر إلى الله، ومن رزقه الله الغنى به أو الفقر إليه، فتلك نعمة لا يقوم أحد بشكرها أبدًا، فإنك في الحالين ما شغلك إلا به، ألا ترى النبي ﷺ ما قام حتى تورمت قدماه في عبادة الله؛ إلا في الشكر لما غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقيل له في الرفق في نفسه، فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[(٢)]، فيكون من القليل، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وأما الشاكر فكثير، والله قد نعت نفسه بالشاكر، والشكور بمزيد

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٢٥٠٢) (١١٤/٢) ورقم (٧٢٤٨) (١٦٧/٤) بنحوه عن معاوية بن جاهمة أن جاهمة t أتى النبي ﷺ فقال: إني أردت أن أغزو فجئت أستشيرك قال: ألك والدة؟ قال: نعم قال: اذهب فألزمها فإن الجنة ثم رجليها» هذا حديث صحيح الإسناد، والنسائي في سننه عن معاوية بن جاهمة رقم (٣١٠٤) كتاب: الجهاد، باب: الرخصة في التخلف لمن له والدة، وابن ماجة في سننه رقم (٢٧٨١) كتاب: الجهاد، باب: الرجل يغزو وله أبوان، وابن أبي شيبة في مصنفه عن معاوية بن جابر السلمي عن أبيه رقم (٢٥٤١١) كتاب: الأدب، باب: ما قالوا في البر وصلة الرحم.

(٢) طرف من الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه رقم (١٠٧٨) كتاب: التهجد باب: قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه عَنْ زِيَادٍ قَالَ سَمِعْتُ الْمُغِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ فَيُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»، ومسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة t رقم (٢٨١٩) وعن عائشة رقم (٢٨٢٠) كتاب: صفة القيامة والجنة والنار باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، والترمذي في سننه عن المغيرة بن شعبة t رقم (٤١٢) (٢٦٨/٢) باب: ما جاء في الاجتهاد في الصلاة وقال حديث حسن صحيح، والنسائي في سننه الكبرى رقم (١٣٢٥) كتاب قيام الليل وتطوع النهار، ذكر صلاة رسول الله ﷺ بالليل والبيهقي في سننه الكبرى عن عائشة رقم (٤٣٩٩) كتاب: باب ما روى في عدد ركعات القيام في شهر رمضان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النعم، ومن العبيد بمزيد العمل. ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟[إلـى هنـا تـم مراجعـة النسختين]؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟.

وقوله: (ولو أهلكت نفسك شكرًا لله U) وما فعله ذلـك المريـد بمِنى، وكان فقيرًا صادقًا، ففاته لفقره من مناسك الحج القربان، فإنه لم يكن عنده ما يشتري به قربانًا يذبحه أو ينحره، فقال: إلهي تقرب إليك أهل [الجدة][1]، بما وصلت إليه أيديهم بما أنعمت به عليهم من الثروة، وعبدك فقيرلا شيء له، فاقبل اللهم نفسي قربانًا بـأن تأخـذها إليـك، ووضع خده في الأرض، كما يضجع الكبش للذبح، وشهق فمات، فكانت نفسه قربانه في ذلك اليوم شكرًا لله تعالى، فهذا معنى قوله: ولو أهلكت نفسك شكرًا لما سبق لك في الأزل من إحضار هذا الرسول في مشهدك الإلهي.

ثم قال: (في إلصاق خده بالتراب، فإذا جلست وإلا قدم مـا أنـت عليه من وضع الخد على الأرض، ووضع التراب على الرأس إلـى أن يأمرك الرسول ﷺ برفع وجهك عن التراب، فانفض التراب عن رأسك، فإذا جلست فاجلس حيث يؤمر بك أن تجلس فيه، منكسر الهمة مطرقًا، متواطي الرأس) هذه إشارة إلى ما هو الحق عليه مـع الخلـق فإنـه بالعالم ظهرت أسماؤه، وبالخلق ظهر حكمه فيهم، فما أضاف الجلوس إليه، وإنما قال له: فإذا جلست وإلا قدم على حالك، والحال الإلهي الذي أشار بالدوام هنا قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ العَـالَمِينَ﴾ [آل عمـران: ٩٧]، وهذه حالة لا تقتضي الدوام، فلابد أن تجلس، فليكن الذي يجلسه الرسول الذي أشهده.

وقوله: (ألا يجلس إلا حيث أمر بالجلوس فيه) هو قولنا: لا تحكم على الخلق إلا بما أعطاه الحق، فهو الحاكم المحكوم.

---

(١) في (أ): المجدة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: (فانفض التراب عن رأسك) يشير إلى أن يرد كل شيء إلى أصله، فما هو للحق بما هو حق رده إليه، وما للخلق بما هو خلق رده إليه.

وقوله: (متواطي الرأس منكسر الهمة) وإن كان قد مضى تفسيره، فهو هنا تواطي الرأس عبارة عن لين الجانب مع الرفعة، التي أنت عليها، أي: لا تظهر للناس علو مرتبتك التي لو ظهر لم يصل إليها غيرك، فتكون مع الناس بحيث هم، كنزول الحق إلى عباده إلى سماء الدنيا في القرب إليهم ومنهم، من مستواه الرحماني، ولو استوى بغير هذا الاسم ما نزل أصلاً، كذلك ما أجلسه إلا رحمة بك، ولذلك قبلت أن تكون متواطي الرأس، لين الجانب، لمن أرادك، أين مقام منزل موسى u من ربه إذ كلمه على الاختصاص، وأعلى منزلته، من لينه لفرعون في قوله حين دعاه، فانظر في حكمة هذا اللين تجدها في دعواه الربوبية، وموسى على كل حال خلق في نفسه، وحاله وذاته، فلابد من لين الجانب تحت عز ما ادعاه من الربوبية فرعون، فما دعاه باللين؛ إلا في المقام الذي يستحق ذلك، ورجال الله بحيث مقاماتهم وأحوالهم لا بحيث ذواتهم، ولو لم يدع الربوبية، ما بعث له باللين من العزة التي كان عليها موسى بالكلام، وهارون مؤيد موسى، فله عزة التأييد، فلو قابلا عزة فرعون بعزتهما لتصادموا، ولم تقع المنفعة لفرعون في قوله: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، وهو قوله: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، فخشي، فإن الله لا يرجو ما لا يقع.

وأما انكسار الهمة في هذا الموطن، فإن الهمة إذا تعلقت بما ليس بحاصل في الوقت، فإنها تطلب النفوذ إلى مشاهدة من تعلقت به

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتحصيله، فإذا رأى صاحب الهمة مطلوبه في نفسه زالت همته، وانكسرت عن طلب النفوذ وهو قوله:

قد يَرحَلُ المَرءُ لِمَطلوبِهِ		وَالسَبَبُ المَطلوبُ في الراحِلِ (١)

فإذا انكشف لك أن مطلوبك ليس غير عينك، وعينك ما فارقك، لأنه أنت، فما لهمتك متعلق خارج عنك، وهذا أعطاه الشهود الذي ذكره، والله أعلم.

ثم قال رحمه الله بعد تحصيل هذا الحال: (وتُظهر التذلل والانكسار والمسكنة لمن يتكلم معك ويُشير إليك) يقول لما رأيت نفسك حقًا، والذين ينظرون إليك خلقًا، وجب عليك النزول عليهم، حتى يستفيدوا من نوالك.

وكذلك تمم في وصيته فقال: (ولا ترفع رأسك إلى أحد منهم، فإنهم لن يصلوا إليك إن فعلت ذلك، وهم يطلبونك، وإن رفعت رأسك إليهم أخذتهم العزة في أنفسهم، فتخيلوا أنهم أرفع منك، فيجهلوك، فلا ينتفعون بك، فإذا كان نظرك إلى أسفل، شاهدوك فوقهم أنهم دونك، فتهيأوا للإفادة منك، فأفدتهم بحالك).

وقوله: (فإنهم ملوك الدنيا) يعني الرسل ومن يماثلهم، حيث أنهم أرسلوا إلى التحكم في العموم، وأما من حيث منزلتهم في العلم بالله، فليس هم ملوك الدنيا والآخرة، وإنما هم ملوك الله، وفي هذا الرتبة يكون الحق ملك الملك، كما ذكره الترمذي الحكيم، وملك الملك هو

---

(١) من بحر السريع أبو اسحاق الألبيري ٣٧٥ - ٤٦٠ هـ / ٩٨٥ - ١٠٦٧ م إبراهيم بن مسعود بن سعد التُجيبي الإلبيري أبو إسحاق. شاعر أندلسي، أصله من أهل حصن العقاب، شعره كله في الحكم والمواعظ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحق، لأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويرضيه فعل العبد ويسخطه، ولا خفاء لهذا التأثير عقلاً وشرعًا، والمقلد محل الآثار أبدًا حيث كان، فمن وجه هو الحق، ومن وجه هو الخلق، وفي وجه حق لا هذا ولا هذا، فما الحق فعل ما يشاؤه فقيه، فما في صفوه رتق، وقد يظهر التابع في مقام أعلى، في حال قيام المتبوع في حال أدنى، من أجل من أرسل إليه، فإنه حجة لكل واحد، وإن تقابلت الحجج، ولست أنت كذلك؛ إلا في مريديك الذين هم لك بمنزلة أمة الرسول للرسول.

ثم قال: (وإن أشار إليك الرسول وكلمك هو، فبادر إلى الوقوف بين يديه فقيرًا منتظرًا) يقول: (وإن أشار إليك الرسول أو كلمك) وهو ينطق تلك الصورة التي تجلى لك فيها، فقف بين يديه (فقيرًا) لما ليس عندك، (منتظرًا) لنواله بمنحك إياها، فإن أمرك بالجلوس من ذلك الوقوف، فاجلس على حد ما تفهم في أمره إياك بالجلوس، فلا تقيده بحال دون حالة في شرح الجلوس.

ثم قال رحمه الله: (فإن خيرك في أمر فرد التخيير) يقول لك: لا تختار عليه، فإنك جاهل بما يصلح لك من حالك، وهو عالم به، فإن اختار لك ما اختاره ألزمه نفسك، فلا تعدل عنه ففيه ما كان مما يسهل عليك ويصعب، فإن الله تعالى هو المتجلي لك في صورة الرسول، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، ولذلك قال لك هذا الشيخ فرد الأمر إلى الله سبحانه وتعالى.

ثم قال لك: (@وقل به رب ليست لي إرادة في شيء، فإني قد خرجت عن إرادتي كلها من حيث ما هي لي، فلم يبق لي إرادة مستقلة دونك، فهو ما تريد، فذلك الذي أريد، كما قال أبو يزيد – رحمه الله تعالى –: أريد ألا أريد، فإن إرادتي لا تساوي شيئًا، إذ لا يكون إلا ما يُريد) وهذا وإن كان عاليًا فله مقام خاص، وأعلى منه ما يقابله، فإن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أكثر الناس يرون أن إرادة العبد تبع، وأهل الاطلاع على النقيض في الحكم من ذلك، وقد أشرنا إليه فيما تقدم. (الي هنا لم يحقق ولم يراجع على النسخ الثلاث)

وما أظن قال أبو يزيد: @@@@@@مثل هذا الكلام؛ إلا في وقت حجابه وبداية أمره، فإن كل كلام ترمي به الحقائق، وإن كان حقيقته فما يصدر من مبتدٍ ضعيف، دخيل في الأمر، عام في غاية العمومية، ولذلك يبتديء بسبب نفسه، ويجعل ذاته وقاية للحق عن أن تصيبه سهام المذام، ورجال الله يعلمون ذلك، فإذا صدر مثل هذا من كبير، فهو عمل بحكم الموطن، وهو من علو الحال والرسوخ في المقام، وإذا صدر من صغير فهو حاله لا غير، فالصورة في الشخصين واحدة، والباعث مختلف، فما أحسن تعليم الله في قوله U: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فيتعلق بغير علم بـ ﴿تَسُبُّوا﴾ الأول ﴿تَسُبُّوا﴾ الثاني، فلكل واحد منهما عمل في هذا المجرور، فأما عمل الثاني فيه فمعلوم عند الكل بأول الفهم، وأما عمل الأول فيه فمعلوم عند أمثالنا بقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فما عبد قط غير الله، فلا تسبوا الذين يدعون من دون الله بغير علم فليس الله بغير علم كذلك.

وإياك أن تسب أحدًا إلا حاكيًا، أعني: تحكي سب الله في كتابه لذلك على علمه فيه، وكنت آنت في ذلك السب بجانب، فإن الحاكي له حكم من يحكي عنه إلا في الصورة، كما قال الشاعر العربي في ذلك:

رَأيتُ الناسَ يَنتَجِعونَ غَيثاً[1]

(١) رَأَيتُ الناسَ يَنتَجِعونَ غَيثاً بِسائِفَةِ البَياضِ إِلى الوَحيدِ =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالجملة في موضع النصب فرع على الحكاية، ولو أعمل (سمعت) في اللفظ لنصب الناس، فالعلماء بالله تعالى أبدًا يحكون لا يتحكمون، والعامة تتحكم لا تحكي، وهذا الرجل كثير السب للنفس، فإن كان حاكيًا فهذه صفة الكبراء من رجال الله تعالى، وإن لم يكن حاكيًا فهو من أهل الحجاب، وما حجب الناس؛ إلا عدم الفهم في كلام الله تعالى حيث تلوا ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، والله حاكى في هذه الآية قول من قال هذا، وهو قول زليخا، أو قول يوسف u عند من يرى ذلك، فلو أعلموا من أي مقام أمرت بالسوء لم يحتجبوا بهذه الآية على ذم النفس، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل إليه، لمن اختصه من عباده أهل عنايته، ثم قرن هذا الشيخ وقوفك بين يدي الرسول عليه السلام بوقوفك بين يدي الشيخ فقال:

(بين يدي الشيخ الذي حكمه الله U في إيجادك وإظهارك إلى هذا العالم العزيز) يقول: يلزمك به من الأدب مع شيخك، الذي أرشدك الله به، ما لزمك مع الأدب مع الرسول u .

وقوله: (إن الشيخ أوجدك وأظهرك في هذا العالم العزيز) أي: بإرشاده وهمته مع قبولك، أظهر لك ما ظهر، فكأنه أنشأك نشأة أخرى، فإن الإنسان يظهر في كل موطن بصورة غير الصورة التي كانت له في موطن آخر، وهذا الموطن ما حصل؛ إلا بما أبان له الشيخ في إرشاده، فنسب الإيجاد والإظهار إليه، وأما تقيده ما ظهر له بالعالم العزيز، ولم يصل بالله لعلمه بأن الله ما له تجل لأحد من خلقه، من حيث هو لنفسه،

=

من بحر الوافر لذو الرُمَّة ٧٧ - ١١٧ هـ / ٦٩٦ - ٧٣٥ م غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر. من فحول الطبقة الثانية في عصره، قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة. كان شديد القصر دميمًا، يضرب لونه إلى السواد، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين وكان مقيمًا بالبادية.توفي بأصبهان، وقيل: بالبادية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن يتجلى من حيث هو لنا، فيظهر في التجلي بصورة من صور العالم، وفي أي صورة ظهر، فإن تلك الصورة تقر أن يدخل حماها، ما كانت مجلى الحق، ولا يزال العالم مجلاً للحق؛ إلا أنه لا يُعرف، فلهذا تنتهك حرمة تلك الصورة في العامة الجهلاء، والعارف لا ينتهك صورة من العالم، لعلمه أنها صورة الحق، فلهذا نعته بالعزيز، فإن العالم لو كانت له العزة من نفسه ما ظهر الحق فيه، لامتناعه لذاته عن القول، والأمر هوية في حكم صورة اسم إلهي، واسم إلهي في حكم هوية المسمى، لقبولها ذلك الاسم؛ لأنها تحكم بظهوره، ولذلك أطلق عليها فقيل: هو الله الكذا والكذا، كما ذكر من الأسماء.

ثم قال بعد دعاء كثير وذكر أطرافك فقال: (فلا يرفع رأسك؛ إلا الرسول والشيخ، ومهما تعرض لرفعه غيرهما فلا تمكنه من نفسك، ولا ترفعه أنت بنفسك أصلاً، فكن مستيقظاً لذلك) هذه وصية وأكد فيها، يقول: لأنك لا تدري، ولا يدري غيرهما إلى أين ترفع رأسك، فإن الرفع يختلف بالقصد، فمن أراد العلو في الأرض هلك، ومن أراد إعلاء الله بالمرتبة في الأرض لم يهلك، فالرسول أو الشيخ يعلمان أين يرفعان برأسك، وفي أي وقت، وبأي صفة، وأنت وغيرهما يجهل ذلك.

وأما قوله: (وكن متيقظًا) يريد بما قاله بعد هذا، وهو أنه قال: فإذا رفع الرسول u رأسك بنفسه، أو الشيخ بإذنه u ، فإنك ترى عندك أمرًا هائلاً، وقبولاً من تلك الجماعة الحاضرين، وسلامًا منهم عليك، ويهنئوك بما أنعم الله به عليك، فإياك إذا رأيت ذلك أن ترى لنفسك قدرًا يقول: تيقظ مع نفسك عندما ترى عناية الله بك، إذا كان رسول الله يتولى رفع رأسك، أو يأذن للشيخ في ذلك، فمن الوجهين إنما كانت بالعناية منه u ، فهي بشرى من الله تعالى لك بالمكانة عند الله، فإن النبي ما يفعل مثل ذلك في موطن الكشف والخيال؛ إلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمعتنى به عند الله، عظيم القدر، بخلاف الحس، فإنه لو فعل ذلك في الحس ربما كان مكرًا، فاقتضى لصاحب هذا الكشف الموطن، أن ذلك الفعل يؤذن بالاعتناء الإلهي به، فإن من اعتنى به الرسول u في موطن الكشف، فقد اعتنى الله به، كما كان في حال التكليف في الحس في دار الدنيا، من أطاع الرسول فقد أطاع الله، فذلك الاعتناء جزاء هذا الخير، فاعلم ذلك، ثم قبول من حضر في ذلك الموطن الكشفي، من الأرواح الظاهرة في القبور الجسدية، وسلامهم عليك، وتهنئتهم لك، مما يؤيد ويؤكد أن ذلك اعتناءً من الله بك، وأنك جنيت في ذلك ثمرة غرسك، باتباعك للسنة في حال تكليفك، غير أنه أوصاك إذا شهدت هذه الحالة.

(ألا ترى لنفسك قدرًا) يقول: لا ترى أن ذلك نلته باستحقاق، ينبهك أنه وإن كان ذلك الاعتناء والإنعام باتباعك الرسول، وبجميل فعلك، فانظر أن تلك الأفعال والاتباع الذي أنتج لك ذلك، إنما كان بعناية الله بك، لا بالاستحقاق، فإن التوفيق من الله تعالى، ما يُنال بالاستحقاق، إذ لا يجب على الله شيء من ذلك، فأجر ما أنتجه الأول من أمرك مجرى الأول، ثم إنه وإن كان ذلك الإنعام ثمرة هذا الفعل، فهو ثمرة الفعل والعمل، لا ثمرتك، فالاستحقاق للعمل لا لك، غير أنك المتصف به، لأنك تعلم أنك مسلوب العمل، وأن العمل لله تعالى لقوله U: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فأنت وإن ظهر منك العمل، فالعمل خلق الله لا لك، فما لك استحقاق عند الله أولاً ولا ثانيًا، وهذا كله حظ من لا علم له بما هو الأمر عليه في نفسه، بل هذا هو المعلوم عند خواص أهل الله تعالي، الموصوفون بالعلم.

وأما خواص الخواص، وهم الراسخون أهل الكشف المحقق، والاطلاع علي سر القدر، فيرون خلاف ما قرره هذا الشيخ، وقررناه في شرح هذا الكلام، بل ذلك كله عنده ما حصل إلا بالاستحقاق، فإنه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى أوجب على نفسه، ما أوجبه عليه ما تقتضيه تلك الأحوال، ولا تكون الأحوال تستحق ذلك لعينها، لكونها لا تقوم بنفسها، فإنما ذلك لمن هي حالته، فهو المثني عليه بها، فهو يستحقها أولاً في التوفيق بالاستعداد الذي هو عليه في نفسه، إذ لولاه لما قبل الموافقة الإلهية فيما كلفه، فكان من المتقين، وذلك الاستعداد ما حصل له في الصورة الظاهرة حال التكليف؛ إلا بما كانت عليه الصورة الباطنة في علم الله، فهو باطن ظاهر، فما زال الأمر عنه، وقيل: ليس للحق فيه حق، كما تقرر في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فهذا يقابل هذا، وإنما خاطب الصورة الظاهرة بأن قال U: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ في حق هؤلاء لوجهين:

الواحد أي: الأمر للصورة الباطنة، والأمر الثاني أن الأمر لهم ليس لك، والحقيقة تعطي أنه ليس للحق حق، فيما ظهر في الأكوان من الأمور، لمن فهم الأمر على ما هو عليه، وهو له من وجه أنه المتصف به، فقد قبله بتجليه فيما ظهر فيه من صور العالم، فما قبله إلا بالاستحقاق، والحق لله تعالى في ذلك كله، ولكن أين هذا الوجه؟ والعلم من الوجه الذي يقول به العلماء y من حيث النظر والفكر، في هذه المسألة بينهما ما بين النفي والإثبات، ولولا أني أعلم الناطق الذي أنطق هذا الشيخ بهذا الكلام ما شرحته بهذا الشرح، ولو شرحته على قدر علم المنطق به الذي هو الشيخ؛ لشرحته بما هو المقرر بين أهل الحجاب، الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، فكلامنا في مثل هذا وغيره؛ إنما هو كلامنا مع الله U الذي أنطق كل شيء، فكلامنا معه، ولكن أيضًا به لا بأنفسنا، فهو المتكلم والسامع منك بحكم الصورتين، لا بنفسه. شعر:

فالأمر بيني وبينه إذا تحققت عينه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فـــالكون كـــون كونـــه	لمـــــن تحقـــــق كونـــــه
فمـــــــن يقـــــول	فالـــحـــــــق للكـــــــون
بـــأيـــــــــــن	أينــــــــــــــــــــــــه

إشارة قوله: (لا ترى لنفسك قدرًا) لأنك خارج عن المقدار، فما ينضبط لصورة تحصرك، بل كلما ظهرت في صورة تليها صورة غيرها والكل عينك، والأمر غير متناهٍ، فلا ينضبط وما لا ينضبط لا يأخذه المقدار، وكل جاهل رأى لنفسه قدرًا وقف معه، وما رأيت من العامة من عرف قدر هذا من غير هذا الباب؛ إلا زوجة كانت، ولما أردت عقد نكاحها، قال لها العاقد: ما تحب أن يُفرض لكِ من الصداق؟ فقالت: أدنى ما يحل به النكاح، فقال لها العاقد وهو لا يعرف قصدها في ذلك: أنت إمرأة جليلة القدر، أخت ملك كبير، ولابد أن يكون صداقك على قدرك، فقالت: من يفعل ذلك من له قيمة وعزه في نفسه، والمرأة إذا عينت فوق ما يحل به النكاح؛ فقد خرجت بقدرها عندها، ونفسي والله أعلم عندي أعلى من أن تكون في مقابلة قدرها الدنيا والآخرة، فما أنا قليلة عند نفسي، فإذا لم يكن في صداقي إلا ما يحل به النكاح، يعلم قطعًا أن ذلك ليس قدري، وإنما قصدت الإجلال، فيبقى قدري مجهولاً، فتعجب العاقد والفقهاء من شرف همتها، وكذلك قالت لي شِفاهًا مثلما أسمعتهم، فهذه إمرأة من العامة قد هبت إليها نفحة إلهية وجودية، مما هو الأمر عليه في نفسه، ولا يشعر بقدرها ما نطقت به، فإنها نطقت عن نفس عزيزة كبيرة عند نفسها، ما نطقت به عن علم بالوجه الذي يذكره أمثالنا في مثل هذه المسألة، فما وصاه هذا الشيخ ألا يرى لنفسه قدرًا ،وفي نفس هذا الموصى لحقارته وذله وصغاره، وفي حق من نطقه بذلك لعلو شأنه وعزة الأمر في نفسه، فكثير بين القصدين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال بعد قوله: لا ترى لنفسك قدرًا قال: (وانظر إلى حالك وما أهلت له، واستصغر نفسك لذلك الأمر) وهذا أيضًا مما نطق به، ولا يعرف ما قال، ولهذا فسره بما تممه فقال: (وانظر إلى حالك) يعني في حالك، فكر فيه (وما أهلت له) وإذا نظر في حاله، وما أهل له فما أعطاه الله U؛ إلا ما استحقه الأهلية، فإنه حكيم يضع الأشياء في مواضعها، فإذا استصغر نفسه لذلك الأمر؛ فقد وضع الحكيم الشيء في غير محله، وليس الأمر كذلك، بل المنعم لو لم يكن فيه الأهلية لقبول النعمة ما قبلها، ألا ترى الجُعل يضر به ريح الورد مع طيبه؛ لأنه ليس فيه أهلية لذلك، ولا هو على مزاج يقتضي له النعيم بتلك الرائحة، وكذلك كل منعم ومعذب، ما نعمه ولا عذبه؛ إلا حقيقة ما هو عليه، فمن استصغر نفسه فيما أنعم به عليه فقد جهل واضع تلك النعمة، حيث وضعها في غير محلها، فإنه ما قبلها إلا وقد وسعها، فما يصغر عنها، ولا وضعها المنعم فيه؛ إلا وهو يحوي عليها، وربما يزيد لقبول نعمة أخرى ثانية من الله تعالى، والعالم كله منطق بما يعرف قدره وما لا يعرف، فكلامنا وشرحنا إنما هو لكلام الله العالم بما نطق به هذا الشخص، ولا تعتبره؛ إلا في مواطن نزولنا عن الحقائق إلى المعهود في عُرف العلماء، وما تعطيه قوتهم، فقد نمشي في ذلك لفهم السامع ووقاية في الحال، يقول الله تعالى: ﴿إِلاَّ أن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، فأباح لنا مثل هذا، فإذا ارتفع الموجب ارتفع الواجب، ومن هذا الباب كان يحب رسول الله □ الفأل، وإن كان الناطق به لا يقصد ما أخذه صاحب الفأل، وهو مقصود الحق الذي أنطقه في حق صاحب الفأل، فله وجهان: وجه لقصد المنطق به اسم مفعول، ووجه لقصد النطق به اسم فاعل في حق صاحب الفأل الحسن، فانظر في هذا والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال – رحمه الله ورضي عنه –: (وإن وجدت في نفسك نهضة، فقم واذكر الله U بما هو أهله، واثنِ عليه بما يفتح الله عليك، ثم صل على النبي □، وادع للشيخ، ولمن أمرك بالدعاء له فيما تقدم) يقول t: إنه من الأحوال ما إذا وردت على الإنسان خَدرت جوارحه، وأضعفته عن الحركة بجميع أعضائه لسريان قوة الخيال فيه، فإن الله تعالى أعطى الأحوال وأعطى في العبد قوة، فلا يخلو حال الوارد على صاحبه من أحد ثلاثة أحوال: بالنسبة إلى قوة من ورد عليه، أو دون ذلك، أو فوقه، وما ثم قسم رابع فإن كان مثله خرج سواء بسواء، فصاحبه صاحب اعتدال، كما لا يحكم عليه الحال بظهوره، كذلك لا يحكم على الحال في تصرفه، وإن كان الوارد أقوى أخذ الجوارح، وأضعف الحواس، فيقول: زملوني دثروني، وإن كان الوارد الحالي دون القوة التي في المحل، صرف حاله كيف يشاء، ووجد القوة والنهضة في جسمه، فلذلك قال:

(إن وجد نهضة) يقول: الحال دون قوتك، فلتنهض عند ذلك بذكر الله U والثناء عليه بما هو أهله، وأراد بالذكر هاهنا ذكر الشكر، لأنك صاحب نعمة بهذا الحال.

وقوله: (ثم صل على النبي □) يقول لك: لا تغفل في ذلك الحال أن تعلم ما أنتجه إلا اتباع رسول الله □، فتصلي على النبي □ شكرًا لكون الله هداك به إلى ما آنت عليه.

وأما الدعاء لإخوانك، فلكونهم أعوانك على ما أنت عليه، وأما غيرهم من أهل الله، فلكون همتهم متعلقة إلى الله تعالى في توفيق عباده، وأنت من عباده، فتعين عليك أن تدعو لهم.

ثم قال t في مثل هذا المجلس: (فإن علم النبي □ من كلامك،أن الله U قد فتح عليك في الكلام، فربما أشار إليك أن تتكلم احترامًا لك عند الحاضرين، فبادر إلى الوقوف بين يديه).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول: إن بعض الناس قد يفتح له في العبارة وهو يسمى في الطريق فتوح العبارة، فيأمرك بالكلام، وهو ما يجده صاحب الحال من العبارة عنه في نفسه، فإن غلب عليه نطق مغلوبًا، فلو أراد السكوت ما قدر على ذلك، والمغلوب عليه ينطق بما يدري ليصل ذلك إلى الحاضرين، أو السامع يصل إليه في المستأنف، فينتفع به فيكون منطقًا بذلك في حق من انتفع به، إذا بلغه ولو بعد ألف سنة، وإن عرف قدر ما ينطق به فهو المتكلم والسامع، فينطق عن بصيرة وهو الأتم، وإن لم يكن مغلوبًا عليه، وكان متمكنًا من النطق أو السكوت، فلينظر فيما فيه من العلم، فإن احتمله المجلس نطق به، وإن لم يحتمله المجلس لم ينطق به، وكتمه كتمًا إلى وقت آخر يأتي إليه أهله، فيقرره به فينتفع به، فلابد من إيصاله إما باللفظ، وإما بالكتاب، وإن لم يجد الباعث لذلك، فيعلم أنه ما أريد منه إظهار شيء من ذلك إلا لنفسه، فيعمل بمقتضى ما عنده، وإذا تحقق النظر في ذلك لم يجده إلا هكذا، فإن التأخير في البيان عند الحاجة لا يجوز، هذا حكم الله U في الأمور.

فصاحب الكتم بيانه لنفسه، فإن كتب فلغيره ممن ليس بحاضر، وإن نطق فللحاضر والغائب معًا ولنفسه، فأمره إذا وجد قوة الكلام والتبليغ وهو في ذلك الشهود حالاً أو خيالاً، كقوله: «اعبد الله كأنك تراه»[1]، وهو استحضار لا حضور، فإن معاملة العبد ربه في الاستحضار مثل معاملته في الحضور سواء، فلا تغفل عن هذا، وهو إذا تكلم في الحضور يقف بين يديه، فكذلك يقف في استحضار مثل معاملته، ومعنى يقف بين يديه أي: لا يتكلف فوق ما يجده، ويقف عنده من غير مزيد، فإنه يخاف على المتكلف أن يكون كلامه فتنة، بخلاف

(١) سبق تخريجه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من لا يتكلف في ذلك، فالزائد على الحاجة في الوقت تكلف، وكن في وقوفك وإبلاغك بحسب ما يعطيه حال الوقت، وما تراه من إشارة من أمرك بالكلام، ولا تزيد على ذلك وأنت أعلم بالحال؛ لأنك صاحب المجلس، فلا عين لك حالاً من حال إلا حال العلم، وهو الأدب مع الأمر الذات بين يديه، والوقوف عند مراسمه، ولا تزده على ما تجده في صدرك من العلم الذي تريد تبليغه، وما تعرف الزائد من الناقص من المعتدل في ذلك؛ إلا بالفكر فهو ميزانك، فإذا وجدت الكلام يدفع بعضه بعضًا منك فتكلم ما دام معك هذا الوصف، فإن توقف عنك الأمر نفسًا واحدًا؛ بحيث أن ترجع إلى فكرك لترى ما يليق بذلك المجلس فتبرزه في العبارة، فذلك تكلف فلا تفعل، ولا تتكلف إلا عن غير فكرة ولا رؤية في ذلك، وتسكت حيث ينتهي بك الإمداد الإلهي.

واحذر من الفكر ما استطعت، فإنه لا شيء أضر على الله U من الفكر، وهو ما زاد على الخاطر الأول، والثاني أبدًا فكري، فإياك أن تنطق به ولو كان حقًا، فإنه فتنة والناطق في هذا الطريق إنما ينطق بالجبر لا بالاختيار، ولهذا قيل للرسول: ﴿بَلِّغْ﴾ فأمر والأمر عين الجبر، حتى قيل له في التأكيد: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فقال لسان الحال: أخاف الناس، فقيل له: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وعصمته لأوليائه فيما ينطقون به من مثل هذه الحقائق، إذ لا يرون الحاضرون الفهم عنه في دليل لفظ، فيقولون: هذا هذيان من القوم وقشر لا حقيقة له؛ لأنه لا يدخل تحت ميزان عقولهم، فإذا أراد الله U نفع قوم بذلك؛ نطق المنكر الجاهل بذلك اللفظ الذي جاء به هذا الولي، على جهة الهزية وحكاية قشره ليذمه بذلك منه السامع، فأخذ السامع روح ما جاء به وهو لا يشعر، ففي حق ذلك السامع حفظ على هذا الجاهل ما سمعه من ولي الله تعالى، وقد أشار إلى ذلك، وقد شاهدنا هذا كثيرًا من نفوسنا إلى الآن.والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال – رحمه الله تعالى و رضي عنه – بعد دعاء طويل: (فإن تكلمت، فاعلم أن الله U ألهمك من عنده) يقول ما قال الله تعالى عن الخضر: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: ٦٥]، وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وكان إلهامًا وُفِقت له، وكذلك قوله U: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا) أنه فجور (وَتَقْوَاهَا) [الشمس: ٨]، أنه تقوى، فميزت بهذا الإلهام بين الفجور والتقوى، فاعلم ذلك.

ثم قال بعد ذلك هذا الشيخ – رحمه الله – يصف ما عنده وما يشاهده من حاله في سره

فقال: (ثم أمر الرسول لمن هذا حاله بسرير يجلس عليه)يقول: عين له رتبة خاصة كني عنها بالسرير، وأظهرها في عالم المثال حضرة الخيال سريرًا، كما أظهر العلم في صورة اللبن، فما أراد إلا تعيين المرتبة، فلينظر ولي الله في تلك الرتبة وما يستحقه وما يكون عنها، ولا يخرج من الكلام إلا بقدر تلك المنزلة، ويسكت عما بقي عنده إن كان عنده ما يزيد على ذلك، فإن العبد إذا وُضِع له سرير الكلام، لا يكون عنده أنقص مما يستحقه ذلك السرير، بأن يكون عنده من العلم ما يساويه ويفضل عنه، لا ما ينزل عنه، وليلزم من الأدب في التبليغ، ما قرره في وصيته مما شرحناه قبل هذا، فإنه تكرر في وصيته ذلك في كل مقام يتكلم فيه، وإن كانت الآداب تتنوع بالصورة الواحدة بحسب المجالس، فلا يتمكن لنا الكلام والإبانة عنها؛ لأنه ما ذكر في كلامه ما نتكلم به، فلو ذكر لشرحنا من آداب ذلك الذي يطلبه الكلام المعين، ما يمكن شرحه، فلما سكت سكتنا، ولو كان الأمر في ذلك محصور العبارة لعيناه بجهة الحصر، لكان الأمر في ذلك لم يكن لنا أن نعد إلى وجه دون وجه؛ لأنا نعلم مما نتكلم به في ذلك المجلس المعين، فلو عين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المجلس ربما تعين الكلام، فتعين الأدب الذي يليق بذلك المجلس، الذي يطلب ذلك الكلام المعين، ففي هذا الفصل في كلام هذا الرجل حشو كثير، وتكرار بخلاف كلامه الأول، غير أنه زاد في هذه الوصية أمره إياك، بتقبيل قدم النبي ﷺ في ذلك المجلس، إشارة ذلك لكونه يسعى عليها إلى أن وصل إليك، ومعلوم أنك دونه، فكان سعيه نزول من أعلى إلى أدنى، فهو قدم ظاهرة نزلت من قدس أعلى، مستوى أزهى، إلى سماء الدنيا، بصفة مُثلى، متعلقة بآخرة وأولى، فما ذكر من الأدب؛ إلا تقبيل القدم.

ثم قال في صفة ذلك السرير وما يكون حالك معه: (فإن كان له – يعني للسرير – درجة واحدة، فاجعل يدك عليها ولا تصعد فيها، وإن كان له درجتان وأكثر من ذلك، فاصعد إلى الأولى فحسب).

ينبهك بالدرجة الواحدة على الاسم الجامع، ولا تصعد فيها بقدمك، فإن الاسم الإلهي الجامع لا يتمكن لأحد أن يُقام فيه، كما لا يتمكن أن يُسأل به مطلقًا، فإنه جامع الأضداد، فكلما أراد أمرًا قام المقابل فتبعه، فلا يكون عنه أصلاً، فلذلك منع أن يدعى به من حيث هو، فإن كان للسرير درجتان وأكثر، وهو ما ظهر من الأسماء الإلهية، فإنه ما بأيدينا اليوم من الأسماء سوى الذي جاء بها نص الشارع، وهي مائة إلا واحدًا في جُل الورثة، والاسم الجامع هو المائة من حيث جمعيته خاصة، فما زاد على عين كل اسم فهو عين المجموع، فكذلك هي تسعة وتسعون لا غير في حال تمييز واجتماع، فاعلم ذلك.

وأما أمره لك بالاقتصار على الدرجة الأولى، فهي ما قال ابن قسي: عن كل اسم من الأسماء الإلهية مسمى بكل اسم من الأسماء الإلهية، فأغنى كل واحد منها من الجميع، وما وجدت إلا أول درجة، فما عندك فراغ عنها لترقى في الثانية، ما زادت في عين الأول، بل ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كالعلم بتوحيد الله تعالى من طريق العدد، فالواحد أغنى عن الجميع؛ لأن الجميع ما ظهر إلا بالواحد، وما زاد إلا بإزالة الواحد، فعين مائة يثبت عين مائة انتفى منها، فبالواحد ظهرت مراتب الأعداد، فافهم ذلك، فقد قال به جماعة يعتبر قولهم في العلم بالله U، وإن تفاضلت الطرق لكنها بالجملة طريق منها، فإن إشارة هذا الناطق بالاقتصار على الدرجة الواحدة إلى المراتب، فليس لمراتب الاختصاص سوى ثلاث درجات: ولاية، ونبوة، ورسالة، والإيمان من الولاية؛ لأنه من اعتبر الإيمان مرتبة واحدة لاشتراك العامة فيها، جعلها أربع درجات، والصحيح ثلاثة، فأول الدُرج ولاية، فلذلك أمرك أن لا تتعداها، فإنك إن تعديتها ادعيت نبوة التشريع ورسالته، وقد حجر ذلك فما بقي إلا الولاية، وهي الدرجة الأولى فلا تتعداها، فإنك تتخبط فيما قدم لك فيه فيخاف عليك، فتتكلم من ولايتك لا تتكلم في حال نبي مشرع ولا رسول، وهذا تنبيه منه عجيب نطق به، فإن كان عن شعور منه فهو ذائقه، وإن كان عن غير شعور منه فقد أدى الأمانة إلى أهلها، فله جزاء الأداء، والله أعلم .

ثم قال رحمه الله: (فإذا فرغت من هذا المجلس، فوجدت في مزاجك تغير أو في جسدك، فلا تصنع له دواء، ولا تشكو ذلك إلى أحد، وكذلك كل ما يصيبك في نفسك وأهلك وأولادك، وجميع ما تعلق بك، ولا تنزعج لذلك، وقرر مع نفسك أن نفسك عندك عارية، فأحرى ما خرج عنك عنها، والعارية مردودة، والله أعلم) يأمرك في هذه الوصية بالتسليم لأمر الله، ويدلك على الأصل الذي منه ظهر كل ما وقعت فيه الدعاوى بالملك، فكان يوصيك بترك الفضول، فإنه من تصرف فيما لا يملك فإنه صاحب فضول، أي: زيادة على ما تملكه من التصرف، ولذلك يوقف تصرف الفضولي في شرائه وبيعه على صاحب الرجل، فإن أمضاه مضى، فهو وإن تصرف فالأمر فيه موقوف على إذن المالك،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبهذا القدر يتصرف الإنسان في نفسه وماله بيده، فهو الفضولي وصاحب الملك هو الشارع، فما أجاز من ذلك فهو ذاك، وما منع فهو ذاك.

واختلف أصحابنا فيمن أصيب بشيء من ذلك في نفسه، وما يملك من أهل ومال وولد، هل يرفع ذلك إلى الله U أم لا؟ فمنهم: من منع من باب التسليم والتفويض، ومنهم: من أجاز رفع ذلك إلى الله U كأيوب، وذا النون وغيرهما، وجعل من الأدب رجوع ذلك إلى الله U كما قال العارف: إنما جوعني لأبكي. وأنه من لا يرفع إلى الله U ذلك ويسأله في رفعه عنه، فقد أساء الأدب، حيث ناوئ بصبره القهر الإلهي، وليس له ذلك، فمن كان ذوقه هذا وجب عليه الرفع والشكوى إلى الله U لا إلى غيره، إثبات يخلو من العبودية له تعالى.

ومن كان مشهوده التفرج في التعريف الإلهي في الملك، ولم يخطر له مقاومة القهر الإلهي، فليس له أن يرفع إلى الله U ولا يسأله في ذلك وكشفه عنه، فهو بحسب ما يقام فيه، فقد يقام العبد أيضًا في غير هذين المقامين، وهو أن يقام في عبوديته ووجود نفسه، فهذا يسأل ويتضرع في رفع ما أصابه عنه إلى الله U لا إلى غيره، فإن أقيم في أنه محل المحو، وأن الحق عين ما ظهر فليصبر، فما ناوأه إلا عينه، فإن العبد ليس ثم، وقد يقام أيضًا في شكوى الحق لعباده وتعريفه إياهم ما أوذي به؛ ليذبوا عنه ويدفعوا لما لهم في ذلك الخبر، فيقتدي بربه في ذلك، فيرفع هو أيضًا إليه ما نزل به ذلك عنه، كما رفع الله تعالى عن نفسه ما أوذي به لعباده المؤمنين، فإنه قد ورد «ما أحد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أصبر على أذى من الله»[١]، ومع هذا فقد عرفنا أنه يؤذى وما عرفنا؛ إلا لندفع عنه.

ومنهم: أن يقام في أن الأذى المنسوب إلى الله U أنه أوذي به، إنما كان ذلك إلى المجلى لا لعين من تجلى فيه، ومنهم: من يقام في شهود ما أوذي به أنه ليس بزائد على عينه، فإن شكواه لا يدفع عنه ما هو له، فإن الشيء لا يزول عن حقيقته، فلا تنفعه شفاعة الشافعين، فما لهم عن التذكرة معرضين، فهم كما قال الله U: ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠،٥١]، فما هو حيوان فر من حيوان، فإن الشيء لا يفر عن نفسه، وإنما هو حمار فر من أسد، أو حيوان بحياة خاصة، فر من حيوان بحياة خاصة، فعينها التخصيص، فما الفار عين من فر منه، فالمقامات التي يقام فيها أهل الله تعالى في مثل هذا كثير، ومنها عالٍ وأعلى، ما ثم دون أصلاً، فليعمل الإنسان بحسب ما يقام فيه لا يتكلف غير ذلك.

ثم قال (وإياك أن يصيبك أمر من الأمور، فيخطر لك الموت لأجل ذلك ببالك، بل كن مع الله U فيما يقلبك فيه) يقول ما قال رسول الله □: «لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به، ولكن ليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خير لي، وأمتني إذا كانت الممات خيرًا لي وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»[٢]، فإن ذلك ما يكون إلا من ضجر

---

(١) طرف من الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه رقم (٢٨٠٤) باب: لا أحد أصبر على أذى من الله U عن أبي موسى قال قال رسول الله : «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله U إنه يشرك به ويجعل له الولد ثم هو يعافيهم ويرزقهم**»، والبخاري في صحيحه بنحوه رقم (٥٧٤٨) كتاب: الأدب، باب الصبر على الأذى، ورقم (٦٩٤٣)، والإمام أحمد في مسنده رقم (٣٩٥/٤)، وأخرجه الطبراني في معجمه الأوسط رقم (٣٤٧٠) (٧/٤). والنسائي في سننه رقم (١١٣٢٣) (٣٩٥/٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه رقم (٥٣٤٧) كتاب: المرضى باب: نهي تمني المريض الموت بنحوه عَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ فَإِنْ كَانَ لابد فَاعِلًا فَلْيَقُلْ** =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعدم احتمال، ومن شرط أهل الله تعالى بل من شروط الإيمان، السكون تحت مجاري الأقدار، ثم إن تمنى الشخص الموت لما أصابه ما ذاك؛ إلا لتخيله أن ذلك الذي أصابه وأضر به يزول بالموت، وما يعلم هل يصير بعد الموت إلى ما هو أشد مما أصابه أم لا؟ فلهذا نهى عن تمني الموت لما أصابه، فإن الموت قاطع، وما دام الإنسان في حياة التكليف فلا يخلو إذا كان مؤمنًا عن خير يقتنيه، في كل ما يصيبه من بلاء الدنيا، وسواءً أسخطه ذلك أو أرضاه، فإن الله تعالى قد ذكر إن العبد يسخط ربه عليه بفعل يفعله، فالعبد أولى هذه الصفة وما هو لله صفة، وإن العبد لا يؤاخذه الله بها، فهو سبحانه يتجاوز عن المستخفين بما يكون من الله فيهم مما لا يوافق أغراضهم، فإن الأغراض من العبد كالأمور المشروعة من الله سواء.

والحال الحال فلا تخرج من أمر تسخط منه، بل مع سخطك اسأل الله U دفع ذلك الأمر الذي أسخطك عنك، فإن السخط للنفوس الروحانية، كالأوجاع المحسوسة للروح الحيواني، وليس إلا عدم موافقة الأغراض، كما أن الأوجاع عدم ملائمة المزاج، فإن علمت أن الله تعالى يؤاخذك على هذه الآلام النفسية، مثل السخط والضجر، فاعلم أن ذلك مؤاخذة تعريف لا أخذ عقوبة، فإن العقوبة لا تكون إلا فيما أنت متمكن من طرحه عنك، وأما ما هو خارج عن مقدورك؛ فإن الله تعالى في أخذه مصرِّف لا معاقب، فيعاقب في المصارف لا في نفس الصفة،

=

اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»، ورقم (٥٩٩٠) كتاب: الدعوات، باب: الدعاء بالموت والحياة، ومسلم في صحيحه رقم (٢٦٨٠) كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب: تمني كراهية الموت لضر نزل به، والترمذي في سننه رقم (٩٧٠) كتاب: الجنائز، باب: ماجاء في النهي عن التمني للموت، وقال حديث حسن صحيح، والنسائي في سننه الكبرى بلفظ آخر عن أبي هريرة t رقم (١٩٤٤) كتاب: الجنائز والإمام أحمد في مسنده رقم (١٢٠٣٤) (١٠٤/٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإنها صفته وأنت قادر على المصارف، فمن هنا تكون العقوبة، فإن حضرت فيما أنت فيه ساخط مع حقيقة ما أنت عليه من جانب الحق؛ هان عليك الأمر، ولم تؤاخذ به أخذ عقوبة.

وقوله: (كن مع الله U فيما يقلبك فيه) فاعلم أنه ما يقلبك إلا فيما تقبله، فلو لم يكن فيك حقيقة القبول ما قلبك فيه، ومعنى قوله: مع الله U فجاء بأداة المصاحبة لكون الأمر بينك وبينه، فمنه التأثير وهو ما نزل بك، ومنك القبول كما لا يرجع على نفسه فيما أنزله بك، كذلك لا يرجع عليك في سخطك لذلك، فأنكر بالطبع النفسي فدفعه كما هو بالذات ينزله، وهنا مذلة قدم لمن لا علم له بأسرار الحق في عباده، أي: في المتسمين عبادًا، شعر:

فما ثم إلا الحق والعبد ليس ثم — وما ثم إلا العبد والحق يحتكم
وقد لاح للأبصار ما جئتها به — فمن شاء فليرحل ومن شاء فليقم
فلا تأخذ الألفاظ زورًا فإنها — لباس المعاني فلتقل عندها نعم
فكن رب إقدام عليها ولا تكن — جبان فتعمى عنك فاثبت ولا ترم

ثم قال: (فإن أشير إليك في الأخذ عنك، فتأدب واعترف بالتقصير) يقول: إذا أقامك الحق في مقام الاقتداء بك، والتأسي ليأخذ عنك الغير، فتأدب، يقول فاعرف ما يقتدى به منك، فتعلم أنه ليس لك، بل ذلك لمن أعطاك إياه، واعترافك بالتقصير هو أن تقول لنفسك أنها تقصر عن ذلك، وإن كان لها القبول، فلولا الوهب الإلهي ما كان لك ما تقبله، فالنعمة من الله فهذا معنى الاعتراف بالتقصير، فإن الطريق كله علم لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غير، فلا يشغلك الإقتداء بك عما خُلقت له مما نبهتك عليه، فإنه ما نصبك أسوة حتى خلع عليك خلع العصمة، والحفظ، فاشتغل أنت بما يخصك بينك وبينه وما يفعله، فالمقتفي يرقبه لا أنت، فلا تزهو بنفسك في هذا المقام؛ إلا أن تكون تزهو بربك، فإنه قد نُقل في المناجاة عن الله تعالى: بي فافتخر، بقول الله تعالى لعبده.

رُؤي عُتبة الغلام[1] يتبختر في مشيه، فقيل له: ما هذا الزهو الذي بدا منك؟ فقال: كيف لا يحق لي ذلك، وقد أصبح لي مولى، وأصبحت له عبدًا.

فهو يقيه على عبيد أهوائهم، بخلوص عبوديتي من رق الأهواء إلى الله U، فما زهى إلا بعد التخلص من ذلك وتحرير الملك لله U.

ثم قال t : (فإن عرض عليك ما تتناوله، فخذ من ذلك اللبن فحسب، ولا تتناول ذلك إلا بأدب، هذا ما أعطاه حاله، بل ينبغي لك أن تتناول كل مشروب يعطى من جانب الحق، مما يكون غذاءً أو دواءً،

---

(١) ذكر هذه الحكاية الشيخ الأكبر – قدس سره – في الباب التاسع والثلاثون فقال: زها يومًا عتبة الغلام وافتخر، فقيل له: ما هذا الزهو الذي نراه في شمائلك مما لم يكن يُعرف قبل ذلك منك؟! فقال: وكيف لا أزهو وقد أصبحَ لي مولى، وأصبحتُ له عبدًا. وسُمي بالغلام لأنه كان في العبادة كأنه غلام رهبان لا لصغر سنه، وكان عتبة يأوي إلى المقابر والصحارى ويخرج إلى السواحل فيقيم فيها، فإذا كان يوم الجمعة دخل البصرة فيشهد الجمعة ثم يأتي إخوانه فيسلم عليهم، وكان قد غلب عليه الحزن، وكانوا يشبهونه في الحزن بالحسن البصري t . مات t شهيدًا في قتال الروم وكان يهجع بعد العشاء شيئًا يسيرًا، ثم يقوم إلى الصباح وكان يلبس الشعر تحت ثيابه إلا يوم الجمعة، وكان يلبس كساءين أغبرين يتزر بواحدة منهما ويرتدي بالآخرى، وقال: من سكن قلبه حبه لا يجد بردًا ولا حرًا ولا جوعًا. وقال: من عرف الله أطاعه، ومن أطاعه أكرمه، ومن أكرمه أسكنه في جواره فطوباه ثم طوباه.وقال: كيف يفلح من سره ما يضره؟، وكان له بيت مغلق لا يفتحه إلا ليلاً فلما مات فتحوه فوجدوا فيه قبرًا محفورًا وغُلاً حديدًا t . [انظر ترجمته الحلية (٦/٢٢٦)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/٤٣)، الكواكب الدرية رقم (١٣٨)، صفة الصفوة (٣/٣٧٠)، المختار (٣/٥٤٨)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما ثم إلا هذا أو دق، وكل دواء غذاء لمن فهم) لأن الغذاء يدفع به ألم الطبيعة نفسًا وحسًا، ولو شرب ذلك على وجه الالتذاذ به فلا يزول عن كونه دواء، وما جعله يقتصر على اللبن في وصيته؛ إلا حديث الإسراء النبوي، وللرؤيا النبوية وتأويله تلك بالعلم، وفي بعض الروايات: «لو شربت خمر غوت أمتك»(١).

واعلم أن الشاربين عامة وخاصة، والتأويل في حق العوام غير التأويل في حق أهل الله U، فإن الأحوال تختلف، فشرب الخمر في العامة في المنام رديء، وفي أهل الله علم الأحوال، والماء علم المعاني المجردة عن الألفاظ، واللبن علم العبارات، والعسل علم الإلهام، وهو ضرب من ضروب الوحي، وأما إن عُرض عليك ذلك في الحس، فإن كنت من أهل الكشف والإطلاع، فانظر من أي حضرة عرض عليك ذلك المشروب، فإن كان عُرض عليك من حضرة الحس، فقدم اللبن على مذهب القوم، ثم العسل ممزوجًا بالماء، وكذلك اللبن امزجه بالماء، وإن مزجته بالعسل فحس، واجتنب الخمر جملة واحدة من أجل الموطن الذي منه كان الغرض، فإن الله تعالى حرم الخمر في موطن الحس، وإن عُرض عليك ذلك في الحس من حضرة الخيال، فإن أهل الكشف والاطلاع يرون في اليقظة ما يراه النائم في نومه.

---

(١) طرف من الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٣٢١٤) كتاب: الأنبياء باب: قول الله: ﴿وهل أتاك حديث موسى)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رَأَيْتُ مُوسَى وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ رَجِلٌ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ خَمْرٌ، فَقَالَ: اشْرَبْ أَيَّهُمَا شِئْتَ فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقِيلَ: أَخَذْتَ الْفِطْرَةَ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ**»، وأرقام (٣٢٥٤) (٤٤٣٢)، ومسلم في صحيحه رقم (١٦٨) ورقم (٢٠٠٩) كتاب: الإيمان باب: الإسراء برسول الله □ إلى السموات، والترمذي في سننه رقم (٣١٣٠) كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله □ باب: ومن سورة بني اسرائيل وقال حديث حسن صحيح، والنسائي في سننه الكبرى رقم (٥١٦٧) الإذن في الجُر، والإمام أحمد في مسنده رقم (٧٧٧٦) (٢/٢٨٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم أن الخمر ما حرمه الله U في النوم، أعني: في حضرة الخيال، ولا في الدار الآخرة التي هي الحيوان، فاشربها في الحس إن كانت من هذه الحضرة الخيالية، كما أمرتك أن تشربها في النوم في الرؤيا، فإنك تجد أثر علم الأحوال عند شربها، فهو علم حال تجسد لك في صورة خمر، ومهما شربت شيئًا من هذه المشروبات وطعمتها، فإن كان من حضرة الحس فقل: اللهم بارك لنا فيها، وأطعمنا خيرًا منها؛ إلا في اللبن، فقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، وإن كان من حضرة الخيال في اليقظة، فقل في كل ذلك: وزدنا منه، كما قلت في اللبن الذي هو من حضرة الحس، وهكذا كل ما يعرض عليك من الأطعمة تحقق من أي حضرة جييء إليك به، فعامله بحسب الحضرة التي جاء منها بما أنت عليه، وهذا معنى قوله رحمه الله في وصيته: أن يتناول ذلك بأدب، فإن الأدب في ذلك أن يُعمل فيه ما يستحقه، فيعطي كل ذي حق حقه من الحال التي أنت عليه، فإنك من المنتمين إلى الله U لست من عامة الناس، فإن الحق ما يطلبك إلا من مقامك، فرب حسنة من غيرك لو جئت بها سيئة لعلو مرتبتك، وكذا قال القوم: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

فإن المقرب يشرب من عين التسنيم، التي لا يشرب منها الأبرار؛ إلا حتى تمزج بالرحيق المختوم من أجلهم، فلا يدركونه خالصًا، كما يدركه المقربون قال الله تعالى في حق الأبرار: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦]، يشير إلى أنهم من أهل الأنفاس، فما أخرجهم عن مقتضى الطبيعة، ثم تمم فقال: ﴿وَمِزَاجُهُ﴾ يعني مزاج ذلك الرحيق ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]، أي: من عالي المنزلة والرتبة عليه، ثم قسم التسنيم فقال: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨]، فجعل الشرب من هذا العين خالصًا للمقربين، ومنه مزج رحيق الأبرار لأنهم مزجوا الطبيعة بالحق، فبقوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على نشأتهم من جميع الوجوه، أعني: من نشأتهم الروحية والجسمية، فإنهم إلهيون، فهم أهل إضافة والمتضايفان لا ينفك أحدهما عن صاحبه الذي أضيف إليه.

وأما المقربون وإن كانوا الإلهيين، فمن حيث المسمى لا من حيث المرتبة، فينفصلون من حقيقة المزج والإضافة، فهم ناظرون في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فانفردوا فخلص لهم عين التسنيم فلم يشربون ممزوجًا، فإن الله تعالى قد جعل لكل مقام أهلاً ورفع بعضهم على بعض درجات، فالمقرب لا يدركه البار أبدًا، فكل مقرب قد كان بارًا، وما كل بار أدرك به لو جيز به إلى مقام المقرب، فللمقرب الكمال وعموم المراتب، فإذا شرب ممزوجًا فمن حيث كان بارًا لا من كونه مقربًا، فإذا شرب خالصًا من المزج فمن كونه مقربًا ممن لا ذوق للأبرار فيه، فاقتصر هذا الناطق في وصيته على ما ذكرناه، وما فصل اتكالاً منه على فهم السامع الكامل، الذي الحق سمعه، كما كان الحق لسان هذا الناطق سواء، ولهذا لما وصل إلينا ما نطق به شرحنا على قدر علم الناطق، سواءً فصلناه مجمله، فإن كان هذا المحل الذي منه هذا الناطق من أهل الجمع والوجود؛ فقد وافقنا مقصوده في الشرح، وإن لم يكن وكان صاحب حال منطقًا مما يدري وما لا يدري، فقد وفينا مقام الناطق منه والنطق حقه، حتى لم يبق منه شيئًا، والله أعلم.

ثم قال: (وإن دفع إليك ملبوسًا، فلا تتناوله أصلاً، ثم علل، ولو سكت لكان خيرًا له) فقال: فإن السفر طويل فيقتضي التخفيف، فلنقل في شرح ذلك ما ينبغي، أعني: في شرح الملبوس، وندرج فيه قصد هذا الشيخ فتحصل الفائدة للسامعين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فاعلم أن الملبوس ملبوسان: لباس تقوى، ولباس زينة، فلباس التقوى: هو الغرض وهو ما تتقي به ضرر جسمك وروحك، هذا معنى لباس التقوى، وتتقي ظهور عورتك وهو خير لباس؛ لأنه لباس فرض، وأما لباس الزينة: وهو الريش وهو لباس التجمل، وله من الله محبة خاصة، ولباس الزينة على أقسام، فمن ذلك ما هو فرض بالنص، وله موطن خاص مع كونه زينة، وموطنه حال مناجاة الحق والوقوف بين يديه، وتلك زينة الله، والأمر بها قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣١]، فأمر وأمره واجب عند كل مسجد، فذكر الحال والموطن الذي يقتضي التجمل فيه لله تعالى بزينته، فإن النبي قال لنا في الحق: أنه أحق من تجمل له[١]، وقال في الخبر الصحيح نقلاً وكشفًا، للرجل الذي قال له: يا رسول الله إني أحب أن يكون نعلي حسنًا وثوبي حسنًا، فخاف أن يكون ذلك من البطر، فقال له رسول الله : «إن الله جميل يحب الجمال»[٢]، فحصل للجمال حبًا إلهيًا لا يحصله إلا من أخذ زينة الله عند كل مسجد، فمن كان على صلاته دائمًا في عموم أحواله، فتكون الرتبة عليه لا تبرح، وهو من الذين هم على صلاتهم دائمون في عموم أحوالهم، بخلاف من ليس له هذه الحالة، ويجعل ذلك في حال الصلاة المشروعة خاصة، فهم في وقت دون وقت، وهؤلاء في عموم الأوقات يناجون الله فهم في صلاة دائمة؛ وإن اختلفت مشاربهم فيها، فإن إختلاف المشارب أيضًا موجود في الصلاة المعهودة المعلومة،

---

(١)

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود t رقم (٩١) كتاب: الإيمان باب: تحريم الكبر وبيانه، وابن حبان في صحيحه رقم (٥٤٦٦) كتاب: الزينة والتطيب، ذكر ما يستحب للمرء تحسين ثيابه وعمله إذا قصد الدنيا، والحاكم في المستدرك رقم (٦٩) كتاب: الإيمان وقال صحيح الإسناد، والترمذي في سننه رقم (١٩٩٩) باب: ما جاء في الكبر، والإمام أحمد في مسنده رقم (٣٧٨٩) (٣٩٩/١)، والطبراني في معجمه الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما رقم (٤٦٦٨) (٦٠/٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فذوق الوقوف فيها غير ذوق الركوع، وغير ذوق الرفع من الركوع، غير ذوق القيام من الركوع، والسجود غير ذوق السجود الأول، غير ذوق الرفع من السجود، غير ذوق الجلوس بين السجدتين، غير ذوق السجود الثاني، غير ذوق جلوس الاستراحة، غير ذوق جلوس التشهد، فهذه مشارب مختلفة في الصلاة المعهودة، والمصلي يناجي ربه من حضرة الشركة والقسمة، فيكون كل صاحب قسم على قسمه معين، وكذلك الكامل في جميع أحواله على قسمه، ويعطي الله قسمه من حاله، فإن لله في كل حال قسمًا معينًا، وحقًا واجبًا، ولذلك قال له في كل حال وحركة وسكون، حكم شرعي بفعل أو ترك، على وجوب، أو ندب، أو خطر، أو كراهة، أو إباحة، فاعلم ذلك.

وهذه الأحكام للمعرفة بمنزلة صورة الأجسام للأرواح المدبرة لها، أو للقُوَى القائمة بها، فاعلم ذلك ولا ترد إن كنت في هذا المقام لباسًا@ يعرض عليك، فإنه دين، وكذا فسره رسول الله ﷺ وغيره في الرؤيا، فجعل الثوب في الدين وبه ضرب المثل في الطول والنقص، فإن لم يكن لك هذه الحالة، وتفرق بين الأمور بأحوالك، فخذ زينة الله في مواطنها، ورد من اللباس زينة الشيطان وزينة الحياة الدنيا، التي لا روح لها، وما ثم زينة سوى هذه الثلاثة: زينة الشيطان، وزينة الحياة الدنيا، وزينة الله تعالى التي في زينتك، فأضاف زينة الله لك دون غيرها، فقال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ فأضافها إليك، وقال عقيب ذلك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ فأضافها إليه، ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فعين صاحبها بصفة في الحياة الدنيا ذات الروح، خالصة يوم القيامة من الشوب بزينة الحياة الدنيا، التي لا روح لها، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ وكذا فعل في فصل كل زينة من غيرها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢]، فنبه على شرف العلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولما علل هذا الشيخ في رد الملبوس من أجل السفر؛ علمنا أنه يريد لباسًا معينًا، إذ لابد له من لباس التقوى كما ذكرناه، واقتصر عليه فإنه ضد الفرض، ولما كان الثوب الدين، وهو على قسمين: فرض، ونفل، أراد هذا الشيخ في وصيته، أن يكون في جميع حركاته الدينية صاحب فرض لا صاحب نفل، ولا شك أن أداء الواجب أعلى وأحب إلى الله تعالى من كل ما يُتقرب به إليه، فكأنه يقول لك: إن عرض عليك نافلة فلا تقبلها، وعمر وقتك بالفرض فهو خير لك، وإن كانت نافلة فتكون بمعنى زيادة فرض لا غير ذلك، كما كان قيام الليل فرضًا على رسول الله بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١، ٢]، وجعل ذلك نافلة له، أي: زيادة في الذي افترض عليه، فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، فلذلك أي زيادة فرض أمرك بها، وكذلك هي في حق المؤمن لو عقل عن الله تعالى، وأن الله تعالى يقول في العبد الذي انتقص من فرائضه: «أكملوا الفريضة من تطوعه»[1]، @الذي أوجبه بالقفل على نفسه، فما كمل واجب إلا من واجب، كالنذر الذي أوجبه الله عليه بإيجابه إياه على نفسه.

وكذا جاء في الخبر في قول السائل رسول الله لما قدر الفرائض، فقال: في كل فريضة هل عليّ غيرها؟ قال: «لا» أي ما أوجب الله عليك ابتداءً من ذاته إلا هذا الذي جئتكم به، ثم قال: «إلا أن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أنس بن حكيم الضبي t رقم (٩٦٥) كتاب: الصلاة باب: في فضل الصلوات الخمس وقال صحيح الإسناد وله شاهد صحيح على شرط مسلم، والبيهقي في سننه رقم (٣٨١٣) (٣٨٦/٢) باب: ما روي من إتمام الفريضة من التطوع في الآخرة، وأبو داود في سننه رقم (٨٦٤) كتاب: الصلاة، باب: قول النبي كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه، وابن ماجة في سننه رقم (١٤٢٥) كتاب: الطهارة، باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تطوع»[1]، يقول: فإن تطوعت أنت بما توجبه على نفسك فإن الله تعالى يوجبه عليك، كما فعل بالنذر، فإن مقتضى الكلام يعطي ذلك في قوله: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع بشيء» فيكون عليك الوفاء به، فإنك جئت بعمل لم يفترض عليك، تطوعت به من نفسك، فأمرك الحق ألا تبطل عملك الذي تطوعت به، فأوجبه عليك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، والشروع ملزم، ولذلك ورد فيمن أبطله أن يقضيه، فتحقق ما ذكره هذا الشيخ، فما أوصى إلى@ بأن تكون صاحب فرض في ذلك كله، فإن ترك الزيادة تخفيف.

ولا خفاء على كل ذي نظر سليم، أن الإنسان في سفر دائمًا إلى غير نهاية، دنيا وآخرة، فإذًا يُنسب إليه الاستيطان؛ فإنما ذلك آوان مبيته في المنزلة التي يصل إليها، فإذا أصبح رحل، فهو بالنظر إلى مبيته بالمنزل قاطن، وبسفره إذا أصبح راحل، أو بارتحاله إذا أصبح مسافر، قل كيف شئت بعد فهم المعنى، ولا تسمي زيادة؛ إلا ما زاد على قدر الحاجة، وما ثَم إلا محتاج إليه، فالحاجة لا ترفع، فما يعطيك الحق شيئًا؛ إلا وأنت محتاج إليه علمت ذلك أو لم تعلم، فخذ بقبول، وابحث على صاحب الحاجة إليه منك من هو؟ فإنك تجده ولابد، فإن الله لا يعطي شيئًا؛ إلا على قدر الحاجة إليه، كذلك المعطى إياه، والمحتاجون

---

(١) قطعة من الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٤٦)كتاب: الإيمان باب: الزكاة من الإسلام عن طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ يَقُولُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنْ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ فَقَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِيَامُ رَمَضَانَ قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ قَالَ لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ قَالَ وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزَّكَاةَ قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا قَالَ لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ قَالَ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»، ومسلم في صحيحه رقم (١١) كتاب: الإيمان باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، والإمام مالك في موطئه رقم (٤٢٣) كتاب: قصر الصلاة في السفر باب: جامع الترغيب في الصلاة، والنسائي في سننه الكبرى رقم (٣١٩) كتاب: الصلاة والحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما رقم (١١١٩) كتاب: الوتر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مختلفون متفاضلون، فالمعطي اسمه السخي أبدًا، فإن كان قبل السؤال كان رفيقه الكريم، وإن كان على طريق الإنعام كان رفيقه الوهاب، وإن كان على طريق الجزاء كان رفيقه الحسيب، وما ثم عطاء إلهي بطريق الإيثار؛ إلا إذا أعطى بآلة العبد، فحينئذ يكون عطاؤه إيثارًا أوجبته الآلة لحاجتها، وهذا لا يكون من الرب سبحانه، وكل اسم مضاف إلهي، كالخالق، والرازق، والمعز، والمذل، وأمثال ذلك كله، فالبس لكل حالة لبوسها، إما نعيمها وإما بؤسها.

واعلم أن الكامل من استنابه الحق عليه، فجعله رقيبًا على نفسه؛ ليرى آثار ربه في قلبه، فيكون يقابل تلك الآثار بما يجب لها من الخِلع، فيكون الرجل الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: من أجلكم ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ يعني بها ﴿مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ مما يقع بكم من الضرر ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، على ذلك حتى يزيدكم منه، ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فإن له لباس جوع وخوف؛ لمن كفر نعمة الله من بعد ما جاءته، فقال في ضرب مثل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وأي: قرية أعظم من جمعية الإنسان في نفسه ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢]، فسماه لباسًا فمثل هذا اللباس إذا كان عقوبة، أي: أتى عقيب الكفر أن ينبغي للعاقل أن يرد عن نفسه ما يؤديه إلى هذا اللباس، فيخفف عن ظهره لسفره، كما أنه يلبسه أيضًا، أعني: لباس الجوع للتصفية والخوف من الله من هذا الخوف، فإنه من كلمة الله المحمودة في موطنه، فما ثم مذموم مطلقًا أصلاً، فعليك بمعرفة الأحوال والمواطن، فهي التي تميز لك بين الأشياء، وتُوقفك على حقائق الأمور على ما هي عليه في نفسها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال: (وإن كلمتك أحجار، أو أخشاب، أو حيوان، وغير ذلك من المخلوقات، فلا تلتفت إلى شيء من ذلك أصلاً، ولا تُعلق قلبك بشيء، ولو عرض عليك الملك والملكوت، والسموات والأرض، والجنة والنار، وغير ذلك، فلا تلتفت إلى شيء، فإن جميع ذلك في بيعك) يقول: فإن انخرقت لك العادة بكلام من ليس من شأنه أن تسمع له كلامًا، كالجمادات، والنباتات، والحيوانات، أو من تسمع له كلامًا؛ إلا أنه خاطبك على التبيين بخطاب فيه تعظيم لقدرك، فأوصاك أنك لا تُعلق قلبك به - يعني بالمحل الذي خُوطبت به- فتقف عنده، بل ينبغي لك أن تقف مع الناطق منه في كل منطق، فما نهاك؛ إلا عن الوقوف مع الصورة التي نطق منها فتتقيد بها، فيوقفك الحق معها، وأنت في أول الأمر قد بعت كل ممكن من الله، فلا ترجع فيما وقع فيه البيع فقد حصل القبض من المشتري، فلا يجوز لك استرداده؛ إلا أن يُنعم عليك المشتري بذلك، وله حال خاص.

فإن العاقل ينبغي أن يفرق من الله بين ما يعرضه عليك، وبين ما يعطيك، فإنه إذا أعطاك أمرك، فوجب عليك بالأدب امتثال أمر سيدك، وإذا عرض عليك خيرك، والخير أبدًا إذا قيل ما خير فيه، فإنه يقبله بهوى نفسه، وما دخله الهوى فقد هوى، ولكن مع هذا انظر ما يكلمك به في تلك الصورة، فإن كلمك مما لك فيه ترق وزيادة علم؛ فاسمع منه كما تسمع من الناصح، كما تسمع من هذا الشيخ الذي أوصاك ونصحك، فإن الحق نطق بلسانه عندك، وإن لم يقتض ما خاطبك به زيادة علم ولا فائدة، بل كان خطاب فتنة، فانظر فيما بشرك به، وزنه مع حالك الذي أنتج لك الخطاب المعين، فإن طلبه الحال منك، فاسمعه واقبله بحكم الوكالة لذلك لا لعينك، وخذ ذلك بشرى من الله U، واجهد عليها فإنها من أكبر النعم، ولا سيما إن تعلق ذلك بالمال، وإن رأيت حالك لا ينتج ذلك الخطاب المعين، فاعلم أن ذلك فتنة، فاحذر من الفتنة فإنها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اختبار من الحق، هل تغتر بذلك أم لا؟ وهل تنسى ما أنت عليه لو تذكره، وهذا معنى قول موسى u : ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾ أي: تحير فيها من تشاء ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ إلى العلم بذلك حتى يتبين لك أنه الحق، ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: ناصرنا على ما فتنتنا به، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾[الأعراف: ١٥٥]، أي: استر من أجلنا ما يجيرنا من فتنتك ويضلنا.

واعلم أن أصل الاختبار الإلهي والفتنة؛ إنما هو الدعوى، فمن لا دعوى له لم يطلبه الله بإقامة دليل على صدق دعواه، أي مدع كان، لا أخصص صاحب دعوى من غيره، فاعلم ذلك حتى عن الشخص إن ادعى أنه لم يدع، أُختبر وفُتن في ذلك، فإنه ادعى تنزيه نفسه عن الأدمي كمثبت النفي، يقال له: أقم البينة والأدلة على إثباتك هذا النفي لا على النفي، فإن النافي لا يطلب الدليل على ؛ إلا إذا أثبت النفي، فإن الدليل يطلب الإثبات لا النفي، فما ثم إلا مدع، وما ثم إلا مفتون، فإما صادق، وإما ليس بصادق، فالصادق في دعواه الله@ على الإطلاق، والمخلوق قد يصدق في دعواه وقد لا يصدق، فكل مدع بالله فهو صادق الدعوى، وكل مدع بنفسه لا يخلو؛ إما أن يدعي في حال ذوقه أنه على الصورة الإلهية، خُلقه الصدق في كل ما يدعيه في هذه الحالة، وإما ألا يكون ذوقه ذلك، فقد يَصدُق، وقد لا يَصدُق، والفتنة لابد منها، فاطلب نصرة الله في ذلك، كما قررها موسى u واقتضى هذا الاختبار مؤمن التكليف، ولولا التكليف ما وقع اختبار ولا فتنة حيث كان، ولا توكيل ملك ولا ملازمة قرين شيطاني، ولكان الأمر من الله إلى عبده، ومن العبد إلى ربه، كما يكون في الجنة والنار.

ثم إنه حذرك من العوائق التي تعرض لك في طريقك، وقد تقدم لك شرح العوائق والعلائق، التي تحول بينك وبين سعادتك، وهي كثيرة لا تحصى، فلا يقطعك شيء من ذلك غير محبوبك الذي هو مطلوب لك،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن أنبهك على شيء أغفله هذا الشيخ في وصيته، حيث لم يكن ذوقه، فإن القوم من صدقهم لا ينطقون؛ إلا بما هو ذوق لهم.

فاعلم أن لله تعالى وجهًا خاصًا في كل عائقة وعلاقة، فلا تبرح من تلك العائقة والعلاقة، حتى تشهد وجه الحق فيها، فتكون تلك العلاقة والعائقة طريقًا موصلاً إلى معرفة ذلك الوجه الخاص الذي @الله فيها، فإنه بذلك الوجه يحفظ عليها وجودها، وبذلك الوجه أوجدها، ومن تحقق توجه الحق في الأشياء كلها العارضة له، لم يتمكن أن يكون في حقه شيء حجابًا أصلاً، فإنك تعلم بعلم كلي، أنه لا يخرج شيء عنه تعالى، ولا يخرج هو عن شيء، ولكن الفائدة الحاصلة لأهل الله في علم ذلك من كل شيء على التفصيل، ولا يكون ذلك إلا عن شهود وتجلٍ، بخلاف العلم بالكل، فهذه نصيحة متممة مني إليك، اقتضاها هذا الفصل، فإن هذا الوجه الخاص الذي أظهرناه لم يظهره أحد قبلنا، وإن كان يعلم؛ ففزنا بإظهاره لأهل الله تعالى نصيحة لهم.

ثم قال رحمه الله: (واعلم يا ولدي هذا قول علي المتوهم، ليوسف المتحقق، أن الحق يعرض عليك في مواطن مختلفة أمورًا مختلفة، فتخاف في بعض تلك المواطن، وتأمن في بعضها، وتطرب في بعضها، وتحزن في بعضها، وترجو في بعضها، وتظهر على نفسك محبة في بعضها، فلتكن يا ولدي في جميع هذه المواطن بين يدي محبوبك، ولا تلتفت إلى شيء من ذلك، فإن ذلك من قبيل الدنيا التي خرجت أنت قبل ذلك عنها).

اعلم أولاً أن هذا يوسف كل ما ظهر على لسانه من وصية، والمعارف أيضًا مما يعرفه فهو منه لغيره، وإن كان الناطق منه (علي الكردي) شيخه، وكل ما ظهر على لسانه مما لا يعرفه، فهو لسان علي يوصي بذلك يوسف تلميذه، فتارة وتارة، كذا اقتضت الحكمة التي أودعت هذه الأوراق، فإن كان علي قد عرف ذلك، وهو أن يعلم ما ألقاه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشيخ المتوهم عليه، فالإمداد من علي، وإن كان لا يعلم ذلك على التعيين فهو من صدق يوسف في علي، وذلك الصدق هو الذي أنشأ صورة هذا الشيخ في خياله، وإن علم بذلك علي فتكون همة علي هي التي أنشأت مثالها في خيال يوسف، ولما قال لي يوسف: ما كان الشيخ علي في كل ما ذكرناه مشافهي بلسان في ظاهري، علمت أن ذلك كله من مثال الشيخ المخلوق من همة علي إن كان عالمًا، أو من صدق يوسف إن كان لا علم لعلي بذلك، فأول ما قال فيما يعرض عليه في المواطن المختلفة، من الأمور المختلفة ما يخوفه، فيخاف منه، فاعلم أن الأمر الذي يوجب الخوف هو على أقسام تنحصر في قسمين: في علم، وفي عدم علم بما هو الأمر عليه.

فأما قسم عدم العلم، فهو خوف الإنسان على نفسه من رجوعها إلى العدم بعد وجودها، وصورة الجهل في ذلك، أن الوجود إذا كان في نفس الأمر قد ثبت لهذا الخائف في وجود الحق، فمن المحال رجوعه إلى العدم المحض شرعًا وعقلاً، فالشرع معلوم في ذلك، والعقل يقتضي بأن العدم المحض للمحال لا للممكن، وهذا ممكن، فالعدم المحض عليه محال، ولاسيما وقد اتصف بالوجود والترجيح، وقد رأينا من المنتمين إلى الله من يخاف ذلك، وهو أبو العباس الحرار[1] من الصادقين، كان إمام المسجد بزقاق القناديل من مصر – رحمه الله – وإن كان الوجود للحق لا للعبد في عين ثابتة؛ لهذا المخبر عنه بالعالم بحكم ما تقتضيه حقيقة تلك العين في وجود الحق، فما وجد قط حتى يخاف من العدم، فهذا معنى قولنا: إن كان الوجود في نفس الأمر قد ثبت له، فهذا موجب الخوف لهذه الصورة على عدم العلم.

---

(١) أبو العباس الحرار بمهملات المغربي الأشبيلي. الكواكب الدرية رقم (٤٦٦) تكملة رسالة صفي الدين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما خوفه على علم فهو أنه يرى أن من أحوال عينه في ثبوتها، وحصول هذا الحكم لها الذي هو الخوف في الصورة التي نظر فيها، فلابد من الخوف في هذا الموطن بخصوص هذا الحكم، والذي لابد منه إما لهذه العين إن وجدت، وإما للصورة التي يظهر فيها بحسب علمه في ذلك، وكل ذلك علم محقق، فإن الحق ما يتميز عن الخلق؛ إلا بحمل النقيضين عليه، ويقبل ذلك الحمل بحقيقته، وليس ذلك لمخلوق؛ إلا بالنسبة إلى وجه ما، لا من عين واحدة، وهو للحق من عين واحدة، فهو الأول من حيث ما هو آخر، من حيث كذا، فمن علم أولية الحق وآخريته، بمثل هذه النسبة؛ فما علم سوى العالم من حيث ما هو عالم، لا من حيث أن الحق عينه، وهذا المَدَرك عسير جدًا فتحققه، واعمل عليه، أي: على هذا التفصيل جميع ما قيده به في كل موطن، من طرب وحزن، وقبض وبسط، وأمن ورجاء، وأمثال هذا، وأما إذا ظهر على قلبك محبة في بعض المواطن، فجعل الظهور لها على قلبك، فأنت مغلوب فيها فما ظهرت حتى ظهرت على قلبك، وهو عدم كتمان الحب لحبه لعظيم سلطان المحبة، كما قال بعضهم من العشاق الأدباء شعر:

مَن كانَ يَزعُمُ أن سَيَكتُمُ حُبَّهُ ... أو يَستَطيعُ السَترُ فَهوَ كَذوبُ

الحُبُّ أغلَبُ لِلرجالِ بقَهرِهِ ... (١)

وَإذا بَدا سِرُّ اللَبيبِ فَإنَّهُ ... مِن أن يُرى لِلسِرِّ فيهِ نَصيبُ

إنّي لَأحسُدُ ذا هَوىً مُستَحفِظاً ... لَم يَبدُ إلّا وَالفَتى مَغلوبُ

لَم تَتَّهِمهُ أعيُنٌ وَقُلوبُ

(١) من بحر الكامل لأبي العَتاهِيَة ١٣٠ - ٢١١ هـ / ٧٤٧ - ٨٢٦ م إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي، أبو إسحاق. من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما. كان يجيد القول في الزهد والمديح. ولد ونشأ قرب الكوفة، وسكن بغداد. كان في بدء أمره يبيع الجرار ثم اتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم. توفي في بغداد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما الذي لا يظهر الحب على قلبه؛ فهو بحكمه إن شاء ظهر به، وإن شاء أخفاه لقوته عليه، وفيه يقول شعر:

بـــاحَ مجنـــونُ عـــامرٍ بهـــواهُ وكَتمت الهَوى فمتّ بوَجـــدي
فإذا كانَ فـــي القيامـــةِ نـــودي مَن قتيلُ الهَوى تَقدّمت وَحدي (١)

وإنما قال: إنه قتيل الهوى، لكونه كتمه، فلم يعلـــم أحـــد بحبـــه ووجده، فلم يكن له ولي ينصره على قوة سلطان حبه، فانفرد به وخلا به، فقتله، وذلك هو القتل، ولكن لا يكون سلطان الحب حتى يظهر على قلب المحبوب، فمتى لم يظهر فسلطانه ضعيف، هذا هو الصحيح الـــذي يرجع إليه، فإن الأحوال لا يحكم إلا سلطانها، فمتى لم تحكـــم فليـــست بأحوال حقيقة لمن قامت به، وإنما ذلك حديث نفس لا حـــال، كـــألوان قوس قزح هي ألوان في عين الناظر، وما في الجو لون منهـــا، الـــذي يراه الناظر أنها فيه، والحال الصحيح كاللون في نفس المتلون، وصُفرة الوجه، وحُمرة الخجل، فهي في عين الأحمر والأصـــفر، لا فـــي عـــين الناظر، فهكذا صورة الأحوال التي الحب منها، إذا صحت أظهرت حكمها على قلب المحب، فظهر سلطانها فيه، وإذا كان حديث نفسٍ لم يكن لها قوة سلطان، فهي أحوال حديث نفس لا غير، فتأمل ما قلناه فـــي كـــلام هذا الشيخ في هذا الفصل تعثر على علم شريف.

ثم قال: (فالحذر في نوال هذا الغرض، عليك من القلق والـــضجر الاختياري) يقول وعظك معك، فإن أخذت عنك بتغير مزاجك فذلك لمـــن

---

(١) من بحر الخفيف لأبي بكر الشبلي (ففزت) ٢٤٧ - ٣٣٤ هـــ / ٨٦١ - ٩٤٦ م.وقد تقدم التعريف به.
ليلى العامرية ؟ - ٦٨ هـــ / ؟ - ٦٨٨ م ليلى بنت مهدي بن سعد، أم مالك العامرية من بني كعب من ربيعة. صاحبة (المجنون) قيس بن الملوح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخذك ليس لك وإنما يقلق ويضجر من قيد مطلوبه خارجًا عن كل ما عرض عليه، وإن علمه في عين كل ما عرض عليه؛ فلا قلق ولا ضجر، فليطلبه في عين ما ظهر، فإنه يناديه منه من قريب غير بعيد.

وأما قوله: (وإذا صح عزمك مع حبيبك رفع المشاركة، أذهب الله عن قلبك ما سواه).

قالت الطائفة - بلا خلاف - أصحاب الذوق: أن العبد إذا صدق في ترك شهوة من أجل الله، ذهب الله بها من قلبه.

وما أحسن هذا التحرير منهم y فإن تلك الشهوة أو ذلك الشيء، لابد أن يكون فيه وجه للحق، فإذا صدق المريد أو صح عزمه في ترك شيء من أجل الله تعالى، فما كان ذلك منه؛ إلا لحجابه عن ذلك الوجه الإلهي الذي لذلك الشيء، إذ لو رآه ما صدق في تركه، بل كان يلزمه من أجل ذلك الوجه الإلهي، فإنه إذا صدق في تركه من أجل الله تعالى، ففاته خير ذلك الوجه الإلهي الذي خص به ذلك الشيء، فذهب الله بذلك الشيء من قلبه، كذا قال المحققون، فأضاف الذهاب إلى الله مع ذلك الشيء، يريد ذهاب ذلك الوجه الحق بذهاب الشيء، فقالوا: إنه ذهب الله، وقال هذا الشيخ: (أذهب الله ما سواه عن قلبه)، وكثير بين العبادتين، وكل عبادة معنى في الوجوه الإلهي، الذي في كل من لا ينفك عنه، لأنه حافظه وعنه صدر، ومن المحال ألا تكون عين الله تصحب كل شيء، مما يقال فيه: أنه سوى الحق وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يريد كل ما سواه ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وكل ما سوى الله نفس، وذات عين وحقيقة، حتى ما كسبته، فما كسبت إلا نفسها، فيتخيل من لا علم له بالطريق، أن الله تعالى لما ذهب بتلك الشهوة من قلب ذلك الصادق في تركها من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أجل الله، أن ذلك ثناء ومدح وعناية بهذا الصادق، كلا والله، بل ذاك هو الخسران المبين، وإنما ذلك ثمرة الصدق في الترك.

وقد يكون الصدق محمودًا، وقد يكون مذمومًا، فإن الكافر قد صدق في إيمانه بالباطل وكفره بالله، فذهب الله بنور الإيمان بالله من قلبه، كما ذهب بالإيمان بالباطل من قلب المسلم، فالإيمان بالباطل أنه باطل حق صحيح، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، ما متعلقه، فإن الإيمان هو التصديق، فقد يكون متعلقه التصديق بالباطل، فصدق في الإيمان بالباطل، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وقد يكون متعلقه الإيمان الذى هو التصديق بالله وهو الصدق، فإن الله يقول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فقد أطلق على الشخصين اسم الإيمان، فلذلك يسأل الصادق عن صدقه، فيماذا صدق؟ فإذا صدق في ترك شهوة أو شيء من أجل الله، يقول وجه الله الحافظ لذلك الشيء، ما علمت أنك إذا ذهبت في شيء لا أبرح معه، إنك قد زهدت في تزهدك فيه، وأي جهل وتوبيخ أعظم من هذا؟.

فقال هذا الشيخ: (أذهب الله)، وقال الطائفة: (ذهب الله بها عن قلبه)، فإما أن يكون هذا الشيخ قد علم ذلك، وراعى حجاب المريد التارك في صدق الترك، فإن الصادق في ذلك ما عنده خبر بهذا الوجه الذي لله في ذلك المتروك، وإما أن يكون ما علم ذلك وهو الأقرب، ولاسيما، وقد قال: (أذهب الله عن قلبه ما سواه مطلقًا) من غير تخصيص عين، فقف عند هذه الإشارة، ولا تغب عن النظر في الأمور بعين ما تستحقه، فتعطي لكل حق حقه، وما ثم إلا من له حق، كما أن الله أعطاه ذلك في قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [طه: ٥٠]، وذلك حقه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله: (واصطفاك وشغلك به عمن سواك) عقيب هذا الإذهاب أراد قول الله لموسى u : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، فذلك اختصاص تقريب إلهي في قضية عين، فأضاف نفس من وجهه إليه تعالى حيث وجهه إليه، ولذلك أمره باللين في القول، وعلق الرجاء بإجابته عند الذكرى، لمن كان فيه من الحجاب بالعزة الإلهية التي اقتضت المرتبة التي كان فيها، وهي المُلك إذ كان المُلك لله الواحد القهار، فإذا تذكر ذلك رجع إليه ولو بعد حين، وكذا كان نفعته الذكرى فتذكر عند الفرق، فخشي الفوت، فاستعجل بها مقيدة بإيمان بني إسرائيل، فانتقل من نسب القبط إلى نسب الاسرائيلين في الإيمان ليرفع الاشكال والاحتمال، ولذلك قال الله له: ﴿آلآنَ﴾ فكلمه، فصح له من موسى وراثة الكلام، إذا كان الله تعالى قد كلم موسى تكليمًا، حين قربه نجيًا، فقال الله U لفرعون، ولم يذكر الواسطة ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ فما ذكر أنه عاصٍ في الحال، ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، فيما مضى.

وأما قوله: (وشغلك به عمن سواه) وإن كان تم هذا إن كان عارفًا بالأمر على ما هو عليه، فإن الله تعالى لا يظهر إلا في الأشياء، فلو لم يكن ثم شيء ما ظهر للحق عين لشيء، فلابد من الأشياء. شعر:

فبنا الحق يظهر وبه نحن نظهر ... فلذا نحن نشكر ولذا نحن نكفر
باختلاف محققه فاعلموا ذاك ... فإذا ما شهدتم عين ما قلته
وانظروا ... اسـتروا
إن لله غيرة فاحذروا أن ... وإذا ما وليتم يسروا ولا
تنفروا ... تعسروا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله بعد وصيته: بالشكر لله على هذه النعمة يعني شغله بالله عما سواه لا يقوم بها شيء من المخلوقات، فقال: (لأن المخلوقات لها نهاية، وهذه النعمة لا نهاية لها) فإنما يعني أنها مستمرة، وإنما جعل النهاية في المخلوقات؛ لأنه كلما دخل في الوجود من المخلوقات فقد تناهى؛ لأنه محال أن يدخل في الوجود ما لا يتناهى، فإن لم يرد ما ذكرناه فما عنده خبر مما هو الأمر عليه، فإما عن غفلة، وإما عن جهل، والصحيح أنه عن غفلة، فإن الإنسان من نفسه لا يعلم الأشياء كلها التي يستفيدها مما يقال فيه، قبل استقامته إياها أنه غير عالم بها؛ لأن النفس بالأصالة غير كدرة ولا ضدية، فالمعلومات منقوشة فيها انتقاش الصورة في المرآة الثقيلة، وإن لم تشعر المرآة بذلك ولا تدرك لناظر فيها؛ إلا بعض ما انتقش أو انطبع فيها، فلهذا تتصف بأنه فرد أو علمًا، لأنه ليس في قوة الناظر كشف جميع ما تقبله مرآة نفسه، فالشيء فيه منطبع ولا يُعرف؛ إلا عند نظره فيها؛ إلا ما يصح أن يعلم لا غير.

وأما قول من يقول: إن النفس إذا صفت انتقش فيها صور الملكوت. فكلام غير محرر، فإذا قال: إذا صفت وهي لم تزل صافية، فلو حرر، وقال: إذا نظرت في مرآة نفسك رأيت ما انطبع فيها من صور العالم الملكوتي الظاهرة، لكان غاية التحرير.

وأما قوله في دعائه في الشكر: (فله الحمد على الحمد، على ما عليه الحمد، وله الشكر على الشكر، على ما عليه الشكر) فكلام محقق، وهو المسمى حمد الحمد، وشكر الشكر، الذي قال فيه العارف في خطبة كتابه: الحمد لله حمدًا يوافي هو نفسه، فضمير (هو) عائد على الحمد لا على الله، وذلك إذ صدق المحامد وأرفعها عن التهمة حمد الحمد، فإن حمد الحمد لا يكون؛ إلا بقيام الصفات المحمودة بالمحمود، وحمد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشيء نفسه دعوى، حمد غيره إياه دعوى، يحتاج كل حمد من هذين إلى دليل صدق، وحمد الحمد ليس كذلك، فلذلك قال: (ما عليه الحمد)، وكذلك الشكر سواء غير أنه ذكر الحمد والشكر للفرقان بينهما، فإن الحمد يعم والشكر يخص، فالحمد للمحمود بما هو عليه وبما يكون منه، والشكر للمشكور بما يكون منه خاصة، ولذلك يطلب الشكر المزيد مما شكر عليه، والحمد لا يطلب المزيد مما حمد عليه؛ إلا إذا قرن بالشكر فليطلب زيادة ما يحمده به، فهو قوله آمرًا نبيه عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]، يعني بك حتى أحمدك بما أعلمتنيه من محامدك؛ لا بجميع محامدك، لأنه لا جمع لها، فإن الأمر في نفسه غير متناهٍ.

وأما قوله: (فإن كل شيء فمنه وإليه) فذلك قول الطائفة: السفر فيه إذا ما تم سواه، وهذا الربط أفادنا في قوله المتقدم: (شغله عمن سواه) إذا كان تم فهو أمر مفرود لا تحقق الوقوع.

وأما قوله: (بالمحافظة على الاستغفار من الذنوب) فاعلم أن الاستغفار من الغفر وهو الستر، فإذا قال العارف بالاستغفار من الذنوب، فإنما يطلب من الله العصمة بأن يستره من الذنوب أن تقوم به، لا يريد الستر من العقوبة على الذنب، فيقول العالِم: اغفر لنا ذنوبنا أي: استرها من أجلنا حتى لا ترانا، فتلحق بنا فتقوم بنا فنكون مذنبين، والعامة تقول: بالغفران من ذلك، تريد أن يسترها الله من عقوبة الذنب الذي هو الجزاء، فتطلب من الله أن تحذروا ذلك فلا يجازيها بما تطلبه الذنوب من العقوبة والجزاء، ومن علم أن جزاء الذنب قد يكون ما يسر كالعفو، وما يسوء كالانتقام فكلاهما جزاء الذنب، فليس أحدهما بأولى من الآخر في الجزاء؛ إلا أن يتقوى أحدهما بأمر آخر، مثل سبق الرحمة الغضب، فيتقوى جزاء العفو على الانتقام فافهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والوجه الأول هو الذي جاء به نص القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]، أي: استرنا عنها حتى لا تصيبنا فنذنب، وهو الأليق بالاستغفار.

ثم أمرك أن تكون تحت هذه النعمة ذليلاً، فقال: (لأن العزة لا تنال إلا بالذلة) يريد ذليلاً بعبادة الشكر عليها فأتت العبادة الذلة، والعبادة النعمة، والذلة نعمة وهي حقيقتك فإنك ذليل بالأصالة بعزة الله، فإذا أعزك فإنما يعزك عند أبناء جنسك لا عنده، فلا تزال ذليلاً عنده عزيزًا عند غيره، فتجمع بين الذلة والعزة، ولكن بقى لك كيف تكون أنت عند نفسك، هل يغلب عليك شهود العز فيغلب عليك العزة بالله؟ أو هل يغلب عليك شهود الحق فيغلب عليك الذل تحت عز الله؟ فأنت بحسب وجودك، وإما ألا تكون لا عزيزًا ولا ذليلاً إذا كان شهودك كونه عينك وعين كل شهود، فهو وجود معرى عن العزة والذلة؛ لأنه ما ثم لمن ولا على من، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فحظ العبد من هذه الآية في التحقق بها أن يقام في هذا المقام.

وهو قول أبي يزيد – رحمه الله تعالى – ومقامه حين قيل له: كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة، وأنا لا صفة لي.

فنفى عن نفسه الصفات والفناء، لا شك أنه صفة تنزيه وهذا لا يكون، أعني: التقييد بالصباح والمساء؛ إلا للاسم الدهر، فقد شهد لنفسه أنه لا حظ له في الاسم الدهر، والمحقق لابد له أن يكون له في كل اسم إلهي نصيب كما هو الأمر في نفسه، فكل ناطق بسُكر الحال لا يتعدى حاله، وكل ناطق بصحو يضع الحكم موضعها، ألا ترى أنه t قد غاب عن قيد صور تركيبه المقيدة بالصباح والمساء، فقد فاته من شهود نفسه ما يطلب من هذا التقييد، ففاته شهود الحق في الاسم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدهر، فيخاف على من هذا مقامه أن يسب الدهر في وقت، وقد نهى الله عن سبه لكونه تعالى هو عين الدهر، فهو عين الصباح والمساء، كما هو عين كل شيء، ورب كل شيء ومليكه.

ثم أمرك أن يكون شكرك على قدر ما أنعم به عليك، هذه كلمة عارف أو موافق، فإن الشكر على قدر النعمة يحصل فإنه مقابلة مخلوق لمخلوق، فنفى بذلك ولم يقل على قدر المُنْعِم فإن ذلك لا يصح ولو شكرته به، فإنه إذا شكر نفسه بك، وكان بنفسه هوية لسانك في شكره، فإنه لا يتمكن أن يفي بشكر المنعم أو قدره في نفسه، من حيث شكره نفسه مجردًا عنك، فإن ذلك الشكر أصلاً لا يقال فيه أتم، فإن تمام الشكر وكماله؛ أن يكون من الشاكر بالمقامين وبالصورتين، الصورة الواحدة بتقييده بك، والثانية بتجريده عنك في نفس تقييده بك، ولذلك أثبتك حين نفاك، فقال: ﴿مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ ، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧].

ثم قال: (واعلم أنه إذا خلع عليك خلعة المحبة والشوق، والرضا والقبول، فقم في مقام الشكر له على ذلك) يقول: شكر المحبين فيريد بشكره على ذلك حبًا فيه، فإنه ضمن الزيادة بالشكر عليه، فقال: شعر:

خِلع الشوق والرضا والقبول ... ما لها من تعمل من سبيل
وعليه يقوم برهان كوني ... في عياني وحجتي ودليلي
فخذ الحق من عليم حكيم ... ليس فيه من أهل قال وقيل
فهو الحق لا سواه فاتبعه ... تكن بظل وظليل
إن عبد العزيز ليس ... من كان في نفسه بذل
سوى ... ذليل

ألا ترى الحق وصف نفسه بأنه شكور لعبده الطائع العالم العامل تعريضًا؛ لأن يزيده في الطاعة والعمل لكون الشكر يطلب الزيادة مما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يشكر عليه، فكما يشكره ليزيده في نعمه كذلك، وعملك من نعمة العمل لشكرك إياه، فتعمل فيشكرك ليزيدك من العمل ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، والله يحب الشاكرين يريد أن يزال خلاقا، فكلما شكرته زادك نعمة، أي: جعلته بشكرك يخلق لك نعمًا ويوصلها إليك، ثم يشكرك على ذلك لتكثر سؤالك إياه في مزيد نعم العمل في موطن التكليف، فما أحبك إلا لنفسه، وإن أنجز مع ذلك أنه أحب لك، فالأول يقتضيه العلم الصحيح، والثاني يقتضيه الأدب، ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فكل مجتهد مصيب.

ثم قال: (واعلم يا حبيبي أنه إذا تخلعت بهذه الخِلع، وطلعت لك على يد شيخك، فاعرف قدر هذا وقدر ما فوضه الله إلى شيخك من ذلك).

قيل لشيخ الشيوخ عبد القادر الجيلاني t [١] ببغداد، وكان متحكمًا ظاهرًا بالتحكم: أن محمد بن قائد الأواني[٢] - وكان معربد الحضرة

---

(١) سيدنا ومولانا الشيخ عبد القادر بن أبي صالح عبد الله جنكادوست الجيلاني الحنبلي – قدس سره- ينتهي نسبه إلى سيدنا ومولانا الحسن بن علي بن أبي طالب y، ولد ببغداد سنة سبعين وأربعمائة، ونشأ بها حتى شب فسلك طريق القوم، وأقام أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء.

مات t سنة نيف وستين وخمسمائة ببغداد. وقال عنه الشيخ الأكبر t في الفتوحات: وكان يقول: قدمي على رقبة كل ولي من باب التحدث بالنعمة. ولقد أفرده الكثير من العلماء بمؤلفات خاصة في مناقبه وسيرته t منها: "خلاصة المفاخر" للشيخ اليافعي[ط. دار الآثار الإسلامية بالقاهرة]، و"بهجة الأسرار ومعدن الأنوار" للشطنوفي (ط)، و"قلائد الجواهر" للتاذفي (ط)، و"الطراز المذهب" للآلوسي (ط)، و"السيف الرباني" لابن عزوز (ط)، و"الروض الزاهر" لبرهان الدين القادري (ط).

قلت: وقد أثبت نسبه كاملاً العلامة محمد بن مكي عزور في كتاب أسماه (السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني)، كان سبب تأليفه أن بعض الجهلة شك في نسب الشيخ عبد القادر ومدى صحة نسبته للسيد الأعظم ؛ فأقام المصنف – جزاه الله خيرًا – بذكر تلك النسبة وإثبات صحتها من خلال أدلة ساطعة، ونقول من كتب التاريخ بما لا يدع مجالًا للشك في صحة تلك النسبة الشريفة، (ط. العلمية مع كتاب فتوح الغيب لسيدي عبد القادر).

(٢) عرف بابن قائد من قرية تسمى آونة من أعمال بغداد وهو من أصحاب الإمام عبد القادر الجيلاني t . وذكر =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لشكره – قال: مشيت على طريقي إلى الحق فلم أر فيه قدمًا لغيري؛ إلا قدم واحد تقدمني فغِرتُ، فقيل لي: هي قدم نبيك، فسكن جأشي، فلما قربت وُضِعت لي منصة، فاستويت عليها، وخرجت إلىّ الخِلع الإلهية فخُلعت عليّ، فقال الشيخ عبد القادر t : مسكين ابن قائد، حضرت ذلك المجلس، ومن عندي خرجت له النوالة – يعني تلك الخِلع – فقيل له: أين كنت في ذلك الوقت فإنه ما شاهدك؟ فقال: في المخدع، ثم ذكر صورة الخِلع، فعرفها ابن قائد، قال: صدق الشيخ عبد القادر.

فهذا معنى قوله: (أن الخلع طلعت على يدي الشيخ) فكان ما حصل لابن قائد من ذلك بتربية الشيخ عبد القادر – رضي الله تعالى عنه – من حيث لا يشعر، فإن الولي قد يرى بهمته من التخيل أنه مفرد بنفسه وهو لا يشعر بذلك، ومسألة ابن قائد من ذلك القبيل، والقدم التي رآها هي قدم الشيخ عبد القادر، فإنه الرسول إليه وهو نبيه من حيث لا يشعر، فإنه ما ولد إلا شرع الرسول، ولذلك قيل لابن قائد: إنه قدم نبيك، فسكت بذلك عن عربدته، ولهذا قال الشيخ عبد القادر t : أنه في المخدع، كما قال الله تعالى في الذين يخادعون الله والذين آمنوا: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ مَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، فليس المخدع سوى ما قيل له في القدم أنها قدم نبيك، فهذه الإضافة والتعريف عين المخدع، فإنه لما وصل وخلع عليه ما رأى صورة النبي □ في تلك الحضرة، فلو تقدمه لوجده بها، فما رأى إلا القدم وما رأى للعين أثرًا.

=

الشيخ اليافعي في خلاصة المفاخر ص(١٥٨) : جاءوا – جماعة من المشايخ - عند شيخنا محيي الدين عبد القادر t بمدرسته، فقال: ليطلب كل واحدٍ منكم حاجته أعطيها له. فقال الشيخ أبو السعود: أريد ترك الاختيار. وقال الشيخ ابن قائد: أريد القوة على المجاهدة.[انظر ترجمته الكواكب الدرية رقم (٤٤٢)]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا حال الشيوخ، وإنما لم تر عينًا سواك في الوصول، وما رأى أي القدم إلا في الطريق، فإن الأمر في نفسه كما قلنا: لكل شخص من الله تجلٍ يخصه فلا يرى في حضرته غيره، فينفرد بها.

فالعالم يعلم ذلك ومن لا علم له كابن قائد يرى ذلك تشريفًا في حقه، أعني: انفراده بالحق، وما علم أن كل أحد بهذه المثابة، فهذا مقام لا يقع فيه تفاضل، وإنما التفاضل في نفس الخلع كما أن الرسل يجمعهم مقام الرسالة لا فضل بينهم، ثم يتفاضلون فيما يُرسلون به وإليه، وما يكون من الحق لهم في رسالتهم.

ثم قال: (ثم كن إذا بلغت هذا المبلغ على ثقة أنك تملك قلوب العباد بأسرها، فمن أردت أن تأخذه إليك في الحال قدرت عليه، فتحفظ من ذلك ما استطعت، وكن حافظًا لنفسك من هذه الحالة تتسلط على قلوب العباد).

أما قوله: أنه يملك قلوب العباد، يريد أنه أعطي التصرف في العالم، وأصحاب هذه المقام ينقسمون فيه على قسمين: فمنهم طائفة تتصرف وهم الذين ينفقون مما جُعلوا مستخلفين فيه، فيولي ويعزل، ويؤتي وينزع، ويحيي ويميت، ويعمل ما يشاء، فإن مشيئته من مشيئة الحق ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني شيخ الشيوخ ببغداد - رضي الله تعالى عنه - وأبي العباس السبتي [١]، غير أن الشيخ عبد القادر كان تصرفه بالمقام،

---

(١) ابن أمير المؤمنين هارون الرشيد-كذا ذكره ابن عربي-: كان وحيد زمانه، وقطب أوانه، ترك الرياسة وعدّها نجاسة حتى بلغ الإرب، ورقى إلى أعلى الرتب.

قال ابن عربي: كان يصوم ستة أيام من كل جمعة، ويشتغل بالعبادة فيها، فإذا كان يوم السبت احترف فيما يأكله بقية الأسبوع؛ ولهذا سمي السبتي. ولقيته بالطواف يوم الجمعة بعد الصلاة وأنا أطوف فلم أعرفه، غير أني أنكرته وأنكرت حالته في الطواف فإني ما رأيته يزاحِم ولا يزاحَم، ويخترق الرجلين المتلاصقين ولا يفصل بينهما، فعلمت أنه =

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان تصرف السبتي بالميزان، وكان يتصرف على طريق خاص لو خل به بطل، بخلاف الشيخ عبد القادر.

وكان أبو السعود بن الشبلي [1] ببغداد قد أعطي هذا المقام، فلما مُكن منه لم يظهر به، وكان من الطائفة الأخرى وهي التي ردت ذلك إلى الله عن آمره بحكم الوكالة، فاتخذت الله وكيلاً في التصرف، فإن تصرفت يومًا ما في شيء عن أمر إلهي، فمن مقام الوكالة لا من المقام الأصلي؛ لأنها قد خرجت عنه أدبًا وتظرفا فإن أمرها الوكيل يومًا ما، لاقتضاء مصلحة ما أن تتصرف فيه بنفسه، فعل من أمر وكيله

=

روح وتجسّد، فمسكته وسلمت عليه، فردّ السلام وماشيته، ووقع بيني وبينه كلام ومفاوضة، فكان منها أني قلت له: لم خصصت يوم السبت بعمل الحرفة؟ فقال: لأنه تعالى ابتدأ خلقنا يوم الأحد، وانتهى الفراغ منه يوم الجمعة، فجعلت تلك الأيام عبادة لله تعالى لا أشتغل فيها بما فيه حظ نفسي، فإذا كان يوم السبت انفردت لحظ نفسي، فاحترفت بما أتقوت به تلك الأيام، فإنه تعالى نظر إلى ما خلق في يوم السبت، وقال له: أنا الملك، لظهور الملك؛ ولهذا سمي يوم السبت، والسبت راحة، ولهذا أخبر تعالى أنه ما مسه من لغوب فيما خلقه، واللغوب الإعياء، فهي راحة لا عن تعب، كما هي في حقنا. فعجبت من فطنته فسألته: من كان قطب الزمان في وقتك؟ فقال: إنه هو، ثم وادعني وانصرف. انظر ترجمته الكواكب الدرية رقم (٣٠٥).

(١) أبو السعود بن شبل البغدادي العارف الأفخم والصوفي الأعظم، أجل أتباع الشيخ العارف بالله عبد القادر الجيلاني t الذي قال في حقه - سيدنا المصنف - t : إنه أعلى مقامًا من شيخه، وقال في موضع آخر من الفتوحات: كان إمام وقته في الطريق. ومن كلامه: لله قوم يتكلمون على الخاطر وما هم مع الخاطر، يعني يجرى الله على لسان أحدهم ما هو الخاطر عليه من الحال فيقول من سمعه: قد تكلم الشيخ على خاطره، والشيخ ليس معه حتى لو قيل له: ما في ضمير هذا الشخص لا يعرفه.

وقال: لا يتكبر أحد على إبليس إلا كان أسوأ حالاً منه، ولولا علو مرتبته في العلم وعزيمته في الفعل ما خوف الله منه أحدًا. انظر ترجمته جامع الكرامات (١/٢٧٤)، الكواكب الدرية رقم (٤٠٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى، ويقتصر على ذلك الذي عُين له، ولكن من حكم مقام حكم الوكيل على موكله، وهو مقام عزيز لا يقدر عليه كل أحد، فكان ابن قائد الأواني قد أعطي التصرف على ما ادعاه في نفسه، ولكن ما شهد له به أبو السعود، فإنه كان أعدل منه مع صدق ابن القائد في الطريق، ولكن ما أعطي التصرف عامًا فتخيل أنه أعطي عامًا؛ لأنه كشف له عن عالمه الذي هو مضاد للعالم الكبير، فتخيل أنه ذلك العالم الكبير، فصدق في دعواه وما صدق، حيث جهل أنه عالمه، فلذلك ما شهد له أبو السعود؛ لعلمه بالشبهة التي طرأت عليه لسُكره، وصحو أبي السعود.

ولم يكن في زمان أبي السعود من هو أتم في العقل منه، وذلك أنه علم أن الحق لا يتصرف في العالم؛ إلا بما أعطاه العالم من نفسه من حيث ما هو معلوم، ولذلك يعجل في وقت يدعى فيه، ويؤخر في وقت، ويعوض في وقت، ويمنع في وقت، فإنه لا يبدل القول لديه.

وقوله: (علمه وعمله بحسب ما تعلق به) فإنه عَلِم المعلومات على ما هي عليه في نفسها، فلما رأى أبو السعود الأمر على ما هو عليه لم ير أن له أثرًا في ذلك يعم ولا للأصل، فرد الأمر إلى الله تعالى، ولذلك قال أنه تركه تظرفًا، وفي ذلك قلنا شعر:

العالم النحرير أحكم له ... بأنه بحكم معلومه
يحكم في المعلوم ... فحكمه من غير
أحكامه ... محكومه

وأما قوله: (فتحفظ من ذلك ما استطعت) يوصيك خوفًا عليك أن تأخذك العزة به فتحجب، فإنه لابد لك عند فراقك الحياة الدنيا، أن تعود إلى الأصل، وتتذلل تحت القهر الإلهي، كما فعل الشيخ عبد القادر الجيلاني بعد ما كان يقول: قدمي هذا على رقبة كل ولي لله، لقطبيته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخلافته، فإن الأولياء الذين هم الأبدال، والأوتاد، والأئمة، والنقباء، ،والنجباء، وأمثالهم كلهم تحت حكمه، وما يخرج عن حكمه؛ إلا الأفراد خاصة، وهم أكبر الأولياء عند الله قدرًا لا يدري القطب ما عندهم، ولا يدرون ما عند القطب لشغلهم بالله، فمتى تصرف واحد منهم في أمر خاص، فيكون ذلك عن أمر الله له في ذلك المعين لحكمة يراها الحق، فيأمره بذلك، ثم يعود إلى مقامه وحاله، كالخضر مع موسى – عليهما السلام – فإنه من المتفردين، ولما انتهى الشيخ عبد القادر t إلى أجله وضع خده بالأرض، وتذلل واعترف بأن كل ما كان فيه؛ إنما كان ذلك بالحال، والصحيح ما رجع إليه هذه شهادته على نفسه، فكانت غاية الشيخ عبد القادر حال أبي السعود، فكان أبو السعود يعلم ذلك، فابتدأ به أولاً، إذ عَلِم أن الرجوع إليه كما قيل: شعر

رَأى الهَمَّ يُفضي إلى آخر		***فَصَيَّرَ آخِرَهُ أوَّلا*** [1]

والرسل الخلفاء – صلوات الله عليهم – لولا ما جبروا على التصريف في أمور خاصة ما تفرقوا، فإنهم من حيث هم رسل ما عليهم إلا البلاغ، ومن حيث أنهم خلفاء تصرفوا فيما حُد لهم، وأعينهم ناظرة إلى الأصل لا يغفلون عنه أبدًا، فإن الله تعالى يقول لأعظمهم قدرًا وأتمهم كشفًا، وتحصيله علم الأولين والآخرين: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) فأين التصريف العام؟ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولا تشاء إلا ما سبق في علمه أن يشاءه، ولا يعلم من الأمر إلا

(١) من البحر المتقارب لمحمود الوراق ؟ - ٢٢٠ هـ / ؟ - ٨٤٠ م محمود بن حسن الوراق أبو الحسن. شاعر عباسي مشهور من شعراء القرنين الثاني والثالث المرموقين من بغداد لذلك علق به لقب البغدادي. وأكثر شعره في المواعظ والحكم وقد اشتهر بلقبين أحدها الوراق والآخر النخاس.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما هو عليه في نفسه، فالله غني عن العالمين بذاته، والعالم من حيث هو غيب على ما هو عليه يدرك في الشهادة على ذلك، فما ثم إلا إدراك به يقع الفصل بين العلماء، فعالم وأعلم، وليس وراء هذا الادراك إذا عم مقام للعالم أتم منه، ولكن هذا مما اختص الله تعالى به في غيبه ما هو لغير الله، ولا يتمكن إلا أنه يظهر له مع الأنات، وذلك الظهور المتوالي عليه هو الذي يزيده الله به علمًا إلى علمه، وإيمانًا إلى إيمانه، ولهذا أمره أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]، فلو شاهده الشهود العام لما قبل الزيادة.

ولما كان الأمر العالم لا نهاية له، ولم يتمكن أن يدخل في الوجود ما لا يتناهى، فمن هذا المقام يقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١]، فنبه على حدوث التعلق من طريق خاص لا على حدوث العلم، فإنه يعلم ما يقع منهم، فلا يعلم أنه وقع حتى يقع، أي: لا يتعلق علمه بوقوع ما لم يقع، لئلا يكون علمًا فاعلم ذلك.

ودل قوله في هذه الوصية بعد أن أمرك بالحفظ لنفسك في هذه الحالة ما استطعت (ألا تتسلط على قلوب العباد إلا بالخير) دليل على أنه لم يكن من أهل هذا المقام الذي نبهنا عليه، ولو كان لما قال هذا، وإن كانت روحانية دمشق تعطي علم مثل هذا، ولكن ما انتهى صاحب هذه الوصية إلى هذا المقام، فإني أدركته ورأيته، وعلمت أن حاله ليس هو هذا، ولو لم أعلمه لعدل في كلامه هذا إلى وجه آخر، يثبت له فيه أنه من أهل هذا المقام عينه، لكن لا يزيد في الشرح إذا عينا مقام المتكلم على حاله شيئًا، فإن زدنا على ذلك نبهنا عليه أن تلك الزيادة ما هي في حال المتكلم، وإنما هي حال المتكلم به، فتكون قوة العبارة التي تلفظ بها هذا الرجل؛ تعطي ذلك مرابيًا على ما اقتضاه حاله، فحاله مما عبر به، دون ما عبر به عنه، وهذا كثير الوقوع قد يكون فهم السامع في العبارة فوق فهم الناطق بها؛ إلا أن يكون عام العلم، فحينئذ لا يغيب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عنه وجه تطلبه تلك العبارة لابد من ذلك، فيبرز من ذلك الشارح لها ما شاء، ويستر ما شاء، وهذا مقام آخر، والفوائد في الشاهد، ويعبر عن ذلك كبار العلماء بتأثير همم النفوس، ويتفاضل الناس فيه.

وأما أمره للمريد بالدعاء لشيخه، فإنه من شكره له، فإنه والد ديني روحاني، والله قد أمرنا أن نشكر لله ولوالدينا، وما خص والدًا من والد، أعني: والد النسب من والد الدين، فإن الله تعالى قد جعل والد الدين أبًا، فقال لأمة محمد ﷺ وهو مبعوث لمن يعود في نسبه إلى إبراهيم، وإلى غير إبراهيم ممن لم يأت على طريق إبراهيم، فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، فجعله أبًا لنا في الدين، والشيخ أبو دين، فتعين علينا أن نشكر لهم، ولا أعظم في الشكر من الدعاء لهم، كما أمرنا الله تعالى بالصلاة على النبي ﷺ مع علمنا برتبته، وطلب منا ﷺ أن نسأل الله تعالى له، فلذلك أمرك هذا الشيخ بالدعاء لشيخك، فإن النبي ﷺ يقول في الصحيح نقلاً وكشفًا: «إن الرجل ينقطع عمله إذا مات إلا من ثلاث: علم يبثه في الناس، أو صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له»[(١)]، فجعل الدعاء من عمله بعد موته، لأن ولده من عمله، وبهذا جاء الخبر الصحيح كشفاً أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل ما أكله الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»[(٢)]، والولد الديني أقرب في رتبة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه بنحوه رقم (١٦٣١) كتاب: الوصية باب: ما يلحق الإنسان بعد وفاته عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»، وأبو داود في سننه رقم (٢٨٨٠) كتاب: الوصايا، باب: ما جاء في الصدقة عن الميت، والترمذي في سننه رقم (١٣٧٦) كتاب: الأحكام عن رسول الله ﷺ باب: في الوقف، والإمام أحمد في مسنده رقم (٨٨٣١) (٢/٣٧٢)، وأبو يعلى في مسنده رقم (٦٤٥٧) (١١/٣٤٣).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة رقم (٤٢٦٠) باب: النفقة ذكر الاخبار عن إباحة أخذ المرء من مال ولده حسب الحاجة اليه أمره، والنسائي في السنن الكبرى رقم (٦٠٤٦) كتاب: البيوع باب: اجتناب الشبهات في الكسب، وابن ماجة في سننه رقم (٢١٣٧) كتاب: التجارات باب: الحث على المكاسب، والإمام أحمد في مسنده رقم (٢٤٠٧٨) (٦/٣١)، والبيهقي في معجمه الأوسط رقم (٤٤٦٨) (٤/٣٨٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القربى من الولد النسبي الصلبي بلا شك، فإن ولد الصلب يرث أباه بدينه في أي دين كان، فما اعتبر الشرع إلا الدين، ولذلك قال: «ما ترك لنا عقيل من دار»[1]، فلو وقع الورث بالصلب دون الدين لورثه علي كما ورثه عقيل، فالجامع بين النسبين أحق بالميراث من المنفرد بالنسب الواحد، ويعرف بإنفراده بالنسب الديني فلا يرث بعد هذا النسب.

وأما أمره لك بالتواضع مع أهلك وعباد الله الصالحين، فالتواضع لا يكون إلا من ذي رفعة، يقول لك: لا تعامل أهلك بالعزة عليهم لكونهم ناظرين إليك معتقدين في نفوسهم أنهم دونك، وكل من أمرك بالتواضع فقد شهد لك بالرفعة عن المقام الذي تنزل إليه، وما أهلك؛ إلا الذين هم أهل طريقك المزاحمون لك في رتبتك، التي أهلهم الله لها، فإن تواضعك لهم لا يكون عن رفعة عليهم، ولكن تواضعك عين اعترافك أنك آخذ منهم ما هم عليه وهم لا يشعرون، فقد زدت عليهم بهذا القدر فترفعت عنهم، فتعين عليك أن تتواضع لهم حتى لا يظهر عندهم افتقارهم إليك، فيجهلون منك ما تعرفه أنت منك، فإن المتواضع إنما يطلب الستر عمن تواضع له، فإن رفعة مقامه من أحكامه التواضع ولو لم يكن من أحكامه ما كان رفيعًا، فإن علم ذلك منك مما علم من الرسول في تواضعه لأصحابه، ومن الملك في تواضعه للسوقة، فإن ذلك يزيد في

---

(١) طرف من الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه رقم (٢٨٩٣) كتاب: الجهاد والسير باب إذا أسلم قوم في دار الحرب ولهم مال وأرضون فهي لهم عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ تَنْزِلُ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟ فَقَالَ: «**وَهَلْ تَرَكَ عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ**»، وَكَانَ عَقِيلٌ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ هُوَ وَطَالِبٌ وَلَمْ يَرِثْهُ جَعْفَرٌ وَلَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شَيْئًا لِأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ وَكَانَ عَقِيلٌ وَطَالِبٌ كَافِرَيْنِ، ومسلم في صحيحه رقم (١٣٥١) كتاب: الحج باب: النزول بمكة للحاج وتوريث دورها، والحاكم في المستدرك رقم (٤١٧٨) ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين، وقد احتج الشيخان بهذا الحديث، وابن ماجة في سننه رقم (٢٧٣٠) كتاب: الفرائض، باب: ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك، والبيهقي في سننه الكبرى رقم (١٢٠٠٦) كتاب: الفرائض، باب: من قال بتوريث ذوي الأرحام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حبهم إياك وشكرهم لك، وعليهم بعلو مقامك، وأصل هذا كله ما ثبت في الخبر الصحيح نقلاً وكشفًا: «أن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا على عزته وجلاله إلى عباده، فيقول: هل من تائب؟ هل من مستغفر؟ هل من داعٍ[1]، فما نزل إلا من رفعة، أين غناه عن العالمين من هذه الرتبة، ومن طلبه القرض من عباده، وأما الأهلية أيضًا في هذا الموطن فثابتة بالنقل أن «أهل القرآن أهل الله وخاصته»[2]، وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]، يريد القرآن فإنه كلام الله تعالى، وكلامه ذاته، فهم أهل الله تعالى، فإذا كان الله تعالى ينزل إلى أهله، فأنت أولى بالنزول إليه من هذه الرفعة العارضة، فإن نسبتك إليهم أعظم وأبلغ من نسبة العالم إلى الله، فيما يظهر للمؤمنين أن ذلك معهم نسبة المثلية، وليست للعالم هذه النسبة مع الله مع هذا جعلهم الله تعالى أهله.

ثم قال: (وإذا رأيت بعض الأولياء قد أخفى حاله عن الناس، ويُظهر لهم خلاف حاله، فإياك أن تنبه أحدًا من الخلق عليه) أصل هذا

---

(١) بلغة الغواص ..يشير إلى الحديث المروي في البخاري رقم (١٠٩٤) في كتاب: أبواب التهجد باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**» وبرقم (٧٠٥٦) كتاب: التوحيد باب: يريدون أن يبدلوا كلام الله، ومسلم في صحيحه واللفظ له رقم (٧٥٨) كتاب: صلاة المسافرين باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والترمذي في سننه رقم (٤٤٦) باب: ما جاء في نزول الرب إلى السماء الدنيا كل ليلة، وقال حديث حسن صحيح، والإمام مالك في موطئه رقم (٤٩٨) كتاب: القرآن، باب: ما جاء في الدعاء.

(٢) طرف من الحديث الذي أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٢٠٤٦) كتاب: فضائل القرآن عن أنس t قال: قال رسول الله □: «**إن لله أهلين من الناس، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**» وقد روي هذا الحديث من ثلاثة أوجه عن أنس هذا أمثلها، ورواه الإمام أحمد في مسنده رقم (١٢٣٠١) (٣/١٢٧)، وابن ماجة في سننه رقم (٢١٥) باب: فضل من تعلم القرآن وعلمه، والنسائي في سننه الكبرى رقم (٨٠٣١) كتاب: فضائل القرآن، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٢٦٨٨) (٢/٥٥١)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٢٠٩) كتاب: قراءة القرآن، والكناني في مصباح الزجاجة رقم (٧٧) (١/٢٩) وقال: إسناد صحيح رجاله موثقون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخبر الصحيح نقلاً وكشفًا يوم القيامة إذا تجلى الحق لعباده في غير الصورة التي يعلمون، فينكرونه، والعارفون به مثل الأنبياء في ذلك الموطن لا ينبهون العالَم عليه، فإنهم علموا من الحق أن ذلك مراده في ذلك الموطن، فلم يخالفوه في ذلك، وقصده t في ذلك الأدب، فإنه من الأدب معهم أن يجري معهم على ما يريدون، وأما التحقيق في ذلك@ وربما فات هذا الشيخ العلم به أو علمه، فقصر في العبارة عنه، فهو أن تعلم أن تلك الصورة التي ظهر فيها هذا الولي من أحواله أيضًا، فما ظهر بخلاف أحواله، وإنما ظهر بخلاف الحال التي يعتقد في الولي أنه حال له، ولا يُخفي ولي حاله عن الناس؛ إلابدخوله مداخلهم في عاداتهم مما لا تُهتَك فيه حرمة شرعية، فلا ترى العامة من هذا الولي إلا ما اعتاده من العامة، فلا يتميز لهم حال الولي المتوهم في نفوسهم، فيكون سترًا لهم على هذا الحال المتوهم، فما استتر أيضًا إلا بحاله، فإن استتر بأمر في الظاهر عندهم أنه منتهك فيه حرمة شرعية، فالغلط في نظرهم لا في نفس الأمر، وبعيد أن يقع مثل هذا من كبير في الطريق متمكن، ولا من صاحب حال لشغله، فإن صاحب الحال تحت حكم حاله، فلا يقوم له خاطر في الستر ولا في الظهور، وإنما هو بحكم ما يصرفه فيه حاله، وإنما يقع الستر من الأكابر بالمباحات والعادات، التي لا يقدح الشرع فيها خاصة، وإن اتفق أن يظهر عند الناظر أن ذلك فيه انتهاك حرمة مشروعة، فما هو مقصود لذلك الولي وإنه جارٍ على عادته في ذلك مع الله تعالى، وأن شغله في ذلك الوقت مع الله بحكم ما اعتاده منه لا مع الخلق، فيتخيل الأجنبي أن ذلك الولي قصد الستر بما جرى منه، مما ظاهره منكر وباطنه معروف، وليس كذلك، فما أتى هذا الولي؛ إلا لأمر صحيح محمود في الشرع لو أنصف هذا الناظر، كرجل شرب كأس خمر في نظر عين الحاضر، لعلمه بخمرية ذلك الكأس، وهو شرب ما يجوز له شربه، ولا يعلم ذلك الحاضر حتى يتناوله إياه منه إن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اعتنى به، إذا لم يخطر له ستر حاله، فشربه الأجنبي شرابًا حلالاً، فالأجنبي الذي لا يعلم ذلك محمود عنده في إنكاره، موفٍ لمقامه، والولي محمود في فعله إذا لم يقصد الستر، فإن قصد الستر بمثل هذا فهو مذموم في الطريق، بل لا يقع مثل هذا من ولي في العموم، وقد يقع من ولي في الخصوص من أصحابه اختيارًا منه لصدق دعواه في التسليم له، هذا ما لا يمنعه.

وعلى هذا يكون تجلي الحق تعالى يوم القيامة في الصورة المنكرة؛ اختبارًا للأدباء المتحققين بالأمانة، هل يعاملونه في ذلك الموطن بالمعاملة التي يستحقها الإله، أو يسكتون عن ذلك فلا ينكرون؟ وكذلك يفعلون، كما فعل قضيب البان مع أحمد البزار، حين ظهر له في صورة مختلفة والصورة واحدة، وأحمد متعجب، فلما أكمل شهوده بحسب ما أراده قضيب البان، قال له يا أحمد: من هو قضيب البان الذي لا يصلي ويترك ما فرض الله عليه؟ والله يا أحمد ما تركت فريضة تعينت لله عليّ، وإنما الأمر كما رأيت، أخبرني بذلك أحمد بالموصل في الموضع الذي أبصر منه ذلك، وهو عند باب تربة جرجيس النبي u .

فلهذا قلنا: قد يظهر الولي لبعض إخوانه بشيء من ذلك تعليمًا واختبارًا، ولم يقصد قضيب البان بما يظهر العامة منه الستر عنهم، وإنما الحال أعطاه ذلك فلم يكن يبالي بما يعتقده الناس فيه، فكان الناس مأجورين في الاعتراض عليه إذا فرضوا هذا عقلاً غير مأخوذ، وهو مأجور محمود حيث لم يقصد بذلك أن ينتهك الناس عرضه، فيأثمون لو حقق الله مطالبهم على ذلك، وإنما الله تعالى يتجاوز عن سيئات عباده.

كان لبعض الأولياء صاحب، وكان إلى جانب مسجد يخيط فيه، فما رأته الجماعة قط يصلي معهم في المسجد، فعظم ذلك عليهم فرجموه، وهو لا يقول لهم شيئًا حتى قتلوه، فجاء من يعرفه فأخبرهم بحاله، وأنه ما فاتته قط صلاة فريضة، ثم ذكر أنه كان يصلي الظهر بمكة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعصر بالمدينة، والمغرب ببيت المقدس، والعشاء بالساحل، والصبح على ظهر جبل قاف، فندموا على قتله وتبركوا بقبره بعد موته، وما كان الشيخ يقصد الستر، ولا يقول عن نفسه أنه بهذه الصفة؛ لعلمه بأنهم لا يصدقوه، فشغله حاله عن الإعلام بذلك، وقد رأينا من رجال الله من له هذا المقام.

وأما وصيته بجبر القلوب المنكسرة، فذلك لأمر محقق فإن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم، فيريد بذلك أن الجابر إذا تحقق بهذا الحال لم يبعد أن يكشف الله له عن عينه، فيرى الحق الذي عند هذا الانكسار، فإنه عندها بالجبر لها، فإذا جبرها هذا الشخص فهو الحق الذي عندها لو علمت، كما ورد في الخبر الصحيح نقلاً وكشفًا أن الله تعالى يقول: «يا عبدي مرضت فلم تعدني؟ فيقول العبد: وكيف يا رب تمرض وأنت رب العالمين؟ فقال: يا عبدي أما علمت أن فلانًا مرض، فلو عدته لوجدتني عنده»[1]، فهذا وجدان خاص كوجدانه عند المنكسر قلبه من أجل الله تعالى، فكل عائد لا يجد الله عند المريض فما عاده، لأنه قال وقوله صدق «لوجدتني عنده» وأقل الوجدان أن العائد يجد عند المريض الله مذكورًا له يطلب منه الشفاء، ويسلم له القضاء فيه، فإنه مقهور مغلوب في حال مرضه، كان المريض من كان، وتعلق المعتقد بمن تعلق، فإن كل مريض إلهه من تعلق به في شفائه وبُرئِه، فإن الله تعالى قد تجلى له في تلك الصورة التي تعلق بها، وأنه تعالى ما خص في هذا الخبر مريضًا من مريض، ومعلوم أن المرضى مختلفون في الاعتقادات في معبودهم، والجامع للكل القصد المحقق في كل واحد

(١) قطعة من حديث قدسي أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة t مرفوعًا رقم (٢٥٦٩) كتاب: البر والصلة والآداب باب: فضل عيادة المريض، وابن حبان في صحيحه رقم (٩٤٤) (٣/٢٢٤)، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رقم (٩١٨٢) (٦/٥٣٤)، والمنذري في الترغيب والترهيب رقم (١٤٠٦) (٢/٣٧)، والديلمي في الفردوس رقم (٨٠٥٣) (٥/٢٣٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واحد، أن الله تعالى هو الشافي والمعافي، والطبيب يعالج، والحق في صورة الدواء لا في صورة الطبيب، فإذا تجلى الحق في صورة دواء خاص؛ كان فيه الشفاء من هذا المرض الخاص لهذا المريض الخاص، ونفس الجابر لهذا الانكسار ليس للحق تجلٍ؛ إلا في جبره، ولا في صورة شخصه الجابر من كونه إنسانًا، بل من كونه جابرًا، فهذا هو التجلي في صورة المعاني، فبأي شيء يكون جبر هذا المنكسر، فذلك الجبر هو الحق الذي عند هذا المنكسر، فمتى لم ينجبر بذلك فما هو هذا الحق الخاص لهذا الانكسار الخاص.

فإن الدواء إذا ناسب دفع الداء أنجع وزال باستعماله ذلك الداء، فإن المناسبة بين الداء والدواء مناسبة النقيض، ولذلك يزيله، ولو ناسب مناسبة النظر لزاد في كمية انكساره أو مرضه، فإن الانكسار مرض نفسي يغلب في أوقات حتى يظهر على الحس، ويتغير له مزاج الهيكل، فمرض النفوس أبدًا تتغير له أمزجة الهياكل، ولا يلزم من ذلك مرض مزاجي تغير النفس بل ذلك في المرض خاصة.

وأما وصيته: (ألا يحترم صاحب مال لماله، ولا صاحب جاه لجاهه) يريد إذا حجبك ذلك المال عن ظهور الحق بصورته، أو بصورة ذلك الجاه، وذلك بأن تفرق بين صاحب المال والجاه، وبين من لا مال له، فلا تحترم الفقير ولا المستهضم هذا ميزانك، فإن احترمت الفقير في حال فقره، والمستهضم في حال استهضامه، لم يقدح في مقامك احترام صاحب المال لماله، ولا صاحب الجاه لجاهه، فقد علمت منك مَن هو مشهودك في ذلك، ولذلك قال من أدب الله نبيه في سورة عبس، ما قد كان لما فرق، فلما علّمه الله صبر نفسه مع القوم الذين أمر أن يصبر نفسه معهم، وكانوا مستهضمين بالعبودية، وهذا مقام لا يحصل ذوقا؛ إلا من رأى الله قبل كل شيء كأبي بكر الصديق t ، فإنه إذا رآه قبل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كل شيء عرفه، فإذا عرفه لم يظهر له بالتحول في عين الشيء إلا ميزه وعرفه، ولهذا قال: (ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله) وهذا أتم المقامات في العلم من الذي قال: (ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه)، وأما من قال: (ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله معه) فلابد أن يتقدمه العلم بالله، والله سبحانه وتعالى أعلم.

تمت هذه الوصية المباركة بتوفيق الله تعالى وعونه، والحمد لله الذي لا رب غيره، وصلى الله على نبيه المكرم سيدنا ومولانا محمد، وآله وأصحابه، وسلم تسليمًا والحمد لله رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com